

حياتي

أُولى رحلاتِه إلى الحِجاز بين عامي (١٢٩٦ - ١٣٠٢)هـ

ترجمة
إحسان وَصْفي

مُراجعة
أ.د. صالح مَهْدي السامرائي

تصحيح وحواشي
منصور عبد الباقي بُخاري



عَبْدُ الرَّشِيد ابراهيم

رحّالةٌ وداعِيةٌ تركستاني مُؤسّس أوّل مَسجد بِطوكيو
تُوفّي سنة ١٣٦٣هـ

دار الميراث النبوي
للدراسات والتحقيق وخدمة التراث



أولى رحلاته إلى الحجاز بين عامي (١٢٩٦ - ١٣٠٢)هـ

عبد الرشيد ابراهيم

رحالة وداعية تركستاني مؤسس أول مسجد بطوكيو
توفي سنة ١٣٦٣هـ

ترجمة
إحسان وصفي

مراجعة
أ.د. صالح مهدي السامرائي

تصحيح وحواشي
منصور عبد الباقي بخاري

دار الميراث النبوي
للدراسات والتحقيق وخدمة التراث



حياتي

(ترجمة عربية لكتابه: ترجمهء حالم)

عبدالرشيد إبراهيم

مراجعة وإعداد مدير المركز الإسلامي باليابان

أ.د. صالح مهدي السامرائي

تصحيح وحواشي

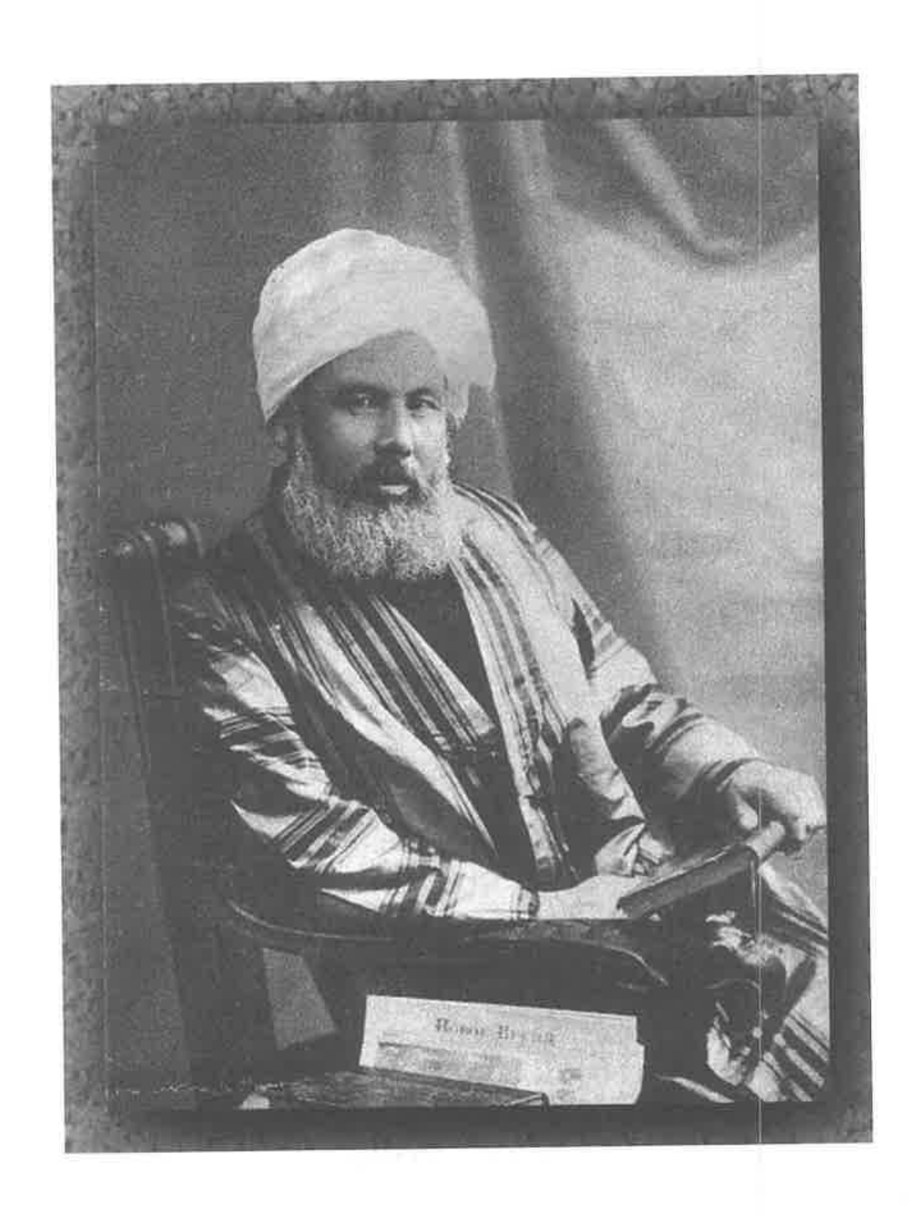
منصور عبدالباقي بخاري

bukharyma@hotmail.com

www.facebook.com\MansourBukhary

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

الطبعة الأولى-مكة المكرمة



الإهداء

إلى روح عبدالرشيد إبراهيم رحمه الله

الذي طاف الأرض من أجل الحرية والاستقلال والعدالة والوحدة الإسلامية

مقدمة الدكتور صالح السامرائي[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف عباده من الرسل والأنبياء والسادة المتقين سيدنا محمد عليه وآله أفضل الصلاة وأتم التسليم.

عبدالرشيد إبراهيم عملاق من مسلمي روسيا، عالم ومفكر وداعية ورحالة وسياسي. ولد ونشأ في مدينة تارا TARA في سيبيريا في أواخر القرن التاسع عشر، وتعلم وعلّم في ربوع سيبيريا واسطنبول والمدينة المنورة، وطاف في أوائل القرن

---

(١) صالح بن مهدي السامرائي العراقي حفظه الله رئيس المركز الإسلامي في اليابان، ولد في الرابع من نوفمبر عام ١٩٣٢م في مدينة سامراء في العراق، والده كان تاجر أغنام، دخل الكتّاب ودرس القرآن الكريم على شيخه ملّا قدوري ثم درس المتوسطة بسامراء والثانوية ببغداد، وعيّن مدرساً في جنوب العراق لمدة خمس سنوات، ثم سافر عام ١٩٥٨م وحصل على شهادة البكالوريوس في الزراعة من جامعة البنجاب (لايبور فيصل آباد – باكستان). خرج في رحلة دعوية طويلة إلى الهند وأفغانستان ثم سافر إلى اليابان بالسفينة من كلكتا إلى يوكوهاما وتجول لمدة شهرين في مدن اليابان وقرّر أن يكمل دراسته العليا هناك فنال شهادتي الماجستير والدكتوراة في العلوم الزراعية من جامعة طوكيو عام ١٩٦٦م. كانت له نشاطات دعوية وهو طالب، ثم انفصل عن جماعة التبليغ وأسس جمعية الطلبة المسلمين بجامعة طوكيو عام ١٩٦١م بعدها عاد وعمل سنة واحدة أستاذاً في كلية الزراعة بجامعة بغداد، ثم انتدب إلى الرياض وكان من أوائل الأساتذة في كلية الزراعة جامعة الملك سعود، ثم أسس قسم زراعة المناطق الجافة في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة. خرج نهائياً من العراق عام ١٩٦٨م وسافر إلى العديد من دول العالم، وبعثه الملك فيصل رحمه الله لمدة خمس سنوات إلى اليابان فافتتح المركز الإسلامي بطوكيو وترجم العديد من الكتب واستفاد منه خلق كثير. وهو أحد مؤسسي الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض، ومستشار فيها حتى الآن، وعمل عضواً في المجلس الأعلى للمساجد، وهو عضو في مؤتمر العالم الإسلامي. وله بحوث عديدة في مجاله العلمي (زراعة) وزار ما يزيد عن خمسين بلداً في العالم، وألف كتاباً عن الإسلام في اليابان مشاركةً. مهتم بقضايا الأقليات المسلمة في كثير من الدول، ويهوى ترجمة مؤلفات الأعلام والدعاة الذين خدموا الدعوة الإسلامية سواء من الشرق أو الغرب، وقام بترجمة الكثير من تلك المصنفات النادرة سواء من الكتب أو المقالات أو الأبحاث. المصدر: منه حفظه الله.

العشرين عموم روسيا إلى أن وصل شرقها في ميناء فلادفستوك الذي أبحر منه إلى اليابان داعياً للإسلام، ومنها إلى كوريا والصين والهند والحجاز والشام ثم اسطنبول، وسجل رحلاته في كتاب موسوعي باللغة العثمانية أسماه "عالم إسلام"، وقمت بترجمته إلى العربية في جزأين بعنوان "العالم الإسلامي في رحلات عبدالرشيد إبراهيم"، وطبع الكتاب ونشر سنة ٢٠١١م.

ومن جملة ما ألفه عبدالرشيد إبراهيم هذه السيرة الذاتية، عن نشأته في بلاده وأحوال المسلمين في طريق رحلته في أواخر القرن التاسع عشر، وعنوان المذكرات (ترجمه حالم) أي (سيرتي الذاتية)، قمت بالوقوف على ترجمتها إلى العربية من اللغة العثمانية التي لقي المترجم عناء في ترجمتها.

إنها صفحة من حياة هذا الرجل الفذّ ومن حياة شعب أصيل في الإسلام تشرف بهذا الدين منذ القرون الأولى للهجرة، وقدم للإسلام خدمات لا تقل عما قدمته بقية الشعوب الإسلامية إن لم تكن في مقدمتها.

عمل قمت به أبتغي وجه الله لخدمة قومي المسلمين في كل مكان، ومشاركة يستفيد منها المهتمون بالحضارة الإسلامية من غير المسلمين.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب،،،

أ. د. صالح مهدي السامرائي

رئيس المركز الإسلامي في اليابان

٢٥/ ١١/ ٢٠١٣م

❁ ❁ ❁



مقدمة تاريخية

كان القرن الثالث عشر الهجري في العالم كله يمتاز بأنه عصر الاستعمار والتوسع، وعصر الاكتشافات والريادة العلمية. فكانت الدولة العثمانية في مراحلها الأخيرة ومشغولة في صد الاعتداءات الأوروبية عن أراضيها سواء في النمسا أو في جزيرة القرم أو مصر. وكانت روسيا القيصرية قد امتد نفوذها منذ عدة قرون سابقة على الكثير من الأراضي الإسلامية والتي يسكنها الترك المسلمون كبشكيريا وتتارستان وسيبيريا فأخذت بتغيير معالمها الديموغرافية. فأصبحت هذه المناطق بحكم تطاول السنين والقرون عليها تحت الاحتلال جزءاً من أجزاء الامبراطورية القيصرية الاستعمارية عرفاً طبيعياً بدون جدال أو مطالبة من المسلمين لها. ثم امتدت يدها إلى منطقة القوقاز وتركستان في آسيا الوسطى واستمرأت الاحتلال والاستعمار لبلاد المسلمين. وتكيف المسلمون خارجها حول العالم على ذلك فأصبحوا يطلقون على تلك الأراضي الإسلامية (أراضي روسية)!

كانت الدول الغربية الأوروبية قد تقدمت في مضمار النظم الدستورية والتعليم والصحافة والحرية والتربية والثقافة والعلوم التطبيقية، وكانت روسيا القيصرية آخذة في أسباب المدنية والثقافة وتسعى للنهوض بالمجتمع، فنظمت الجمارك واهتمت بالابتعاث العلمي لأوروبا وأسست الأكاديميات والمعاهد المدنية والعسكرية وأقامت

المكتبات والمسارح والمتاحف. ووضعوا أنظمة ولوائح تنظيمية للأبنية والشواطئ والخلجان والنظافة والأسواق والأمن.

وقد وصف الرحالة الشيخ محمد عياد الطنطاوي مدينة بتريسبيرغ أثناء إقامته فيها بين ١٢٥٦-١٢٦٦هـ (١٨٤٠-١٨٥٠م) بما يلي: فالأبنية في غاية الإتقان وشواطئ الأنهار والخلجان مرصفة أحسن ترصيف والنظافة مراعاة؛ ففي الخريف والصيف بكنس الطرق وتوصيل ماء المطر إلى البالوعات وإزالة الوحل والقاذورات وتجديد قطع الخشب والأحجار بالرمل، وفي الشتاء والربيع بكنس طرق العربات التي في الوسط فلا تنظف إلا في آخر الشتاء ا.هـ.

أما في الحجاز فكانت الأوضاع السياسية غير مستقرة والأوضاع الاقتصادية متدهورة ولا توجد بنية تحتية في أهم المدن كمكة المكرمة والمدينة المنورة، وكانت قوافل الحجاج تتعرض للمداهمات وكان المجتمع المكي والمدني يعاني من نقص في المياه والرعاية الصحية وكثير من الخدمات الأساسية ناهيك عن التنظيمات البلدية والعمرانية والجمالية التي لم يكن لها أي وجود ولا اهتمام، ولم تكن الصحف تصدر بالحجاز، وكانت المدارس تدرس طلبتها المواد الشرعية فقط دون العلمية التطبيقية، وسنورد جانباً من هذه المظاهر خلال القرن الثالث عشر الهجري وسأبدأ من بداية الربع الثاني حتى تكون الأحداث متصلة نوعاً ما وفي سياق مختصر:

في عام ١٢٢٥هـ كانت موارد الشريف غالب هي من إيرادات جمارك ميناء جدة، وكانت هي المصدر الرئيسي بالإضافة إلى الصُّرَر (أكياس المال) التي كان يرسلها السلطان العثماني مع الحبوب والغلال وغيرها من ضمن الأوقاف التي أوقفوها في مختلف البلدان لصالح الحرمين. وكانت صلاحياتهم إدارية على الحجاز بوجود قائد عسكري وحامية تتبع السلطان العثماني، وكان القضاء في مكة والمدينة مستقلاً عن الشريف وكان القضاة يرسلون تقاريراً للسلطان ولهم رتب ومخصصات خاصة بهم[١].

وكان محمد علي باشا الحاكم في مصر هو المسئول عن شئون الحجاز[٢].

فلما اتسع نفوذ "سعود الكبير" أحد أمراء الدولة السعودية الأولى في الجزيرة العربية أرسل ابنيه طوسون بيك وأحمد آغا في حملة عسكرية كبيرة لقتاله. وكانت بعض القبائل البدوية مثل قبيلة بني حرب يجبرون قوافل الحجاج على دفع مبالغ معتبرة من أجل أن يسمح لهم بالمرور بسلام. وبعد فتح المدينة المنورة وإخراجهم منها في منتصف

---

(١) وفي أواخر القرن الثالث عشر بدأ القضاة بالتأثر من نفوذ الشريف والوالي العثماني فكان يوجد قضاة لهم ولاء للشريف وقضاة لهم ولاء للوالي العثماني. وكانت الحكومة العثمانية في السابق تعين أربع قضاة كل واحد منهم يمثل أحد المذاهب الأربعة ثم أصبح لا يوجد إلا قاضي الأحناف الذي يقوم بتصريف الشئون الدينية وأمور الأحوال الشخصية فقط، وكان لكل مذهب مفتٍ خاص ويلتزم القاضي الحنفي بما يصدره هؤلاء المفتون من أحكام.

(٢) لم تكن قناة السويس قد حفرت في ذلك الوقت ولم يكن خط السكة الحديدي قد أنشأ بعد، ولبعد المسافة عن عاصمة السلطنة قرر السلطان العثماني أن يكون والي مصر هو المسئول عن إدارة شئون الحجاز سياسياً وعسكرياً وذلك من عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

ذو القعدة سنة ١٢٢٧هـ اتجه أحمد آغا إلى جدة ومكة وكان قليل من سكان جدة قد بقي بها حيث اتجهوا إلى مكة، ففتحت مكة والطائف.

ثم حضر محمد علي باشا لجدة وألقى القبض على الشريف غالب بالرغم من أنه صرف الكثير من الأموال على ترميم وإصلاح قلعته الحامية بمكة وجهزها بالكثير من الزاد والعتاد وكان قد فقد بعضاً من شعبيته بين القبائل بسبب فرضه للضرائب العالية على مخالفات بسيطة، وقد تم ترحيله إلى اسطنبول وتوفي هناك سنة ١٢٣١هـ. وقام محمد علي بتعيين الشريف يحي بن سرور بن مساعد على مكة.

قدم سليمان باشا من الشام مع الحجاج السوريين عبر الصحراء وبدون أي عقبات مع أن البدو أجبروه على دفع ضريبة المرور خلال العشر سنوات السابقة والتي توقف خلالها الحج من الشام إلى الحجاز، وكان الطريق البديل للحجاج لمن يأتي من آسيا واسطنبول عن طريق السويس ثم جدة فمكة، وقد ابتهج الناس بما فيهم أبناء سعود من الانتعاش الاقتصادي الناتج من مدخول الحج.

ثم قام محمد علي بعدد من الاصلاحات الداخلية فرفع بعض الضرائب عن الناس وأصدر "فرماناً" بالكفّ عن لغة الشتائم التي كان الجنود الترك يستخدمونها ضد المواطنين وفرض أنظمة صارمة بمعاقبة الجنود الذين يشترون بنصف القيمة قسراً وذلك محاولة منه في رفع شعبيته ومحبته بين الناس. وهزم جيش محمد علي في محاولته

لفتح ميناء (القنفذة) الذي يبعد ٧٠ كم عن ميناء جدة وذلك في محاولة منه لغزو بلدة (تَربَة).

ولما توفي سعود الكبير في منتصف عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م) أصبح ابنه عبدالله هو القائد وخرج طوسون باشا إليه حتى (الرسّ) وعقدا اتفاقية صلح على أن تكون منطقة القصيم تحت سيطرة عبدالله بن عبدالعزيز ويستطيع التنقل بحرية في الحجاز لأداء فريضة الحج. ثم توجه محمد علي باشا إلى مصر عن طريق ينبع ووصل القاهرة منتصف عام ١٢٣٠هـ. ومن بعده رجع طوسون وتوفي بسبب الحمى.

بعد ذلك قام محمد علي بتجهيز حملة كبيرة بقيادة ابنه إبراهيم باشا فتوجه نحو القصيم واستولى عليها ومن بعدها الأحساء وانتهت الدولة السعودية الأولى، وأصبحت الجزيرة العربية تحت السيطرة المصرية التركية ما عدا جنوبها وتهامة فقد بقيت بيد الإمام اليمني حتى تم احتلالها سنة ١٢٤٧هـ.

ومن الأحداث المهمة التي وقعت في عام ١٢٥٤هـ أنه تمت الموافقة على تعيين مستر أوغليفاي كنائب قنصل رسمي لبريطانيا في ذلك الوقت ولم يلقَ أي اعتراض من أي قوى موجودة بالمنطقة، وتبعتها فرنسا بعدها بافتتاح قنصلية لها أيضاً.

استمرت بعد ذلك المناوشات بين الدولة السعودية الثانية والأتراك عدة سنوات حتى تم تعيين الشريف محمد بن عون شريفاً لمكة المكرمة عام ١٢٥٥هـ وكان

محنكاً استطاع أن يستولي على ولاء القبائل وحدثت خلافات بينه وبين الباشا العثماني في جدة[1] وتم ترحيله إلى اسطنبول ١٢٦٨هـ وتعيين الشريف عبدالمطلب بن غالب بدلاً عنه، لكن الأخير لم يستطع الامساك بزمام الأمور وأصبحت منطقة الحجاز تعيش في اضطراب فاضطر الأتراك إلى إعادة تعيين الشريف محمد بن عون إلى مكة في عام ١٢٧٢هـ.

بعد افتتاح قناة السويس ومنذ ١٢٨٦هـ (١٨٧٠م) في فترة الخديوي إسماعيل حاكم مصر بدأت علاقة شريف مكة تتأثر سلباً بالسلطان العثماني بسبب التدخل المباشر من العثمانيين في الأوضاع السياسية والميدانية بسبب سهولة وصولهم من تركيا لجدة بالبحر.

في عام ١٢٩٦هـ كان الذهب يستخرج من منطقة (مهد الذهب) بالقرب من المدينة المنورة، ويعبأ في صناديق ثم يشحن إلى إسطنبول. وكانت المدارس الدينية في مكة المكرمة والمدينة المنورة بالرغم من كثرتها يصرف عليها من ريع الأوقاف الخيرية التي أقامها السلاطين أو الأهالي في منطقة الأناضول، سواء لأجور مدرسيها أو إصلاحها وترميمها أو صيانة مكتباتها أو حتى مكافآت طلبتها المالية المخصصة.

---

(١) قام السلطان العثماني بتعيين والي بجدة لأسباب كثيرة: منها أن يقوم بمنع شريف مكة من التحكم في التجارة والأهالي، وكانت جدة قد أصبحت ميناء مهماً بالمنطقة كما أوكلت إليه مسئولية مشيخة الحرم المكي الشريف.

في ذي القعدة سنة ١٢٩٨هـ (أكتوبر ١٨٨١م) عيّن عثمان نوري باشا[١] والياً عثمانياً خلفاً لعزت باشا. وتم عزل الشريف عبدالمطلب بن غالب[٢] الذي توفي عام ١٣٠٤هـ.

وفي عام ١٢٩٩هـ (١٨٨٢م) تم تعيين الشريف عون الرفيق بن محمد شريفاً على مكة وأصبحت البروتوكولات الرئاسية تتغير شيئاً فشيئاً نحو التحضر والتجدد كاستخدام مرافقين ومواكب مسيرة وملابس فاخرة، وبدأت المقاهي العامة والديوانيات تنتشر في مكة كعادة غريبة عنها.

---

(١) عثمان نوري باشا ابن العقيد أحمد بيك (والمعروف بالأعرج)، ولد باسطنبول عام ١٢٥٦هـ، تدرج في السلك العسكري وشارك في حرب الصرب والبلقان، ثم عيّن قومنداناً للعساكر (قائد عسكري) ليساعد والي الحجاز عزت باشا، ثم رقي إلى مرتبة مشير وخلفه سنة ١٢٩٩هـ، ثم عيّن في ١٣٠٤هـ محافظاً لحلب، ثم حاكماً لليمن في عام ١٣٠٨هـ، ثم تولى ولاية الحجاز مرة ثانية، وتوفي باسطنبول سنة ١٣١٥هـ. كان رجلاً ذكياً عادلاً قام بإصلاحات عديدة منها إزالة بعض العوائق من صحن المسجد الحرام وبناء قسم شرطة في الصفا وإنشاء دار الحكومة بالحميدية وأصلح الطريق الوعر للصعود لغار ثور في جبل ثور وأنشأ حديقة بالقرب من منطقة جرول (الشيخ محمود) وزرع بها العديد من الأشجار وأباحها لأهل مكة فكان أول من أنشأ منتزهات بمكة المكرمة، وأدخل المطبعة والتلغراف إلى مكة وأنشأ مستشفى بمنى ومورداً مائياً بمسجد الخيف، وأنشأ سور ينبع. وكان والي الحجاز عادة يقيم في جدة لكنه أصبح له مقراً في مكة بجانب الشريف فاطلع على تحركات الشريف حسين وابنه عبدالله واتصالهما بالبريطانيين، وقد أرسل رسالة يحذر فيها السلطان عبدالحميد الثاني من تلك المخابرة. وهو غير القائد وزير الحربية عثمان نوري باشا الملقب (بغازي عثمان باشا ١٨٣٢-١٩٠٠م).

(٢) توفي بمكة سنة ١٣٠٤هـ وقد تجاوز المائة سنة، وكان ذا علم وفضيلة وطموح وشجاعة وعصبي المزاج.


عثمان نوري باشا

أوقف عثمان نوري حصة عائدات ميناء جدة من الضريبة الجمركية عن الشريف عون الرفيق وبدأ بعمل إصلاحات بنيوية بجدة لتحسين مصادر المياه فأعاد بناء قناة عين زبيدة وعمل فيها صنابير (حنفيات) وأنشأ مبان جديدة حكومية وقلص صلاحيات الشريف القضائية أيضاً، مما دفع الشريف عون إلى الاعتراض والهجرة إلى المدينة المنورة والشكوى للسلطان العثماني، فقام السلطان بترحيل عثمان نوري إلى حلب واستبداله بجمال باشا، فرجع الشريف عون إلى مكة وتوفي عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م).[1]

في عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) تم تعيين الشريف حسين بن علي على مكة، وبدأت سكة حديد الحجاز بالعمل، وأصبح قدوم الحجاج أكثر سهولة كما أصبح تدعيم القوات التركية أكثر سهولة وسرعة أيضاً في الحجاز. وكان الشريف حسين بدأ يشتهر ويكبر صيته بين القبائل العربية والدول العربية المجاورة، فجمعية الوحدة في

(١) كان للأشراف مكانة عالية عند سلاطين الدولة العثمانية وكانت رتبتهم أعلى من رتبة وزير السلطان بدرجة، وكان السلطان يقف للشريف إذا حضر لمجلسه. وكان هذا تمجيداً واحتراماً وتقديراً لجدهم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ينتسبون إليه.

العراق وجمعية الحرية في سوريا ترسلان مبعوثهما إلى الشريف وتتبادلان الرسائل للتهيئة لثورة عربية بالمنطقة. وكان عبدالله بن الشريف حسين قد فتح قنوات اتصال مع البريطانيين وخاصة اللورد كيتشنر، وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) بدأت مراسلات بينه وبين كيتشنر لمعرفة أين سيقف الشريف حسين، بصفّ الأتراك أم بصف البريطانيين؟ لو أنهم أعلنوا الحرب على الأتراك.

في عام ١٣٣٤هـ (١٩١٦م) أعلن الشريف حسين رسمياً استقلاله عن السلطنة العثمانية وفتح النار على الحامية التركية بمكة المكرمة وقاوم القائد التركي فخري باشا بالمدينة المنورة حتى استسلم عام ١٣٣٧هـ (١٩١٩م). وانتهت سيطرة الأتراك على الأراضي المقدسة بعد ٤٠٠ عام. وأعلن الشريف حسين ملكاً على البلاد العربية.

لم يدم ملكه كثيراً فسرعان ما خرج الملك عبدالعزيز بن سعود الثاني من وسط الجزيرة العربية فهاجم الشريف حسين في (تربة) عام ١٣٣٧هـ (١٩١٩م) واستطاع أن يدخل الحجاز في عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م). وأُعلن سلطاناً على نجد والحجاز في عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٧م).

هكذا كانت الأوضاع السياسية والأمنية في منطقة الحجاز خلال القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر، وسيوضح هذا الكتاب الكثير من الأوضاع العلمية والاجتماعية بالمنطقة خلال فترة وجود عبدالرشيد إبراهيم بالحجاز.

إن رحلة الشيخ عبدالرشيد إبراهيم الأولى إلى الحجاز سنة (١٢٩٦-١٣٠٢هـ) تعد وثيقة تاريخية وأدبية في العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجري، عرفتنا على الأوضاع الفكرية والثقافية والعلمية السائدة في سيبيريا وشمال كازاخستان ومكة المكرمة وبالأخص بالمدينة المنورة، وكذلك بأحوال الحجاج وكيفية قضاء مناسكهم في المشاعر المقدسة، علاوة على النكات واللطائف التي ضمنت بالكتاب. ومع ذلك فإن رحلة عبدالرشيد إبراهيم تظل ذات قيمة عالية وشاهداً على الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية ليس في الحجاز فقط وبل في تتارستان وسيبيريا أيضاً، والرحلة وإن كانت قصيرة ومختصرة في سردها إلا أنها غنية في محتواها ومعانيها ودروسها ومقاصدها السامية.

قضى عبدالرشيد إبراهيم أكثر من خمس سنوات بالحجاز وتعلم الكثير من العلوم وحفظ القرآن، وأهم من ذلك تعلم الكثير من الدروس في التضامن الإسلامي، وقد سرد الكثير من الحوارات مع مدرسيه ومشايخه في سبيل الدعوة إلى الله وتنظيم الرابطة الروحية للمسلمين أثناء أداءهم لمناسك الحج وفي حياتهم اليومية.

كتاب عبدالرشيد إبراهيم هذا مختلف عن كثير من كتب الرحلات التي كتبها أصحابها عن المدينة المنورة؛ لأنهم كانوا يأتون لغرض الحج والزيارة ويقيمون فترة قصيرة لا يستطيعوا احتواء جميع مظاهر الحياة العلمية والاجتماعية، لكن عبدالرشيد إبراهيم أقام بالمدينة المنورة عدة سنوات لطلب العلم فكتب عن الكثير من عادات

وتقاليد أهل المدينة وأحوالهم وأعيانهم ومشايخهم، وعرّفنا على الكثير من الشخصيات المهمة في تلك الفترة، وكان جريئاً بسرد الكثير من العادات الإيجابية والسلبية في المجتمع المدني وذلك من خلال احتكاكه بهم وقربه منهم.

فإذا كانت تقارير الضابط التتاري عبدالعزيز دولتشين[1] (في رحلة حجه عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م) تناولت المظاهر العسكرية والجغرافية والديموغرافية والزراعية والصحيّة والاقتصادية للمدينة المنورة فإن رحلة عبدالرشيد إبراهيم تناولت مظاهر الحياة التعليمية والثقافية والاجتماعية لأهالي المدينة المنورة.

كان عبدالرشيد إبراهيم شخصية اجتماعية من الطراز الأول يحب التعلم والاستزادة والتعرف على الناس والتقاليد والمراسيم والعادات، ولا يحب أن يترك المعلومة التي ترد عليه تمرّ بدون أن يتعرف على أسبابها ودوافع وجودها؛ لهذا قدّم لنا

---

(١) ضابط الاستخبارات التتاري الحاج عبدالعزيز دولتشين له مذكرات عن رحلته إلى الحج سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٨م) وكان عبدالرشيد إبراهيم مرافقاً له في هذه الرحلة وكان ملازماً له في مكة والمدينة. ولد في عام ١٨٦١م من عائلة تترية متدينة ومعروفة وكان والده في منصب هام بإدارة مناطق الأورال الجنوبية، خدم عبدالعزيز في الجيش وتخرج ضابطاً ثم التحق بكلية اللغات الشرقية بالإدارة الآسيوية. وعندما اتسعت مساحة الأراضي الروسية المستعمرة للدول الإسلامية وتفاجأوا بطلبات جوازات السفر لأداء الحج من الشعوب المسلمة فاضطرت الإدارة القيصرية لابتعاث أحد الضباط المسلمين لمحاولة فهم تأثير هذا الركن الإسلامي على المواطنين ومدى تأثر فكر الحاج بهذه الفريضة بعد أداءها، وكذلك لرصد المحاجر الصحية في النقاط الحدودية لعدم انتشار الأمراض الوبائية (كانت طبعاً هذه كلها حجج لمضايقة المسلمين في هذه الشعيرة المقدسة). وقد حصل على عدة أوسمة منها وسام النجمة الذهبية من الدرجة الثالثة من أمير بخارى، وتوفي سنة ١٩٢٠م. كتاب "الحج قبل مائة" عام ليفيم ريزفان وبعض المصادر الأخرى.

عبدالرشيد إبراهيم رحمه الله صورة حقيقية وواقعية عن المجتمع المدني بدون تلميع أو تحريف أو تجميل أو محاباة.

منصور بن عبدالباقي بخاري المدني

المدينة المنورة رجب ١٤٣٥هـ



عملي في الكتاب

أصل هذا الكتاب مطبوع حوالي عام ١٩٠٦م (١٣٢٣هـ) باللغة التركية (العثمانية) وبالحروف العربية في ١٢٨ صفحة باسم (ترجمهء حالم) أي: سيرتي الذاتية، وقد حصلت في بداية الأمر على ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية (نسخة الحاسب الآلي) من الدكتور صالح مهدي السامرائي الذي أنفق على ترجمتها وراجعها. ويبدو أن الترجمة تمت قبل عدة سنوات ولكن لم ينشر الكتاب ولم يطبع، فعرض عليّ الدكتور صالح نشره وطبعه فوافقت على أن أقوم بتدقيقه وتصحيحه والتعليق عليه، وبسبب طول المدة بين ترجمة الكتاب إلى العربية وبين حصولي على النص المترجم يبدو أن الكتاب الأصلي بالتركية قد فُقد؛ فلذلك لم أحصل على النسخة التركية المطبوعة. ثم حصلت على الكراسة الأصلية للمترجم بخط يده فقمت بعمل الكثير من التصحيحات الإملائية وتصحيح تعريب بعض مسميات البلدان والمعالم الجغرافية.

ثم حاولت الحصول على النسخة التركية وبعد عدة أشهر من التواصل مع الباحثين والأصدقاء سواء في قازان أو اسطنبول، أرسل لي البروفيسور مصطفى أوزون حفظه الله (الأستاذ في جامعة مرمرة) نسخة رقمية من الكتاب بعد تصويره جزاه الله خيراً عبر البريد الإلكتروني.

كنت أريد النسخة التركية لأقارن بين المسميات والعبارات المذكورة هناك وبين دقة تعريب النص والوقوف على الإجازة الشرعية العلمية التي ألحقها آخر



د. مصطفى أوزون

الكتاب باللغة العربية والتي بطبيعة الحال لم تكن موجودة في كراسة النص المترجم إلى العربية. وبالفعل عند مقارنتي للترجمة مع الأصل وجدت الكثير من أخطاء النسخ والتعريب وبعض العبارات أو الأحداث التي لم يترجمها المترجم إلى العربية (لكنها لم تكن مؤثرة في سياق النص ومحتوى الكتاب) وكذلك الكثير من الأخطاء في مسميات البلدان والأعلام، فقمت بتصحيحها وتعديل ما يمكن تعديله وإضافته حسب النطق الصحيح للعبارة خاصة بالنسبة للمعلومات الجغرافية للأماكن وأسماء الرجال.

ثم قمت بعمل التالي:

١. جميع التعليقات والهوامش في حواشي الكتاب من عملي.

٢. كتبت مقدمة تاريخية مختصرة في أول الكتاب عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في القرن الثالث عشر في المناطق الرئيسية التي أقام فيها المؤلف أثناء تنقله لكتابة رحلته هذه.

٣. أضفت تعريفات مختصرة للبلدان والمدن وبمسمياتها اللاتينية وموقعها الحالي حتى يسهل على القارئ البحث عن الموقع الجغرافي للبلدان والمدن.

٤. ترجمت للكثير من الشخصيات ممن ذكرهم المؤلف سواء في سيبيريا أو في الحجاز من زملاءه أو مشايخه وخاصة التركستانيين.

٥. وضعت بآخر الكتاب فهارس محتويات وأعلام ومراجع للتعليقات والحواشي التي كتبتها.

٦. أضفت صورة وسيرة شخصية شاملة ومطولة عن المؤلف الشيخ عبدالرشيد إبراهيم رحمه الله في أول الكتاب، حتى يتعرف قارئ الكتاب على شخصية المؤلف العظيمة قبل أن يقرأ رحلته الأولى في أول عمره.

٧. حصلت من الدكتور صالح السامرائي على مقالة لم تنشر من قبل لعبدالرشيد إبراهيم كان قد كتبها باللغة العربية وبخط يده وذلك في حدود عام ١٩٤٠م أثناء الحرب العالمية الثانية وهو في طوكيو، فأرفقتها بآخر الكتاب ومعها مقدمة كتبها الدكتور صالح ثم علقت على المقالة في الحواشي.

٨. أرفقت صوراً شخصية لبعض الأعلام والمشايخ الذين ذكرهم أثناء رحلته.

منصور بخاري

المدينة المنورة شوال ١٤٣٥هـ



ترجمة المؤلف الشيخ

عبدالرشيد إبراهيم



هو السيد الحافظ المجاهد المحقق الأديب الصحفي الداعية الرحّالة القاضي السياسي عبدالرشيد بن عمر أفندي بن إبراهيم باي بن عبدالرشيد بن عبدالرحيم البخاري التتاري، ولد رحمه الله في السابع والعشرين من شعبان من عام ١٢٧٣هـ الموافق (٢٢/ ٤/ ١٨٥٧م)[1] في (تارا) وسط سيبيريا بولاية طبولسك من أصل بخاري، حيث تم نفي والد جدّه "عبدالرشيد بابا" من قبل حكومة ذلك الوقت نتيجة للوشاية عليه من بخارى إلى هذه المنطقة النائية فبنى مسجداً بقصبة تارا مشتركاً مع تاجر اسمه "سيد بابا" في عام ١٢٠٧هـ (١٧٩٣م)[2] ثم عيّن ابنه "إبراهيم باي" إماماً لهذا المسجد، وكان جدّ المُترجَم أستاذ مدرسة دينية ويشتغل بالتجارة ويداوم على حضور مجلس بعض الفضلاء وحج عام ١٢٤٢هـ مع ولده محمد وماتا وقت رجوعهما في بيروت وبقي له ابنان أبو يزيد وعمر.

---

(١) وقيل ١٢٧٠هـ، وقيل ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ).

(٢) ذكر الشيخ محمد مراد رمزي في "تلفيق الأخبار" أن الذي بنى الجامع هو جدّ جدّه إبراهيم بابا بن عبدالرحيم وذلك في عام ١٧٩٤م.

والدته "عفيفة هانم بنت إبراهيم ملّا بن جعفر" من أتراك الباشقورت كانت تعلم النساء القراءة والكتابة والدّين في (تارا) فولد رحمه الله فيها ثم درس في مدرسة داخلية قريبة من قريته (تارا) لمدة ثمانية أشهر ثم عاد وانتقل إلى الدراسة عند بعض أقارب أخواله في قرية بعيدة عن أهله (ألمن) في ناحية چيلابي، فتوفيت والدته ثم والده وهو هناك، ثم انتقل إلى مدرسة كبيرة في (تيومان).

في أواخر عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) انتقل للتدريس في بعض قرى ومدن كازاخستان، ثم قرر إكمال تعليمه في الحجاز.

في رمضان عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م) قام برحلة حج وزار المدينة المنورة وأقام بها لمدة خمس سنوات لتلقي العلم حتى أجازوه شيوخه حيث درس القرآن الكريم على شيخ القرّاء بالمدينة المنورة أحمد أفندي وحفظه، ودرس الفقه على الشيخ أحمد ضياء أفندي، والفرائض وخلاصة الحساب على الشيخ آخوندجان أفندي، والحديث على الشيخ السيد محمد علي بن ظاهر الوِتري، ثم سافر إلى مكة المكرمة فقرأ القرآن على شيخ القرّاء بمكة المكرمة سرور أفندي.

في صفر عام ١٣٠٢هـ (ديسمبر ١٨٨٤م) رجع إلى اسطنبول عن طريق الإسكندرية وبعد عدة أشهر رجع لبلدته "تارا" وتزوج من شقيقة "مير حيدرلر". وفي نهاية عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) قام برحلة حج أخرى وعاد وفتح مدرسة حديثة في بلدته.

ونتيجة لسير الأمور عكس مصلحة المسلمين في تتارستان وسيبيريا والتضييق عليهم من الحكومة القيصرية في ثقافتهم وحضارتهم وتراثهم الديني فكر بالهجرة مع جالية كبيرة من سكان تتاريا ليكوّن تكتلاً إسلامياً مفيداً، واختار اسطنبول وقام بتوزيع منشور "لواء الحمد" لتوعية المسلمين في روسيا بالهجرة إلى الدولة العثمانية، لكن هذا المنشور أدى إلى غضب الحكومة القيصرية فرحل إلى اسطنبول وهاجر معه جماعة كبيرة حوالي سبعين ألفاً عام ١٣٠٧هـ (١٨٩٠م) وأدخل أولاده المدرسة.

ثم عاد لوحده إلى مدينة (أوفا) شرق جبال الأورال وعيّن قاضياً عام ١٣٠٨هـ (١٨٩١م) من قبل المفتي "محمد يار سلطان رضا خان" المعيّن من قبل الحكومة القيصرية، ثم أجبرته الحكومة الروسية على الاستقالة لأنه كان يعمل على جعل المحكمة تعمل لمصلحة المسلمين الأتراك وكان لها أهمية في إصدار الفتاوى لشئون المسلمين، فاضطر بعد المضايقات إلى الرحيل مرة أخرى إلى اسطنبول عام ١٣١٢هـ (١٨٩٤م)، واستمر في الإقامة باسطنبول لمدة سنتين طبع خلالها منشور "نجمة چولبان" الذي يتعلق بمحمكة أورينبيرغ ومستقبل المسلمين بروسيا تحت الظلم ونشرها في روسيا بالسّر، فكانت أول وثيقة تركية سياسية تنشر في روسيا. وكان يعمل في وقتها بالزراعة.

بدأ في عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) برحلة إلى بخارى يحاول أن يثير في أهلها روح الكفاح المشترك من أجل حصول الترك المسلمين (أهالي آسيا الوسطى وتتارستان

وسيبيريا) على حقوقهم السياسية والمدنية، ثم عاد إلى اسطنبول وغادر متوجهاً إلى سويسرا للالتقاء بأحد زعماء الروس المتواجدين هناك وطلب المساعدة منه لحصول الأتراك المسلمين بروسيا على حقوقهم السياسية والمدنية. وبعد ستة أشهر عاد إلى اسطنبول وبدأ رحلة طويلة لمدة ثلاث سنوات لمختلف البلدان مصر والحجاز وفلسطين وإيطاليا والنمسا وفرنسا وبلغاريا والهند وتركستان الشرقية وأخيراً عاد إلى بلدته (تارا).

زار اليابان زيارة سرية عام (١٩٠٠م) ثم عاد إلى (بترسبيرغ)[١] وأصدر مجلة باسم "مرآة"[٢]، ثم زار اليابان مرة أخرى في عام ١٣٢١هـ (١٩٠٣م)[٣] فغضب القنصل الروسي في طوكيو وطرده بسبب نشره دعاية مضادة لروسيا وعلاقته بمنظمة

---

(١) سانت بترسبيرغ Saint Petersburg وعرفت باسم بتروغراد من ١٩١٤م، وباسم لينينغراد من ١٩٢٤م ومنذ عام ١٩٩١م عادت إلى اسم بترسبيرغ، وهي مدينة فيدرالية روسية تقع في شمال غرب روسيا في دلتا نهر نيفا Neva، شرق خليج فنلندا، في بحر البلطيق، ثاني أكبر مدينة بروسيا. وتعتبر أحد أكبر مراكز أوروبا الثقافية.

(٢) صدرت في عام ١٩٠٠م وقيل: في عام ١٩٠٢م، وكانت باللغتين التتارية والتركية، وصدر آخر عدد رقم ٢٢ في عام ١٩٠٩م من قبل ابنه أحمد منير.

(٣) ذكر عبدالرشيد إبراهيم في كتابه "العالم الإسلامي" أن أول رحلة له لليابان في عام ١٩٠٧م، لكن الوثائق تثبت أنها لم تكن الأولى؛ والسبب في ذلك علاقته بمنظمة "التنين الأسود" السرية اليابانية، حيث كانت بينهما مصلحة مشتركة فكان يهدف إلى تلقي دعم ومساعدة اليابان لأهالي آسيا الوسطى ومسلمي روسيا الذين يرزحون تحت الاحتلال والاضطهاد والظلم الروسي فكان يريد تحريرهم وتقديم خدمة لأمته ودينه، ومن جهة أخرى كانت روسيا من أعداء اليابان في ذلك الوقت حتى وقعت فيما بعد حرباً بينهما وانتصرت اليابان عام ١٩٠٥م.

"التنين الأسود"[1]، ثم رجع إلى (بترسبيرغ) فألقي القبض عليه وسجن في (أوديسا) لأسبوعين في جمادى الآخرة سنة ١٣٢٢هـ (أغسطس ١٩٠٤م) وتم الإفراج عنه للضغوط الكبيرة من الجمعيات الإسلامية بتتاريا.

استقر في بترسبيرغ وأسس مطبعة وبدأ في نشر المؤلفات السياسية والدينية فأصدر مجلة "أُلفت"[2]، ثم أسس مجلة عربية اسمها "تلميذ"[3] وأغلقت أيضاً بعد عام من صدورها، ثم أصدر مجلة بلغة القازاق اسمها "شيركه"[4] أي: الدليل ومجلة اسمها "نجات"[5].

---

(١) تأسست عام ١٩٠١م ولها اسم آخر "جمعية نهر أرمور" كان أعضاؤها يسعون إلى فكرة أن حدود اليابان تمتد لتشمل آسيا حتى نهر أرمور، ويناصرون فكرة استخدام التقنية الغربية مع الحفاظ على أصالة الشرق.

(٢) أي: الألفة، وهي مجلة ثقافية سياسية لترسيخ الوحدة الدينية والسياسية بين الأتراك تحت السيادة الروسية، بدأ بإصدارها في ١٥/ ١/ ١٩٠٥م من المطبعة التي أسسها باللغة التركية وكان غالبية العاملين فيها من الطلبة التتار المقيمين في بترسبيرغ وأصدر ٨٥ عدداً كانت تهتم بالشئون الدينية والسياسية، وكان لها انتشار وقبول واسع في تركستان لدرجة أن رجال الأمن صنفوها من ضمن المطبوعات الخطرة وكان من كتابها موسى جارالله رحمه الله، وأغلقت المجلة بعد ذلك في ٩/ ٦/ ١٩٠٧م.

(٣) صدرت باللغة العربية في عام ١٩٠٦م كانت تحمل طابعاً دينياً وأدبياً وسياسياً وعلمياً وتهدف إلى توحيد كلمة مسلمي العالم وكانت تخاطب العرب المسلمين في بترسبيرغ أيضاً، وصدر منها ٣٠ عدداً فقط.

(٤) بعد إغلاق مجلة ألفت اجتمع مع المفكرين القازاقيين المتواجدين في بترسبيرغ وبدأ بإصدار هذه المجلة باللهجة القازاقية، كان هدفها نشر فكرة توحيد العالم الإسلامي، وتوقفت بعد صدور أعداد قليلة منها.

(٥) بدأت بالصدور في عام ١٩٠٧م ونشرت فيها المواضيع الدينية على نطاق واسع ولم تسمح الحكومة له بإصدار العدد الثاني وحوكم رئيس التحرير بتهمة مناصرة الإسلام.

في عام ١٩٠٥م اجتمع في قازان مع أكثر من ٦٠ شخصاً وبحثوا فكرة تشكيل مجلس وطني، فانتخب رئيساً للمجلس وتناول المجلس مطالب مسلمي روسيا من ضمنها ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة التركية وإرسال دعوة إلى مسلمي تركستان وكازاخستان والقفقاس والقرم بهدف عقد اجتماع لعموم "مسلمي أتراك روسيا"[1] في بترسبيرغ. ثم عاد إلى بترسبيرغ وتواصل مع "علي مردان طوبچو باشييف" في (باكو) الذي أصدر مجلة "الحياة" وبدأ بالكتابة فيها.

في ٢/ ٢/ ١٣٢٣هـ (٨/ ٤/ ١٩٠٥م) اجتمع في بترسبيرغ مع عدد من القياديين وبحثوا مسألة إنشاء مركز ديني لعموم مسلمي روسيا وناقشوا تشكيل هيئة سياسية لمسلمي روسيا من أجل تحويلها لحزب سياسي في مرحلة لاحقة، ثم عرضت الفكرة على إسماعيل غاسبيري[2] فوافق وتقرر عقد أول اجتماع في مدينة (نيزني نوفغورد). ولم يتم دعوته لحضور اجتماع المجلس الإسلامي في (أوفا) بين ١٠- ١٥/ ٤/ ١٩٠٥م والسبب أن من هيأ لعقده هو المفتي محمد يار سلطانوف وكان خاضعاً للسلطات الروسية ولم تكن علاقته جيدة معه بالرغم من أن هذا الاجتماع كان

---

(١) وهم جميع المسلمين من العرق التركي في أراضي آسيا الوسطى وتتارستان وسيبيريا وغيرها والتي كانت تحت الاستعمار الروسي القيصري آنذاك.

(٢) إسماعيل بك غاسبرنسكي مفكر ومربي وسياسي من مشاهير تتار جزيرة قِرِيم أسس جريدة "ترجمان" عام ١٨٨٣م واستمرت حتى ١٩١٨م وكان يطالب فيها بالوحدة والتكاتف بين أبناء العرق التركي في آسيا الوسطى وأوروبا، ثم أصدر جريدة "عالم النسوان" برئاسة تحرير ابنته شفيقة وكذلك جريدة "عالم الصبيان" للأطفال. وكان من المجددين والمطالبين بإدخال إصلاحات في التعلم، ولد في ٥ جمادى الأولى ١٢٦٧هـ ومات في القرم في ٢٠ شوال ١٣٣٢هـ.

من أهم الاجتماعات التي قام بها مسلمو روسيا في ذلك الوقت[1].

في ٨/ ٤/ ١٩٠٥م تقرر في بيته عقد الاجتماع الثاني لحزب الاتفاق الإسلامي في مدينة (جيستاي) أثناء مراسم زفاف ابنة رجل اسمه "ذاكر حضرت" ودعي لهذه الحفلة المسلمون من كل أنحاء روسيا الأئمة والطلبة والأغنياء والأدباء والمحررون، واقترح تشكيل جمعية باسم (نشر المعارف) لتوعية المسلمين بنشاطاته الصحفية والسياسية والدينية المتعددة.

وفي ١٣/ ٦/ ١٣٢٣هـ (١٥/ ٨/ ١٩٠٥م) قام بعمل اجتماع سري كبير على سفينة "غوستاف ستروف" على نهر (أوكا) بعد أن رفض والي (نيزني) الإذن بعقد المؤتمر، فاستأجر السفينة وعقد الاجتماع وكتبت قراراته في مسودة بقلم الرصاص، ولما اقتربت السفينة من الميناء قرر الجميع اتلافها وعدم الاحتفاظ بها إلا أنه قال: سيحتفظ بها مهما كلف الأمر وعندما رست السفينة أسرع وغاب عن الأنظار[2].

عاد إلى بترسبيرغ واستأنف نشاطه الصحفي وكتب مؤلفه إدارة الحكم الذاتي "أوتونوميا" وطرح فكرة الاستقلال لأراضي أذربيجان والقفقاس وتركستان وإلى

---

(١) كتب عبدالرشيد إبراهيم عنه: نشأ محمد يار سلطانوف في الجامعة الروسية وعين مفتياً على الرغم من جهله للقراءة والكتابة بالتركية، ليكون آلة لمظالم الروس، إنه خائن باسم مسلم.

(٢) وهي الفترة التي زامل وصحب فيها الشيخ موسى جارالله وكان بينهما تعاون كبير في مجلة ألفت، كتب فيها جارالله مقالات عديدة وساهم معه كثيراً في تلك الاجتماعات لتوحيد كلمة مسلمي تتاريا وإيجاد حلول لمشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية وغيرها.

الاستقلال الثقافي لمسلمي وسط روسيا. ولقيت الفكرة قبولاً واسعاً إلا أنها لم تتحقق أي خطوة فعلية في هذا الطريق؛ لأن المسلمين الأتراك لم يفلحوا في تشكيل وحدة بينهم بكل معنى الكلمة. وكان أكثر المتأسفين لذلك هو حيث عبّر عن ذلك في عام ١٩١٠م عن حزنه في مقالة بمجلة الصراط المستقيم فقال: "بقيت أقول: قومي.. قومي لثلاثين عاماً، ومشيت روسيا شبراً.. شبراً لأجل ذلك، وتحملت من أجل قومي ألف مشقة.. ومشقة وكان هدفي الوحيد جمع أمتي".

في خريف ١٩٠٥م ألف كتاب "نظرية الألف وثلاثمائة سنة"، اجتهد فيه لنشر فكرة توحيد الأتراك المسلمين. وكانت الظروف السياسية مواتية لإقامة أحزاب سياسية فقام المواطنون الروس بإنشاء أحزاب سياسية فالتقى مع مسئولي حزبي نظام الحقوق وحزب الديمقراطيين الدستوريين في مرحلة التأسيس لتبادل الآراء والمساندة، فعاد لكتابة مقالاته في مجلة ألفت وحث على عقد لقاء عام بين المسلمين.

تم عقد الاجتماع الثاني في مدينة بترسبيرغ في ١٧/١١/١٣٢٣هـ (١٣/١/١٩٠٦م) حضره مائة مندوب تتاري وقرمي وقفقاسي وكازاخي وتركستاني، وعقد المؤتمر الثالث لمسلمي روسيا وكان علنياً بعد أخذ الموافقة الرسمية له، فعقد في ٢٥/٦/١٣٢٤هـ (١٦/٨/١٩٠٦م) في مدينة (نيزني) حضره مائتا مندوب من مختلف المناطق الإسلامية وبدأ بالقرآن الكريم وكلمة له، وأعلنت مقرراته المطالبة بالحرية الدينية والتعليمية وإصلاح المؤسسات التعليمية (المدارس والكتاتيب) والدينية (الأئمة

والعلماء) ولم يقرر فيه أي بنود سياسية لعدم الإذن له، واعتذر لهم بقوله: يكفي أن نحل المشاكل الواردة في برنامج المؤتمر لتلبية احتياجات المسلمين وفي القريب يكون برنامج أوسع للقضايا السياسية. استمر جدول أعمال المؤتمر لمدة خمسة أيام واختتم بكلمة طويلة له أيضاً.

وبعدها عاد إلى بترسبيرغ فقام أعضاء الدوما من المسلمين بجهود كبيرة بخصوص مسألة الحكم الذاتي المستقل للمسلمين وتم قبول طلبهم بالمجلس التشريعي لكن بدأت الحكومة القيصرية بالقبض على الكثير من العلماء المسلمين والسياسيين وإرسالهم للسجون وتقلصت مساحة حرية الإعلام كثيراً وتم إغلاق صحفه ومطبعته. فخرج إلى بخارى ووادي فرغانة وسمرقند وآلما أتا ويدي صو ويدي طاش، والتقى بالكثير من المفكرين الأتراك للعمل المشترك ضد الحكومة الروسية، وزار الكثير من المدارس لتوعيتهم بتطبيق الطرق الحديثة في التعليم، ثم عاد إلى (تارا) واتجه للإقامة في قازان مع عائلته، ومهد هناك لإقامة المؤتمر الرابع لمسلمي روسيا في (نيزني) وتم عقده في سفينة نهرية أيضاً لعدم حصول الإذن. وحضر هذا اللقاء الكثير من الشخصيات المهمة مثل المفتي رضاء الدين فخر الدين، والملا القازاني أباناييف، والمؤرخ هادي أطلس أحد أعضاء مجلس الدوما، ومحرر صحيفة الوقت، وفاتح كريموف، وإسماعيل غاسبيري، وعلي مردان، وقرروا في الاجتماع تشكيل لجنة تعليمية وإرسال بعض الشباب من قازان إلى تركيا لتلقي العلم.

في أواخر عام ١٩٠٧م ترك بلدته تارا وسافر إلى طاشكند ومرّ في طريقه بكل من (أومسك، وبترۏباول، ولوفسكي، وجيلابي، وأوفا، وجينيل، وأورنبيرغ، وآق مسجد) وأقام بطاشكند مدة شهر ثم غادر إلى بخارى، وفي ١/ ٢/ ١٩٠٨م غادر إلى سمرقند ومنها إلى وادي فرغانة فزار مدنها الشهيرة (خوقند ونمنكان ومرغلان وأوش وغيرها). ثم رجع إلى طاشكند فأقام لمدة خمسة عشر يوماً، ثم وصل إلى آلما أتا بولاية يدي صو في كازاخستان وبعدها سيمي پولات حتى وصل إلى بلدته تارا.

ثم اضطر للخروج من بلدته تارا في رحلة طويلة وودّع أهله ووصل إلى قازان وغادرها في ١٩/ ٨/ ١٣٢٦هـ (١٦/ ٩/ ١٩٠٨م) إلى أوفا ومنها إلى أورينبيرغ فجيلابي وقيزيل يار، وعبر سيبيريا ومدنها كأومسكي وتومسكي وإيرقوتسكي حتى وصل منغوليا وقابل زعيم البوذيين الدلاي لاما. ثم إلى منشوريا بالصين وعبرها إلى ميناء فلاديفوستك أقصى شرق سيبيريا ومنها بالبحر إلى اليابان وكون علاقة مميزة مع عائلة الإمبراطور ودخل على يده الكثير في الإسلام، وأسس جمعية اسمها "قوة الدفاع الآسيوية"[1] واستطاع الحصول على منحة لإقامة أول مسجد بطوكيو. وبعد حوالي خمسة أشهر قضاها في اليابان غادر إلى كوريا في ٢٦/ ٥/ ١٣٢٧هـ (١٥/ ٦/ ١٩٠٩م)

---

(١) آسيا غي كاي تأسست في ١٨/ ٥/ ١٣٢٧هـ (٧/ ٦/ ١٩٠٩م) وانتخب لرئاستها السياسي أوهارا الذي أسلم وتسمى بأبي بكر، وكان أساس البرنامج الذي ستتبعه الجمعية مستمداً من الحديث النبوي (كونوا عباد الله إخواناً) ووضع شرطاً لهذه الجمعية أن يجعلوا من الآية ٣٤ من سورة الإسراء (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً) شعاراً لهم. وبدأت الجمعية بنشر رسالة مؤلفة من ثمان صفحات بعنوان "دايتو".

ومنها إلى الصين (بكين) وسنغافورة فالهند (كلكتا وبومباي) فانزعجزت الحكومة الاستعمارية الإنجليزية منه وسجن لمدة أسبوع فغادر لأداء فريضة حج عام ١٣٢٧هـ، ثم غادر من الحجاز بالسكة الحديدية إلى الشام ومنها لبيروت فإلى اسطنبول.[١]

بعد أن قدم اسطنبول شارك في ندوات أقيمت في جامع السلطان أحمد وحضرها أكثر من خمسة آلاف شخص شرح فيها وضع المسلمين في البلاد التي زارها، وكان يقدم على أنه (السيبيري المشهور والرحالة الكبير). والتقى بالشاعر "محمد عاكف أرصوي" واستقر في حي السلطان أحمد وأصدر مع "أحمد تاج الدين" مجلة اسمها "تعارف المسلمين"[٢]، وكان أثناء رحلته الأخيرة هذه يرسل بمقالاته إلى جريدة "بيان الحق" الذي يصدرها ابنه أحمد منير في قازان وجريدة "الصراط المستقيم" بإسطنبول وغيرها.

ومن صفحات جهاده رحمه الله أنه عندما احتل الإيطاليون ليبيا في عيد الفطر سنة ١٣٢٩هـ (١٩١١م) قرر الاشتراك مع العثمانيين في حربهم ضد الإيطاليين وقال: بعد أن زال الذهول الذي دبّ في الناس بدأ الجميع في السفر إلى ميدان القتال ولم

---

(١) انظر تفاصيل رحلته الطويلة هذه في كتابه (العالم الإسلامي) طبع في مجلدين، المجلد الأول عام ١٣٢٨هـ والثاني عام ١٣٢٩هـ وأعيد طبعها عام ١٣٣١هـ. ثم قام الدكتور صالح السامرائي حفظه الله مدير المركز الإسلامي باليابان بالإشراف على ترجمته إلى العربية وطبعه عام ٢٠١١م جزاه الله خيراً.

(٢) صدر العدد الأول في ٢ أبريل ١٩١٠م مع أحمد تاج الدين، وكانت أسبوعية تتناول المواضيع الدينية والسياسية والتاريخية والفلسفية وتتحدث عن أوضاع المسلمين في روسيا وقضايا التعليم، وهي أول مجلة يصدرها أتراك القازاق خارج روسيا، صدر منها ٣٠ عدداً وقيل: ٣٢ عدداً.

أستطع الصمود أمام نار ألهبت قلبي ولا يُسْكنها إلا السفر، وكنت شيخاً مسناً لا أقوى على شيء ولكن قلت لعلّي على الأقل أنفع بتقديم الماء للمجاهدين ا.هـ. فأبحر نحو الإسكندرية مع رفقته وكانت تحت الاحتلال الإنجليزي فمنعوا من السفر عبر الطريق الساحلي، فتوجهوا نحو القاهرة ومنها ارتدوا لباس البدو وركبوا الجمال وعبروا الصحراء حتى وصلوا إلى السلوم بعد رحلة طويلة لأكثر من شهر، فارتاحوا قليلاً ثم واصلوا نحو بنغازي وشارك بشكل فعلي في جبهات القتال في بنغازي وطبرق وطرابلس وتأسست صداقة حميمة بينه وبين القائد الشهيد أنور باشا[1] وحارب معه نحو أربعين يوماً وقال عنه: لقد هرع أنور باشا قبل الجميع مثل الخَضر عليه السلام، وكان له الدور الأكبر في تشكيل جيش من العدم وأظهر للعالم شرف أمتنا العظيمة ونزاهتها، لقد أحرز لقب الباشا بحق في قلوب ملايين العرب ا.هـ.

وبعد خمسة أشهر أمضاها في الجبهة عاد إلى اسطنبول وأصدر مع عثمان جودي مجلة اسمها "دنيا الإسلام"[2] عام ١٩١٢م.

---

(١) أنور باشا وزير الحرب التركي زوج بنت السلطان رشاد خان، قدم إلى بخارى لمقاومة الطغيان والاستعمار الروسي البلشفي وشارك معه الفدائيون خير مشاركة واستطاعوا أن ينتصروا بعدة معارك وفتحوا عدة بلدات، واستمرت هذه المعارك بين كرّ وفر لنحو سنتين حتى استشهد رحمه الله في بلدة دوشنبه (طاجكستان) في يوم عيد الأضحى ١٠/ ١٢/ ١٣٤٠هـ (٥/ ٨/ ١٩٢٢م) بمعركة بلجوان. "علماء ما وراء النهر" لمنصور بخاري.

(٢) بدأت بإصدار عددها الأول في ٢/ ٣/ ١٩١١م وصدر منها ٢٢ عدداً، كانت أغلب المقالات تتحدث عن دنيا الإسلام ومسلمي روسيا وحرب البلقان وكان عثمان جودي مدققاً صحفياً بالمجلة،=

وعندما بدأت حرب البلقان عام ١٣٣٠هـ (١٩١٢م) قام بإرسال رسائل إلى الكثير من دول العالم كاليابان والهند والصين وسنغافورة وماليزيا وجاوة لنصرة العالم الإسلامي، وكان لنداءاته صدى في اليابان فصدرت الصحف اليابانية خبر احتلال (أدرنة) في إطار أسود وبدأ المجاهدون يفدون إلى اسطنبول حتى انهزمت بلغاريا وحررت (أدرنة) في ٥/ ٨/ ١٣٣١هـ (١٠/ ٧/ ١٩١٣م).



أنور باشا

وبعد احتلال الروس لشمال الأناضول ذهب أيضاً مع الحملة العسكرية لغزو الروس في ١٢/ ١٢/ ١٣٣٢هـ (١/ ١١/ ١٩١٤م) لكن الجيش التركي اضطر للانسحاب. عاد بعدها إلى اسطنبول في حزن شديد وشارك في أعمال تأسيس لجنة "الدفاع عن حقوق المسلمين التتار الأتراك في روسيا"، فغادر مع بعض أعضاءها عام ١٩١٥م لزيارة صوفيا وبودابست وفيينا وأجروا مقابلات رسمية وغير رسمية وأعدت اللجنة بعدها مذكرة عرضتها على دول المحور وجاء فيها: (أنقذونا من أسر الروس).

=وبعد نشر مقالة موسى جارالله بعنوان: (قد فهمت أني كنت متأسفاً) قدمت للمحكمة من قبل شيخ الإسلام وحوكم مدير تحريرها بالسجن والغرامة.

ثم شارك في مهمة مع أنور باشا عندما أسرت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى جنوداً تركستانيين من التتار والباشقورت الذين كانوا يقاتلون ضمن صفوف روسيا قهراً، فسافر مع وفد إلى برلين ودخل معسكر (زوسن) وكان به حوالي ٨٤٠٠٠ ألف أسير مسلم فبنى مسجداً وبدأ بالإمامة والخطابة فيه وحاول إقناع الأسرى المسلمين بالقتال في صفوف الدولة العثمانية ضد الإنجليز والروس، فتشكلت كتيبة "آسيا" وتحركت بتاريخ ٢٧/٦/ ١٣٣٤هـ (١/ ٥/ ١٩١٦م) إلى اسطنبول وتوجهت إلى العراق في الجبهة ضد الإنجليز، وبعد انتهاء الحرب استقر بعضهم في جمهورية تركيا وسافر البعض إلى اليابان بمساعدته وعاد البعض إلى تركستان وسيبيريا بطرق مختلفة.

وأثناء وجوده بألمانيا علم أنه عيّن ممثلاً لمسلمي روسيا في جمعية القوميات الأجنبية في روسيا والتي أسست في (ستوكهولم) فغادر متوجهاً إلى هناك، وأرسلت هذه الجمعية برقية إلى الرئيس الأمريكي ويلسون[1] بتاريخ ١٨/ ٥/ ١٩١٦م بينت فيها أن القوميات التي تعيش في روسيا تحت خطر الزوال. وختم البرقية بقوله: نحن أفراد الشعب المسلم في روسيا يبلغ عددنا ٢٥ مليوناً نشتكي الطريقة التي نعامل فيها كالعبيد؛ حيث يحرموننا من أداء شعائرنا الدينية بحجة أنها ممارسات غير قانونية. إننا نواجه حرباً سياسية إذ تغتصب أراضينا وتقدم هدية لأهل الحظوة والنفوذ من الروس، ويعارضون تطورنا الثقافي ونتعرض لتضييق جائر في كل مكان ا.هـ.

---

(١) توماس وودرو ويلسون في المنصب من مارس ١٩١٣م – مارس ١٩٢١م.

عاد بعدها إلى برلين وحضرت أسرته أيضاً بعد أن وجد مأوى لها، ثم شارك في مؤتمر (الأقوام التي تعيش تحت الاحتلال الروسي) بسويسرا (لوزان)، وتحدث باسم مسلمي روسيا وطالب بإعطاء الحريات الدينية والمدنية والثقافية والحصول على "مختاريت"[1] للمسلمين الروس ورفع الضغوط القانونية عن المسلمين عموماً كما طالب بتغيير نظام الانتخابات. ثم عاد إلى برلين وخلال هذه المدة أصدر مع مجموعة من التتاريين جريدة باللغة التتارية اسمها "الجهاد الإسلامي"[2] تخاطب أسرى الحرب المسلمين الروس الموجودين في برلين، وبعد مدة عاد إلى اسطنبول مع أسرته وسكن في بيت وزير الإسكان "عباس حليم باشا".

اقترح في ١٩١٨/٩/٢٧م على الحكومة العثمانية ومعه كل من مفتي تركستان "صدر الدين خان" الذي قدم إلى تركيا بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧م، والقازاني عثمان طوكومبت، وحسين زاده علي، وحليم ثابت شيباي، فتح مكتب بسويسرا يدافع عن المسلمين في روسيا فوافقت الحكومة العثمانية وأرسلته مع وفد، وفي الطريق بسبب الاضطرابات عاد من (المَجَر).

استدعي إلى القيام بمهمة للحكومة التركية في السفارة بأوكرانيا فسافر إلى

(١) حكم مستقل ذاتي.

(٢) أصدرها في برلين في عام ١٩١٦م بالاشتراك مع عالم جان إدريسي، وكانت تخاطب الأسرى الأتراك بيد الألمان إبان الحرب العالمية الأولى في برلين، وذكر نادر دولت أن اسمها "جيهان خبرلي" أي أخبار العالم.

(كييف) وكانت الأوضاع مضطربة بسبب الثورة البلشفية وكان البشر يقتلون كل يوم في شوارع كييف وأزقتها وكان يقدم العون للجالية التركية هناك بمساعدة السفير التركي أحمد مختار بيك، بالإضافة إلى أنه قام ببعض الاتصالات مع الأوكرانيين بشأن جزيرة القرم حيث أن أوكرانيا أعلنت استقلالها ثم أبرزت أطماعها تجاه القرم.

بعد عودته إلى اسطنبول بدأ بنشر مقالات في مجلة "سبيل الرشاد"، فاستقالت حكومة "طلعت باشا" التي كانت تدعم جميع التتار الأتراك المناضلين بعد أن وقعت معاهدة (موندروس) مع روسيا في ٣٠/ ١٠/ ١٩١٨م وكان لذلك أثراً سلبياً عليه حيث رفعت الحكومة التركية جميع المساعدات عن تتار وأتراك روسيا، فسافر غالبيتهم إلى أوروبا، وبدأ مرحلة جديدة من النضال، لكنه ولعدم معرفته باللغات الأوروبية اضطر للبقاء في تركيا. وتوفيت زوجته في نفس السنة فزادت حسرته وحنينه فقرر أن يزور بلدته (تارا).

في نهاية عام ١٩١٩م رجع إلى (تارا) مسقط رأسه عن طريق تركستان الغربية فتزوج امرأة اسمها "آيان" (عيان) وسافر إلى اسطنبول عن طريق تركستان الغربية أيضاً وسكن في بيت بالإيجار في حي أقسراي مع ضيق شديد باليد.

بعد أن انتهت الحرب الأهلية الروسية وصلت أخبار الوفيات التي وقعت بمنطقة (إيديل أورال) في روسيا بسبب المجاعة الرهيبة، فما أن سمع بها حتى توجه إلى موسكو في أوائل عام ١٩٢١م لتقديم المساعدة للمسلمين فكون مع الأهالي لجنة إغاثة

واستقبل مساعدات من تركيا. وأقام علاقات واتصالات مع شخصيات بارزة بالكرملين، وكان يقوم بمهمة الترجمان للوفود القادمة من إيران وأفغانستان للكرملين.

لكن بعد ربيع عام ١٩٢٣م اضطر لمغادرة موسكو؛ لأن البلاشفة بدأوا بحركة تطهير وقتل المثقفين والعلماء والأغنياء والزعماء الأتراك، فعاد إلى اسطنبول، ثم سافر إلى تركستان الغربية ولعب دوراً مهماً في تشكيل جبهة القتال التي يخوضها المجاهدون "قُورْباشي لر"[1] من أهالي تلك المنطقة ضد الروس.

كما قام بالتدريس في مدارسها، ثم زار اليابان عبر تركستان الشرقية عام ١٩٢٤م وكان قد التقى قبل خروجه من تركيا بكمال أتاتورك ووعده بإطلاعه على المستجدات، وذكر أن إذاعة اليابان الرسمية كانت تذيع كل أسبوع نصف ساعة نشرة عن الإسلام.

سافر إلى قرية (بوغرودليك) التابعة لقونية نهاية عام ١٩٢٥م مع أهله وكان بها مجموعة من التتار فاستقر هناك، وكان منفىً له لعدة سنوات اشتغل فيها بالزراعة وكان

---

(١) قُورْباشي هو اسم كان يطلق على المقاومين التركستانيين ضد الروس ولم يكن أعضاء هذه الفرق الميدانية المجاهدة من الشباب والفتية فقط بل كانوا من العلماء والحفاظ وشيوخ الطرق الصوفية أهل السنة والجماعة بالدرجة الأولى الذين ضربوا أروع المثل في الجهاد والاستشهاد، ويُذكر أن عدد المجاهدين المسلحين في تلك الفترة بلغ ٦٠٠٠٠ مجاهد وعدد غير المسلحين ٢٢٤٠٠٠ كانوا يشاركون بالأسلحة البيضاء أو مما يظفرون به من غنائم الحرب، وقد أطلق عليهم الشيوعيون اسم "حركة الباسمتشية" أي العصابة لكن هذا الاسم لم يضرهم فقد واصلوا الجهاد وانتصروا على عدوهم في مواقع عديدة وكبدوهم خسائر كبيرة واستشهدوا في سبيل الله إيمانا بحركتهم. وللمزيد عن الموضوع انظر كتابي "علماء ما وراء النهر".

يتردد في ذلك الوقت لمصر والحجاز من وقت لآخر، وحاول إصدار مجلة تشرح قضايا مواطنيه المستجدة وما ارتكبه الروس من فظائع في تركستان الغربية، إلا أن الحكومة التركية الاتحادية منعته من ذلك.

في منتصف عام ١٣٤٧هـ (نهاية ١٩٢٨م) سافر إلى مصر بدعوة من محمد عاكف أرصوي وعباس حليم باشا واجتمع بأصدقائه القدامى وبدأ يكتب المقالات الكثيرة عن قضايا المسلمين وكان أغلبها في صحيفة النيل، وعاش في القاهرة حتى سنة ١٩٣٣هـ، وطيلة إقامته بمصر كان يرجع إلى قونية في الصيف عند أهله ثم يعود بعدها إلى القاهرة، وكان يؤدي فريضة الحج كل عام وتشير بعض المصادر أنه كان موجوداً في حج عام ١٣٤٩ أو عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١ أو ١٩٣٢م) بالحجاز حيث التقى مع الشيخ داملا ثابت بن عبدالباقي الكاشغري[1] في موسم الحج.

---

(١) داملا ثابت بن عبدالباقي الكاشغري ولد في قرية "آزاق" من قرى "أرتوج"بضواحي مدينة "كاشغر" في بلاد ما وراء النهر بتركستان الشرقية عام ١٣٠١هـ وقيل: ١٢٩٩هـ كان والده من أعيان أرتوج، حفظ القرآن ودرس المرحلة الابتدائية والمتوسطة في بلدته ثم أكمل تعليمه في كاشغر في الحديث وعلومه والتفسير والفقه وأصوله والنحو والصرف وعلم الفرائض والجبر واللغة الفارسية وآدابها والتاريخ الإسلامي والسير والمعاجم حيث كانت كاشغر آنذاك مليئة بالعلماء الكبار أمثال بهاء الدين مخدوم شيخ إسلام كاشغر الملقب بسلطان العلماء، وملا إسلام داملا الملقب بشيخ العلماء، وعبدالقادر داملا بن عبدالوارث، ومحمود آخوند داملا وغيرهم، وبعد أن أكمل تعليمه العالي سافر مع صديقه الشيخ شمس الدين إلى بخارى لأربع سنوات فقرأ على مشايخها وأجازوه ثم رجع لكاشغر قبل الثورة البلشفية (١٩١٧م) فعين أستاذا في "خانليك مدرسه" وجلس للفتوى لكنه كان على الطريقة السلفية وليس على مذهب أهل السنة والجماعة من الفقهاء الأربعة، فطُرد من قبل علماء كاشغر لإثارته الفتن بين العامة في فتاويه المخالفة لمذهب أهل البلد، ورحل إلى مدينة غولجا في شمال تركستان الشرقية واشتغل=

=بالتدريس والفتوى والخطابة ثم عين قاضياً ومفتياً في تلك الأقاليم، وزاره هناك كل من المؤرخ المجاهد محمد أمين بوغرا عام ١٣٤٦هـ، والسيد قاسم جان حاجي لبحث قيام ثورة عارمة في تركستان الشرقية.

خرج لزيارة عدة دول إسلامية في عام ١٣٤٩هـ فمرّ في طريقه بأنديجان وطاشكند وسمرقند وبخاري والتقى بعلمائها وزار ضريح الإمام أبي عبدالله البخاري واعتكف فيه لعدة أيام، ثم واصل سيره إلى الشمال عبر جبال الأورال إلى مدينة قازان في تتاريا واتصل بالمفتي ضياء الدين بن فخر الدين ثم واصل سيره نحو الغرب وقيل إنه اجتمع في موسكو بالعلامة الكبير موسى جارالله ثم قدم اسطنبول وزار عددا من العلماء واشترك معهم في كتابة تفسير للقرآن الكريم باسم "أمر الله تنكري يروغي" وكانت اللجنة مكونة من خمسة عشر عالماً وعلى رأسهم الشيخ عمر رضا بيك الشهير بالمفتي وكان من نصيبه أن حقق في تفسير الآيات المنزلة في العقيدة والأحكام، ثم واصل رحلته إلى القاهرة والإسكندرية.

ثم أقام في الحرمين مدة خمسة عشر شهراً حج فيها مرتين وكتب كتابين، والتقى بالشيخ ماجد كردي والأستاذ إبراهيم غزاوي والأستاذ عبدالقدوس الأنصاري الذي كان يذكره بالتقدير والاحترام في مجلة المنهل، والتقى في موسم الحج بالقاضي عبدالرشيد إبراهيم، ويروي الشيخ عبدالرحمن كتبي آبادي الذي كان قد تتلمذ عليه في كاشغر وسبقه إلى الحرمين وكان ملازماً له طيلة فترة إقامته بالحرمين: أنه أسرّ إليه قائلاً إنه نذر بختم القرآن الكريم وصحيح البخاري ألف مرة إذا وفقه الله لأداء الحج، ويقول: إنه كان رحمه الله يقضي غالب أيامه في الصوم.

وزار الهند والتقى بالمفتي كفاية الله وطبع أحد كتبه في طريق عودته إلى ولاية "خوتان" في رجب ١٣٥١هـ وأقام بمدينة قراقاش بمدرسة "بِرْدي حاجي" وجلس للتدريس، وفي ٢٧/ ١٠/ ١٣٥١هـ قامت الثورة الإسلامية فحررت خوتان وقوما وقارغلن وياركند ثم كاشغر وأبلى بلاء حسناً رحمه الله في ميدان القتال، وكان كل همه أن يتم تحرير البلاد من الصينيين المحتلين وكان رحمه الله يقود المجاهدين بنفسه حتى أعلنت في كاشغر قيام "الجمهورية الإسلامية" بتركستان الشرقية في ٢٤/ ٧/ ١٣٥٢هـ عاصمتها كاشغر ورئيس الجمهورية قائد الثورة المباركة "خوجة نياز حاجي" وهو رحمه الله على رأس حكومتها في رئاسة مجلس الوزراء، لكن بعد مدة يسيرة وفي أواخر عام ١٣٥٣هـ وبعد أن دب الخلاف بين الثوار تم تسليمه رحمه الله مع زميله الشيخ ظريف قارئ إلى الحكومة الصينية المركزية فسجن وعذب حتى توفي مسجوناً بـ"أورومچي" سنة ١٣٦٢هـ.

كان رحمه الله يعتز باللغة العربية ويجيدها بشكل رائع وكان يشيد بلغة الضاد لغة القرآن، وكانت خطبه وتحريراته في غاية الجزالة والعمق كما في مقدمته لشرح قصيدته السنية وتصحيحه لشرح ألفية ابن مالك. من مؤلفاته: "شيرين كلام" في سيرة سيد الأنام، "عقائد جوهرية وشرح رسالة بيان السنة" شرح لعقيدة الطحاوي، و"اسلام قانوني"، و"القصيدة السَّنية في العقيدة السُّنية وشرحها" وهي قصيدة في العقيدة مع شرح لألفية ابن مالك وكلاهما في كتاب واحد باللغة العربية، وتفسير للقرآن كتبه وهو في=

وفي ربيع الثاني سنة ١٣٥٢هـ (أغسطس ١٩٣٣م) قرر السفر نهائياً إلى اليابان فغادر اسطنبول إلى مصر وأقام بها شهراً ثم



خلال حفل افتتاح مسجد طوكيو

جاء إلى الحجاز ومنها ركب إلى الصين ووصل إلى (كوبي) ثم دخل إلى طوكيو في ٢٢/٦/١٣٥٢هـ (١٢/١٠/١٩٣٣م) واستقبله محبوه من التتار[1]، وأظهرت وسائل الإعلام اليابانية اهتماماً كبيراً بالمسلمين التتار المقيمين بطوكيو، ووجد كمية من الأموال مجمعة من عام ١٩٠٩م حين استلم أرضية المسجد فبدأ ببناء أول مسجد بطوكيو، وافتتحه يوم المولد النبوي الشريف ١٢/٣/١٣٥٥هـ (١٢/٥/١٩٣٨م) بحضور

=السجن مخطوط لم يطبع منه سوى الجزء الأخير فقط. وللمزيد انظر "علماء ما وراء النهر المهاجرين للحرمين" لمنصور بخاري (ص ٣٣).

(١) في هذه الفترة كانت هناك مجموعة من الجالية التتارية التي لجأت إلى اليابان بعد اضطرارها الخروج من أراضيها بسبب التعسف والظلم الروسي، وقد شكل هؤلاء أحياء إسلامية صغيرة في كل من طوكيو وكوبي. ولحقت الجالية التتارية بعض الجالية من تركستان الشرقية خاصة بعد سقوط الحكومة الإسلامية بكاشغر في أواسط محرم ١٣٥٣هـ (أواخر أبريل ١٩٣٤م) فالتحقوا بإخوانهم في اليابان وأسسوا "جمعية تحرير تركستان الشرقية" مع الشيخ عبدالرشيد إبراهيم في ٢٢/١٠/١٣٥٨هـ. ثم بعد ذلك قام العديد من هؤلاء التتار والتركستانيين في الأعوام اللاحقة بالهجرة إلى تركيا ومصر والحجاز ودول أخرى.

مندوبين من مختلف الدول الإسلامية وكان هو أول إمام للمسجد واعترفت اليابان بالإسلام كدِين رسمي بالبلاد عام ١٣٥٧هـ (١٩٤٠م).



قربان علي يقف على يمين الشيخ عبدالرشيد إبراهيم

كان رحمه الله ينشر مقالاته في صحيفة "يني يابون مخبري" أي مراسل اليابان الجديد التي يصدرها محمد قربان[1]، ويلقي دروساً في الدين والتاريخ

(١) الإمام محمد عبدالحي قربان عليف، قائد سياسي بشكيري ولد عام ١٨٨٩م في قرية ميدياك Mediak بولاية شيليابنيسك Chelyabinsk والده عبدالله كان إماماً وخطيباً ومدرساً وشيخ طريقة لديه الكثير من المريدين. تلقى تعليمه الأول على يد والده ثم في مدرسة الرسولية بترويتسكي، في عام ١٩١٦م أصبح مفتياً خلفاً لمحمد صفا بايزيدوف، ثم أصبح رئيساً للمسلمين في بترسبيرغ. شارك في مؤتمري الجمعية البشكيرية الأول والثاني في عام ١٩١٧م لدعم إدارة الحكم الذاتي لمسلمي بشكيريا. وكان هو ووالده ضد الحركة الوطنية والتحرر لبشكيريا والتي كان يرأسها زكي وليدي طوغان والذي كان منحازاً لجهة البلاشفة في بداية ظهورهم بعد الثورة البلشفية. ثم اشترك في صفوف الجيش الأبيض وعندما تقهقروا وانهزموا عام ١٩٢٠م رحل إلى منشوريا بالصين مع مجموعة من التتار والأتراك المسلمين وكون جمعية وأصبح إمامهم ومدرسهم. في عام ١٩٢٤م انتقل إلى اليابان وأسس جمعية للجالية التتارية المسلمة وأصبح المرجع الديني لهم، ثم افتتح مدرسة لليابانيين المسلمين عام ١٩٢٧م وتنقل في الكثير من مدن اليابان للدعوة وقام بشراء حروف المطابع الإسلامية من اسطنبول على إثر تغيير الحروف العربية إلى اللاتينية في فترة الجمهورية الاتحادية عام ١٩٢٨م، وأصدر مجلة "يني يابون مخبري" وطبع العديد من الكتب. في عام ١٩٣٨م افتتح مع عبدالرشيد إبراهيم أول مسجد بطوكيو وأصبح أول مفتي في اليابان، لكنه اختلف مع السياسيين اليابانيين في توجهاتهم التوسعية في جنوب شرق آسيا أثناء الحرب العالمية الثانية فاختار (داليان) بمنشوريا منفى اختياري لنفسه. في عام ١٩٤٥م وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية=

لأبناء التتار المسلمين حيث كان هناك جالية كبيرة، ويقيم ندوات في بيته وأماكن أخرى بالإضافة إلى وظيفة الإمامة والخطابة بالجامع. ولعب دوراً مهماً في تأسيس منظمة إسلامية مع القائد محمود محيطي تورفاني[1] اسمها "جمعية تحرير تركستان الشرقية" في ٢٢/ ١٠/ ١٣٥٨هـ (١٠/ ٧/ ١٩٣٩م)، وكان الشيخ محمد أمين إسلامي التركستاني[2] ينوب عنه في الإمامة والخطابة أواخر عمره.

=ألقي القبض عليه من قبل الشرطة السرية السوفيتية وأدين بعشر سنوات بتهمة الخيانة العظمى وأمضى مدته في سجن فلاديمير المركزي حتى ١٩٥٥م. وبعد خروجه من السجن رجع إلى بلدته بنواحي شيليابنيسك واشتغل بالتدريس حتى وفاته سنة ١٩٧٢م.

(١) القائد المناضل محمود محيطي التورفاني ولد عام ١٣٠٤هـ في محافظة آستانا من ولاية تورفان، تعلم في الكتاتيب والمدارس المحلية وهو أخو القائد مقصود محيطي، كان ذكياً وداهية لم يتجاوب لدعوات شين دوبن لاستدراجه لأورومچي للقضاء عليه، تعرضت حياته للخطر وحيكت حوله المكائد واضطر للخروج لكشمير ثم سافر لأداء فريضة الحج ونزل بمصر ومنها لاسطنبول ثم رجع للهند وسجنه الإنجليز وخيروه بالرحيل فاختار الرحيل لطوكيو وأسس فيها "جمعية تحرير تركستان الشرقية" مع الشيخ قاضي عبدالرشيد إبراهيم في ٢٢/ ١٠/ ١٣٥٨هـ ثم سافر إلى بكين المحتلة من قبل اليابانيين وأقام فيها ومات بسكتة قلبية في مدينة "شيان" الصينية في أوائل سنة ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) عند استسلام اليابان للحلفاء. "علماء ما وراء النهر المهاجرين للحرمين" لمنصور بخاري (ص ٣٧).

(٢) الشيخ محمد أمين بن رسول بن باي التركستاني المكي رحمه الله ولد في قرية "اليشقو" بضواحي مدينة "ياركند" في بلاد ما وراء النهر بتركستان الشرقية عام ١٣٣٠هـ وقيل: ١٣٢٤هـ. درس العلوم الشرعية الابتدائية في مدارس ياركند، وفي عام ١٣٤٨هـ سافر إلى كاشغر، حيث أتم دراساته الإسلامية والعلمية في "خانليك مدرسه"، ومن مشايخه الحاج هاشم داملا والشيخ شمس الدين داملا، ثم عاد إلى ياركند وعمل مدرساً في مدرسة "محمودية" ثم مديراً لمدرسة "مطلع العرفان" التي أسسها محمد عبدالله خان خوجة عام ١٣٥٠هـ ثم أصبح مديرًا لإدارة المعارف العامة في عهد حكومة الثورة الإسلامية في عام ١٣٥٥هـ حيث انسحب الجنرال القائد العسكري العام لجيش ثورة تركستان الإسلامية "محمود محيطي تورفاني" إلى كشمير، ثم حمل اللواء من بعده نائبه محمد نياز وأعلن ثورة حتى النصر، فالتحق رحمه الله في هذه الثورة بصفة كاتب إداري وشارك في تحرير مدينة "آقسو آباد" ثم عددٍ من الولايات في الجنوب الغربي كولاية ياركند وكاشغر، واحتاجوا للسلاح فسافر للهند لطلب المعونة العسكرية ولم ينجح،=

=فاضطر للبقاء بالهند وذهب لجامعة مظاهر العلوم بسهارنفور وجلس للتحصيل العلمي وأتم قراءة كتب الحديث الستة خلال ستة أشهر، ثم التقى بالجنرال محمود محيطي تورفاني وصحبه للسفر إلى اليابان عام ١٣٥٧هـ وأسسوا "جمعية تحرير تركستان الشرقية" في ٢٢/ ١٠/ ١٣٥٨هـ وتولى هو وظيفة السكرتير وكان رئيسها الجنرال محمود محيطي ونائب الرئيس محمد أمين بوغرا المقيم آنذاك في أفغانستان، وتعرف خلالها رحمه الله على شيخه قاضي "عبدالرشيد إبراهيم" والشيخ العلامة موسى جار الله وتتلمذ عليهما في كثير من العلوم الإسلامية والأدبية والعلمية وكان إماماً لجامع طوكيو.

وفي عام ١٣٦٩هـ رحل إلى القاهرة، فرغب الزعيمان التركستانييان: محمد أمين بوغرا، و"عيسى يوسف آلبتكين" في اتخاذ القاهرة مركزاً لحركة إعلامية وثقافية لقضية تركستان في العالم العربي فطلبا منه أن يتولى هذه الحركة مع زميله "إبراهيم واصل تركستاني" فأصدر فيها مجلة "آزاد تركستان" واشتغل بالصحافة والتجارة وتزوج بامرأة تركستانية مصرية الجنسية.

هاجر في عام ١٣٧٦هـ إلى الحرمين وتولى وظيفة مترجم في وزارة الحج بجدة ثم انتقل في عام ١٣٩٧هـ للعمل في الطائف بإحدى الدوائر الحكومية ثم رجع إلى جدة في عام ١٤٠٢هـ للعمل بإذاعة جدة بالقسم التركستاني وكان يقدم فيها يومياً ترجمة مختصرة لتفسير القرآن الكريم باللغة الجغطائية.

كان رحمه الله يعيش مع هَمٍّ كبير يحمله في نفسه وهو همّ الأمة الإسلامية وقضاياها، فحمل راية التحرير وعمل جاهداً في المشاركة في المؤتمرات الإسلامية وقدم مذكرات عديدة، ونشر أبحاثاً ودراسات علمية عن تاريخ وجغرافيا تركستان وحضارتها، وتعريف وتقديم معلومات عن النضال الوطني في تركستان، وإبراز دور تركستان والتركستانيين في خدمة الإسلام ونشره، ونشر مقالات وأحاديث عن تعاليم الإسلام والعالم الإسلامي بهدف التوعية الدينية لأبناء المهاجرين، وترغيب الشباب للاهتمام باللغة والأدب الوطني، وتخفيف معاناة المهاجرين التركستانيين في الغربة والافتراق عن الأهل والوطن وتوثيق الصلات والعلاقات الاجتماعية والأدبية بينهم، وبه يتضح أنه رحمه الله قد عمل ما في وسعه وجهده لتحقيق ما سعى إليه، بل كان الرائد في هذا المجال بين الإخوة المهاجرين من تركستان.

ومن مؤلفاته: كتاب "تركستان أدبياتدن بارجه لر" (مقتطفات من الأدب التركستاني) باللغة الجغطائية سنة ١٣٧٩هـ، و"حقائق عن التركستان المسلمة". له من الأولاد خمسة أبناء: عبدالصمد وعبدالأحد ومجدي ومحسن ومدحت. توفي رحمه الله يوم الخميس السابع من شهر ذي الحجة لسنة ١٤٠٨هـ ودفن في جنة المعلاة بمكة المكرمة. وللمزيد انظر "علماء ما وراء النهر المهاجرين للحرمين" لمنصور بخاري (ص ٢٥٢).

(مؤلفاته):

١. كتاب "عالم اسلام" أي العالم الإسلامي وانتشار الإسلام باليابان اسطنبول ١٣٢٨-١٣٢٩-١٣٣١هـ، يشرح رحلته التي استمرت ثلاث سنوات إلى منطقة تركستان وسيبيريا والصين والهند ومنشوريا واليابان وكوريا وسنغافورة والحجاز وسوريا حتى وصل إلى اسطنبول، يقع في مجلدين باللغة التركية العثمانية، ونقله محمد باك صو إلى الحروف اللاتينية عام ١٩٨٧م وترجم إلى اليابانية من قبل الباحث هيساو كيماتسو عام ١٩٩١م وقالت زوجته: إن الكتاب لاقى إقبالاً كبيراً في اليابان بعد ترجمته، وأشرف على ترجمته إلى اللغة العربية د.صالح مهدي السامرائي وطبع عام ٢٠١١م.

٢. رسالة "لواء أحمد" ١٨٨٥م، طبعها في اسطنبول لتشجيع التتار الأتراك للهجرة إلى أناضول تركيا، ووزعت في روسيا سراً.

٣. كتاب "نجمة چولبان" أي لحمة الراعي، اسطنبول ١٨٩٥م وبترسبيرغ ١٩٠٧م كتبه عندما هرب من ضغط الروس عام ١٨٩٥م إلى اسطنبول يشرح فيه الظلم الذي تقوم به روسيا على التركستانيين وأن العدو الوحيد للعالم الإسلامي هو النظام الروسي، ويتحدث عن التقصير في أعمال محكمة أورينبيرغ الشرعية، ووزع هذا الكتاب سراً في قازان وروسيا.

٤. كتاب "ترجمه حالم" أي سيرتي الذاتية، بترسبيرغ (بدون تاريخ) وأغلب الظن أنه في عام ١٩٠٦م، وهو كتابنا هذا باللغة التركية، ويذكر أن له جزء ثان لكن لم نقف عليه.

٥. أسرار السجون (حبسخانه اسراری)، قازان (بدون تاريخ)، عن الأيام التي قضاها في السجن بين عامي ١٨٧٨-١٨٧٩م.

٦. رسالة نظرية عمرها ألف وثلاثمائة سنة، بترسبيرغ ١٩٠٥م عن الأمل الذي عاش له طوال حياته في السعي وراء توحيد الأتراك، وجعل هذه الرسالة مصدر إلهام للنظام الداخلي الذي طبعه من أجل مؤتمر الاتفاق لمسلمي روسيا، وهو أول كتاب نجا من الرقابة الروسية.

٧. رسالة أتونوميا (الحكم الذاتي)، بترسبيرغ ١٩٠٥م يتحدث عن الاستقلال الذاتي الذي تتمتع به الأقليات داخل حدود الدولة العثمانية، ويؤكد على ضرورة عمل أتراك روسيا من أجل استقلالهم بعد أن ظهر ميلهم للحكم الذاتي في مجلس دوما الأول والثاني ١٩٠٦-١٩٠٧م وطرح فكرة الاستقلال القومي لمسلمي روسيا، يقع في ٣٥ صفحة.

٨. رسالة "الفجر الصادق"، بترسبيرغ ١٩٠٦م يهدف إلى توحيد مسلمي روسيا.

٩. دورة العالم، قازان ١٩٠٩م جمعه مع ابنه لبعض مدوناته في رحلته لليابان ١٩٠٨م وهو ملخص لمؤلفه "العالم الإسلامي" باللغة التتارية.

١٠. "معلومات طبية وحكمها الدينية"، طبعة ثانية قازان ١٩٠٧م باللهجة التتارية القازانية كتيب يتحدث عن أهمية الواجبات الدينية كالزكاة والوضوء والاغتسال والفوائد الطبية من تطبيقها.

١١. "محاكمة الضمير وميزان الإنصاف"، بترسبيرغ ١٩٠٦م، ١٩٢٧م واسطنبول ١٣٢٩هـ باللغة التتارية طبع عدة مرات رداً على كتاب (رسالة مفتوحة) للمبشر النصراني دورنكين لنشر النصرانية بين التتار، آخرها بالتركية يوازن فيه بين الإسلام والمسيحية ويبرز تفوق الإسلام.

١٢. رسالة "الدين الفطري"، اسطنبول ١٣٤٠هـ، عن لزوم الدين للبشرية وأوصاف النبي ﷺ وتفسير سورة الفاتحة وشرح كون الدين الإسلامي أسمى الأديان.

١٣. ترجمة كتاب "آسيا في خطر"، ١٣٢٨هـ مؤلف الكتاب الياباني "حسن أوهو" وترجمه عبدالرشيد إبراهيم مع صديقه الياباني "محمد حلمي ناكاوا" في اسطنبول، يتحدث عن المظالم والمعاملات اللاإنسانية التي قامت بها الدول الأوروبية في قارة آسيا مثل ربط البشر في فوهة المدافع واطلاق القذائف والتعليق من الأقدام وقطع الأنوف وسلخ الوجوه.

١٤. ترجمة "ألف حديث وحديث"، بترسبيرغ (بدون تاريخ) قد يكون طبع قبل ١٩٠٧م لأن مطبعته في بترسبيرغ أغلقت قبل عام ١٩٠٧م، وهو ترجمة لكتاب محمد عارف بيك بالتركية بنفس الاسم.

١٥. "الصفحات المنسية من التاريخ"، برلين ١٩٣٣م، نشره موسى جارالله في برلين نقلاً عن مذكرات عبدالرشيد إبراهيم يقع في جزأين: في الجزء الأول يجيب عن سؤال: ما هو السبب الرئيسي في استشهاد السلطان عبدالعزيز؟ ويعالج السياسة الخارجية في عهده. ويتحدث الجزء الثاني عن القحط الذي أصاب روسيا في سنوات ١٩٢٢م وعن النشاطات التي قامت لجمع التبرعات في الدول الغربية المختلفة لأتراك روسيا، ويذكر عبدالرشيد أنه شارك بنفسه في هذه النشاطات. وادعاؤه في هذه الرسالة أن السلطان عبدالحميد لم يكن من مؤيدي الاتحاد الإسلامي أمر يدعو إلى الاستغراب وملفت للنظر!

كما له المئات من المقالات المنشورة في العديد من الصحف والمجلات سواء في التي أصدرها بنفسه أو غيرها.

(أفكاره وهمومه):

وهب جل سنين عمره رحمه الله في سبيل قضية الإسلام والأتراك المسلمين وإصلاح التعليم ومن أجل النضال ضد الاستبداد الروسي. كان رحمه الله يؤمن أن إصلاح نظام المدارس والكتاتيب والمناهج الجديدة في التعليم هو السبيل لوحدة المسلمين وتقدمهم ونصرتهم، لذلك كرس كل وقته في ذلك فكان إذا زار بلاداً جديدة ذهب لزيارة مؤسساتها التعليمية للتعرف على نظام التعليم بها، ومراعاة أن يقضي بعض الوقت لتدريس الطلبة أيضاً، وكان دائم النصيحة والتثقيف لطلبته ويحثهم على

اكتساب العلوم والمعارف، ويأخذهم بنفسه أو يبعثهم من بلده (تارا) ليكملوا دراستهم في اسطنبول أو في المدينة المنورة.

وافتتح عدة مدارس في بلدته (تارا) ومدرسة أخرى في اسطنبول بجوار منطقة توب قابي بعد أن كان يدّخر قسماً من المعونات التي قدمها له أصدقاؤه من أجل المعيشة، فكان يهتم بالطلبة ويؤمن لهم المعيشة والاحتياجات بالرغم من الضيق والعوز الذي عاشه.

(ومن أقواله لطلبته):

(١) ألستم المعلمين الذين يحفظون دين هذه الأمة في المستقبل؟ ألستم المهندسين الذين ستشقون طرقها؟ أليست العدالة والمساواة ستقوم بكم؟ كل احتياجات الأمة المعنوية والمادية في أيدكم. لذا عليكم يا معشر الطلبة أن تعدوا أنفسكم للمستقبل. المستقبل أمانة في أعناقكم. اعملوا بجد وابحثوا عن الطرق التي تقوي أمتكم وتهيئها للأيام المقبلة، فكل الآمال معقودة عليكم.

(٢) إذا قامت مسيرة للطلبة في أوروبا من مئات الآلاف في الميادين فإنهم لا يشركون الشرطة في تنظيمها، فالطالب الأوروبي يحمل على عاتقه مهمة حفظ الأمن، فالطلاب بإشارة إصبع أو كلمة حلوة يديرون أمور الدولة، لا يسمحون بوقوع أي حادث. الأولى بكم أن تأخذوا منهم محاسنهم بدل أن تجعدوا الشعور وتفتلوا الشوارب، أعيد على مسامعكم ثانية، الدولة والأمة والوطن بحاجة إلى حميتكم.

(٣) ما هذا الطريق الذي تسلكونه؟ إذا كان الرجل يدرس اللغة العربية عشر سنوات ولا يتكلم كلمتين عربيتين بالعربية ولا يكتب سطرين ولا يستطيع قراءة غير كتب دراسته فيا أسفاً على أعوام العمر التي ذهبت سدى، ويا حسرتا على الآمال التي عقدت عليها الأمة.

(٤) الطالب الذي لا يفكر أن يصبح شيخ الإسلام لا يصير عالماً، والذي لا يفكر أن يصبح قائداً لا يصير جندياً، على كل طالب أن يجعل نصب عينيه أنه سيصير يوماً شيخ الإسلام أو وزيراً للمعارف ويجتهد على أساس ذلك.

أما في مجال الوحدة الإسلامية فكان رحمه الله تشغله هذه القضية كثيراً فكان يؤمن بوجوب العمل المشترك بين الدول الإسلامية ونصرة بعضهم في مواجهة الظلم والاستبداد من الغرب والروس، ويرى أن تركيا هي الأجدر لأن تكون رائدة لتحقيق الآمال، وكان يرى أن تركيا هي القلعة الأخيرة للإسلام، بالإضافة إلى أنه كان يرى أن مستقبل العالم الإسلامي مرهون بوحدة الأقوام الطورانية (من العرق التركي)، كما أنه يؤيد بشدة النضال ضد الإمبريالية الغربية التي استعمرت الدول الإسلامية وكان يرى أن تحالف العالم الإسلامي مع اليابان يساعد في التصدي لهذه القوى الإمبريالية والروسية؛ لأن اليابان لديها التقدم العلمي والمعرفي والحضاري ولديها قابلية في الدخول للإسلام إذا تعاونت الدول الإسلامية في التقارب معها ونشر الإسلام.

(ومن أقواله):

(١) لماذا نمد يدنا للغير؟ ما المانع في أن نواجه أعداءنا بإخوتنا؟ لماذا لا نوحد لغاتنا؟ لماذا لا يستفيد التتار من المطبوعات العثمانية ولماذا يحرم الأتراك من قراءة المطبوعات والصحف التتارية؟ أرى أن علينا عدم تفويت الفرصة والعمل من أجل التضامن وتحقيق الوحدة التركية على الفور.

(٢) ما يسميه الأوروبيون بالحضارة هو مجرد قناع، أو وسيلة للظلم فلا راحة للضعفاء مادام الحكم للقوة.

كان رحمه الله يحمل همّ الأمة الإسلامية من جميع جوانبها ويطرح أفكاراً مستجدة جريئة في مقالاته لا يطرحها غيره، كنظام التأمين لمواجهة جشع التجار الغربيين، وانتقاده نظام الحجر الصحي للحجاج، وحرية الرأي والفكر للصحافة، ولطالما تعرضت مجلاته وصحفه للتوقيف والمحاكمة. وقد توقف عن كتابة المقالات بعد قيام الجمهورية التركية بسبب الضغوط على الصحافة لكنه استأنف الكتابة بعد مغادرته الأخيرة لليابان.

(ماذا قال المثقفون والمفكرون عنه؟):

لا شك أن عبدالرشيد إبراهيم يعتبر من المجددين والمصلحين الوطنيين ومن الشخصيات السياسية القيادية الفذّة ومن المثقفين البارزين وأحد روّاد اليقظة المدنيّة في


محمد عاكف أرصوي

القرن العشرين، وكان يملك موهبة نقدية عالية ظهرت كثيراً من خلال كتاباته ومقالاته فكان يقف على الكثير من الأحداث والعادات والموروثات عند الأمة الإسلامية وينتقدها مباشرة ويبدي عدم موافقته لها، وأما جهوده الإقليمية والعالمية لخدمة الإسلام والمسلمين كما استعرضناها يجب أن تكتب بمداد من ذهب ليتعرف عليه هذا الجيل وما بعده، ومما قيل عنه:

(١) قال شاعر الأمة الإسلامية والأتراك "محمد عاكف أرصوي"[١] متحدثاً عن مقدرته الخطابية: كان يتحدث إلى الآلاف بلكنة تتارية يمزجها بلهجة أهل

---

(١) محمد عاكف أرصوي شاعر الإسلام والوطنية والقومية والوحدة الإسلامية، ولد بإسطنبول عام ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م)، من أب ألباني يسمي محمد طاهر، وأم بخارية تدعي أمينة شريفة هانم. حفظ القرآن وتعلم قواعد اللغة العربية وتلقى قدراً كبيراً من الثقافة الإسلامية على والده الذي كان مدرساً بمدرسة فاتح. وأتقن تعلم اللغات الأربع: التركية، والعربية، والفارسية، والفرنسية. بدأ حياته الوظيفية في عام ١٨٩٣م كطبيب بيطري، وكان في تلك السنوات يلقي دروساً في الأدب بدار الفنون جامعة إسطنبول، وعين سكرتيراً لدار الحكمة. نفي إلى مصر بعد ظهور الكمالية وعاش بها ١١ عاماً، أثرى خلالها الحياة الأدبية المصرية، كان أحب شعراء العرب لديه هو ابن الفارض، وشغف بسعدي الشيرازي وجلال الدين الرومي، وأعجب بأعمال لامارتين. اشتغل في مصر بترجمة القرآن الكريم كما درّس مادة اللغة التركية وأدبها في جامعة فؤاد الأول. من أشهر مؤلفاته: على منبر السليمانية، أصوات الحق، على منبر الفاتح، مذكرات عاصم، صفحات (وهو اسم كتابه الأول طبع منه ٧ مجلدات بأسماء: مع الفرعون وجهاً لوجه، لنصب الشهداء، الوحدة، الليل، مرارة القلب، السجدة وآخرها ظلال وهي منظومات شعرية) وله مئات المقالات الفكرية نشرت في مجلتي «الصراط المستقيم» و«سبيل الرشاد» اللتين أصدرهما مع صديقه الأديب الأستاذ أشرف أديب. عاد إلى اسطنبول وتوفي بها سنة ١٩٣٦م.

اسطنبول بأسلوب سهل ممتنع يتجنب فيه العبارات الغربية والإطناب المصطنع، ويسحر مستمعيه بأفكاره وآرائه حتى لتجد الناس يذهلون عن كل شيء ويصغون إليه بكل شوق، يدعوهم إلى سماعه ولو استمر حديثه إلى الأبد.

(٢) وكتب أيضاً مقالة عن كتابه "العالم الإسلامي" بعنوان (كتاب في غاية الأهمية) ومما قال فيه: أنا لا أذكر أني قرأت كتاباً منذ زمن بعيد بهذا القدر من التأثير وبهذا القدر من الفائدة وبهذا القدر من الصدق ا.هـ. كما جعله بطلاً لإحدى قصصه الأدبية الخالدة، وله قصائد كثيرة في مدحه.

(٣) وقال الدكتور عبدالوهاب عزام[1]: إن كتاب عبدالرشيد إبراهيم (العالم الإسلامي) أهم من رحلات ابن بطوطة.

---

(١) الشاعر عبدالوهاب بن محمد عزام، أحد أبرز المفكرين العرب في القرن العشرين، كان أستاذاً وأديباً وكاتباً ومفكراً وشاعراً ومترجماً وسياسياً، ولد بقرية الشوبك بمصر عام ١٣١٢هـ، حفظ القرآن الكريم، والتحق بالأزهر ثم بمدرسة القضاء الشرعي ثم بالجامعة الأهلية ليحصل فيها على شهادة الليسانس في الآداب والفلسفة عام ١٩٢٣م، اختير إمامًا للبعثة المصرية في لندن فالتحق بمدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن، ونال درجة الماجستير بأطروحته عن التصوف عند فريد الدين العطار عام ١٩٢٨م، ثم عاد إلى مصر فعين مدرسًا بكلية الآداب جامعة القاهرة، ثم حصل على الدكتوراه في الأدب الفارسي بأطروحته «شاهنامة الفردوسي» ١٩٣٢م من الجامعة المصرية. ثم أصبح عميدًا لكلية الآداب ١٩٤٥م، وانتقل إلى العمل الدبلوماسي فعمل وزيرًا مفوضًا لمصر في السعودية سنة ١٩٤٧م، ثم سفيرًا لمصر في باكستان سنة ١٩٥٠م ثم عاد ليعمل سفيرًا لمصر في السعودية. أصدر الدواوين التالية: «رسالة المشرق»، «الأوابد»، «اللمعات»، «المثاني»، وله العديد من المؤلفات منها: «أحكام القوافي في الإنشاد»، «أسماء العشب والشجر في بوادي العرب»، «ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام»، «رحلات عبدالوهاب عزام»، «الشعر العامي في نجد»، «محمد إقبال»، له سلسلة مقالات نشرت في مجلة الرسالة تحت عنوان: «أمم حائرة» وتوفي بالسعودية، ودفن في مسجده بضاحية حلوان سنة ١٣٧٨هـ. معجم البابطين للشعراء.

(٤) وقال الكاتب الفرنسي "فرانسوا جورجون"[1] في مقالته (الحلم العثماني في الشرق في بدايات القرن العشرين): الإنجازات التي حققها الرحالة المسلمون على قلة عددهم كانت عاملاً مهماً في القيام بدعوة إسلامية كبرى.. ومن بين هؤلاء الرحالة يحتل عبدالرشيد إبراهيم التتاري مكاناً مختلفاً.

(٥) وقال الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه "النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين": أسطورة الداعية الرحالة المجاهد الصابر الدؤوب عبدالرشيد إبراهيم.

(٦) وقال عنه الدكتور صالح مهدي السامرائي: عبدالرشيد إبراهيم (عملاق) من مسلمي روسيا عالم ومفكر وداعية ورحالة وسياسي.

(٧) ونظم الشاعر معالي الشيخ "عبدالله بلخير" قصيدة عنه في سجل الأدب العربي.

---

(١) فرانسوا جورجون François Georgeon ولد في نويبي سور سين عام ١٩٤٢م وهو مؤرخ فرنسي متخصص في الإمبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة. تخرج من مدرسة اللغات الشرقية (INALCO)، وكان مساعداً في التاريخ المعاصر في جامعة تونس في عام ١٩٧٥م وأستاذ مقيم في المعهد الفرنسي للدراسات الأناضولية في اسطنبول عام ١٩٧١م، ومدير مركز التاريخ للمنطقة التركية (كوليج دو فرانس) التي أصبحت مركزاً للدراسات التركية والعثمانية والبلقان، وقد ترجمت معظم كتبه والمقالات إلى اللغة التركية. ومن أهم مؤلفاته: أصول القومية التركية ١٩٨٠م، عتبة تركيا من أوروبا ١٩٩١م، المدن العثمانية في نهاية الإمبراطورية ١٩٩٢م، رمضان والسياسة ٢٠٠٠م، عبدالحميد الثاني الخليفة (١٨٧٦-١٩٠٩م) ٢٠٠٣م، الأطفال والشباب في العالم المسلم ٢٠٠٧م، تحت شعار الإصلاح الدولة والمجتمع في الدولة العثمانية وتركيا الكمالية (١٧٨٩-١٩٣٩م) ٢٠٠٩م.

(عقبه):

له من الزوجة الأولى: أحمد منير، وقدريّة، وفوزيّة. منير توفي في أنقرة وأولاده وأحفاده يعيشون في إزمير، وقدرية توفيت في اسطنبول وليس لها عقب، وفوزية ولدت في تارا وأصدرت مجلة آثار النساء عام ١٩٢٦م وتوفيت في اسطنبول.

الشاهد الموجود على قبره رحمه الله

ومن زوجته الثانية له: ثلاثة أبناء وابنة واحدة اسمها صباحات بالطاي. الأبناء توفوا جميعاً وأحفاده يعيشون في أدرنة، وصباحات كانت على قيد الحياة عام ١٩٩٣م.

(وفاته):

قضى آخر أيام حياته بعيداً عن زوجته وأولاده ومات في بلاد الغربة. وقد عبر عن حسرته على وطنه بهذا البيت الذي روته ابنته "صباحات بالطاي":

لا يهجر المرء برضاه مواطنه ** ويشيب من قهر الفراق بلا سبب

توفي رحمه الله في طوكيو باليابان في السابع والعشرين من شهر شعبان من سنة ١٣٦٣هـ الموافق (١٧/ ٨/ ١٩٤٤م)[١] ودفن بمدافن المسلمين في مقبرة "تاما رين"[٢] بطوكيو.[٣]



(١) هناك اختلاف كثير في تاريخ ولادته ووفاته فعلى شاهد قبره كتب: أنه ولد في ١٧ أيلول عام ١٨٥٢م ١٢٦٩هـ (وهما غير متوافقان فالمعادل للتاريخ الميلادي المذكور يكون من الهجري ٢/ ١٢/ ١٢٦٨هـ). وكذلك كتب وفاته على شاهد قبره ٣١ أغسطس ١٩٤٤م ١٢ رمضان ١٣٦٢هـ (وهذا أيضاً لا يتوافق فالتاريخ المقابل للميلادي هو ١٢ رمضان ١٣٦٣هـ). وذكر د.مصطفى أوزون: أن ولادته ووفاته بتاريخ (٢٢/ ٤/ ١٨٥٧م- ١٧/ ٨/ ١٩٤٤م)، وقال: هناك اختلاف في تاريخ وفاة عبدالرشيد إبراهيم في المصادر، لكن في الحوار الذي أجراه عمر رضا دوغرولو مع ابنة عبدالرشيد إبراهيم بعد وفاته ونشره في مجلة "سلامت" بيّن هذا التاريخ، كما قامت بعض المصادر بتأييد هذا التاريخ، وقد أذيع نبأ وفاته في راديو طوكيو ا.هـ.

(٢) مقبرة Tama Reien cemetery.

(٣) مصادر ترجمته: (١) بحث (عبدالرشيد إبراهيم ومسلمي روسيا) د.مصطفى أوزون أستاذ كلية الإلهيات بجامعة مرمرة. (٢) رسالة ماجستير (عبدالرشيد إبراهيم) إسماعيل تورك أوغلو ١٩٩٣م. (٣) بحث (أعوام مجهولة في حياة عبدالرشيد إبراهيم) إسماعيل تورك أوغلو. (٤) كتاب (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين) د.محمد رجب البيومي ١٩٩٥م. (٥) كتاب (الإعلام لبعض رجالات تركستان) محمد قاسم أمين تركستاني. كتاب (تلفيق الأخبار) محمد مراد رمزي. (٦) كتاب (علماء ما وراء النهر المهاجرين للحرمين) ٢٠١٣م لمنصور عبدالباقي بخاري. (٧) كتاب (العالم الإسلامي) لعبدالرشيد إبراهيم. (٨) مقالة (الحلم العثماني في الشرق في بدايات القرن العشرين) لفرانسوا جورجون. (٩) بحث Muslim Intellectuals and Japan, Komatsu Hisao 2006.

مقدمة المؤلف

بما أني من أهل سيبيريا[1] لذا أرى من المناسب أن أذكر بعض المعلومات الموجزة عن أجدادي الذين عاشوا في سيبيريا[2]، ولأنني أصلا من (بخارى) لذا أرى من واجبي أن أسرد جانباً من أخبار وأحوال أهل بخارى في سيبيريا.

ينتسب مواطنو سيبيريا الأصليون إلى قبائل تورالي، وآيالي، وتيلانكوت ايستاك، وقورتاق. أما البخاريون الذين يؤلفون العنصر التركي في سيبيريا فإنهم دخلوا إلى هذه الأصقاع خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين حسبما ذكر يادرينجيف[3].

---

(١) هو من أصل بخاري وجدّه الكبير نفي إلى سيبيريا، انظر ترجمته الشاملة أول هذا الكتاب. وسيبيريا هي الجزء الشرقي والشمال الشرقي من روسيا تمتد غرباً من جبال الأورال حتي المحيط الهادي شرقاً، ومن المحيط المتجمد الشمالي حتي حدود كازاخستان ومنغوليا والصين جنوباً وتمثل ٧٧٪ من مساحة روسيا حالياً.

(٢) سيبيريا قبل الاحتلال الروسي كانت في الأصل أراضي القبائل الطورانية ثم خانيات أمراء مسلمين حتى القرن السادس عشر الميلادي، وهي تشكل حالياً ٩٠٪ من أراضي روسيا الاتحادية، تقع بين سلسلة جبال الأورال غرباً والمحيط الهادي شرقاً وكازاخستان جنوباً والمحيط المتجمد شمالاً. ودخل الإسلام فيها عن طريق الدعاة المسلمين الصوفيين من أهل السنة والجماعة من آسيا الوسطى منذ القرن الحادي عشر الميلادي، ثم عن طريق التجار المسلمين من قازان عاصمة خانية بلغار الإسلامية على نهر الفولغا. وقد قام الاتحاد السوفيتي بتشريد ونفي الملايين من المسلمين من دول آسيا الوسطى إلى هذه المناطق النائية، فكانت النتيجة أن سيبيريا لا تخلو من أي تجمع وبؤر إسلامية ومساجد.

(٣) نيكولاي يادرينتسيف Nikolai Yardintsev وهو بلديه من أهل (تارا) مستكشف وعالم آثار ومؤرخ في علم القبائل التركية Turkologist، ولد في أومسك عام ١٨٤٢م له اكتشافات أثرية =

ولقد قامت إمارة (كوچم)[1] المطلة على نهر (إيرتش)[2] بتشكيل حكومة مستقلة على غرار الحكومة التي ألفتها إمارة (قازان)، وفتح ذلك المجال لاختلاط أهالي سيبيريا مع البخاريين والقازانيين. وقد اتخذ زعيم إمارة سيبيريا "پاي تختي خان" مدينة (إيسكر)[3] عاصمة له وكانت تسمى قبل ذلك (سيبير أو صيبير)، ومن مدنها المشهورة (پاپانچين) و(چنغي تورا-تيومان حالياً)[4] و(ياولي تورا) و(تارخان قلعه) و(بيچكي تورا) و(فارجى) و(قول لر) و(طبول تورا). وتؤكد الوثائق الرسمية المدونة منذ عام ١٥٩٨م أن أهالي سيبير كانوا موجودين في سيبيريا.

=عديدة، سافر عبر سيبيريا وألطاي ومنغوليا لأبحاث الجغرافيا وعلم الآثار والإثنوغرافيا والأنثروبولوجيا واللغات. توفي سنة ١٨٩٤م.

(١) كوچم خان Kuchum بن مرتضى خان حفيد أيباك خان من الشيبانيين، هو آخر ملوك خانية سيبير (إمارة سيبيريا) بين ١٤٩٠-١٥٩٦م، اهتم بنشر الإسلام في سيبيريا واستقدم العلماء من آسيا الوسطى من سمرقند وبخارى وفرغانة. واستشهد في إحدى غزواته ضد الروس رحمه الله سنة ١٦٠٥م.

(٢) إيرتش Iyrtsh أكبر أنهار غرب سيبيريا ينبع من جبال ألطاي جنوباً ويلتقي مع نهر أوب Ob العظيم ليصب في المحيط الشمالي.

(٣) إيسكر أو سيبير أو قاشليق (Isker or Sibir or Qashliq) تقع عند ملتقى نهر إيرتش ورافد نهر طبول تبعد ١٢ كم عن مدينة طبول Tobolsk في إقليم تيومان، وهي الآن أطلال تقبع على تلة.

(٤) مدينة تيومان أو تيومين Tyumen (إقليم تيومين Tyumen Oblast) تقع على نهر تورا Tura كانت عاصمة (إمارة سيبيريا) قبل سيبير (قاشليق).

ويذكر رادلوف[1] أن التتار في سيبيريا ينتسبون إلى ثلاث قبائل: هي تورالي وآيالي وقورتاق، وفيما عدا ذلك استمرت هجرة الأتراك البخاريين من أواسط آسيا إلى سيبيريا.[2]

كان التتار قبل عام ١٦٣٩م يدينون بالمجوسية، وقد انتشر الدين الإسلامي بينهم بعد ذلك التاريخ ،كما انتشر الإسلام بين تتار باشقورت[3] على أيدي البخاريين الذين تزوجوا بأعداد كبيرة من التتاريات وقد انتشر هذا النوع من الزيجات في أنحاء كثيرة من مدن (طبول)[4]، و(تيومان)، و(تارا)[5] وغيرها، ولم يكتفِ البخاريون بالنشاط التجاري في سيبيريا فحسب، بل وسعوا أعمالهم التجارية حتى بلغوا سواحل بحيرة (آرال) ومنذ عام ١٥٩٥م تشكلت طبقة من التجار البخاريين في المنطقة وأخذت

---

(١) فريدريك وليام رادلوف Friedrich Wilhelm Radloff عالم آثار ومؤرخ ومؤسس علم القبائل التركية Turkologist، ولد في ألمانيا عام ١٨٣٧م وهو أول من نشر النقوش الأورخانية في اللغات التركية القديمة وساعد في إنشاء متحف الإثنوغرافيا الروسية وكان مسؤولاً عن المتحف الآسيوي في سانت بترسبيرغ. توفي سنة ١٩١٨م.

(٢) اقتصر فيما بعد تسمية جميع من ينحدر من هذه القبائل إلى (تتار سيبيريا) كما أصبح يقال للبخاريين الذين هاجروا لهذه المنطقة (بخارى سيبيريا).

(٣) قبيلة الباشقورت (الباشكورت) من القبائل التركية المسلمة وهم جزء من التتار وأرضهم بين جبال الفولغا وجبال الأورال وحالياً جمهورية باشكيريا الإسلامية (باشكورتستان Bashkortostan التي تشترك في حدودها الغربية مع جمهورية تتارستان) خضعت للاستعمار الروسي منذ عدة قرون وحالياً لها حكم ذاتي في الاتحاد الفيدرالي الروسي وعاصمتها أوفا Ufa التي كانت مركزاً إسلامياً.

(٤) طبول Tobolsk مدينة صغيرة تقع في إقليم تيومان عند ملتقى نهري تورا وإيرتش.

(٥) تارا Tara قرية صغيرة تقع في إقليم أومسك Omsk Oblast تبعد حوالي ٢٠٠ كم شمال مدينة أومسك عاصمة الإقليم. وإقليم أومسك يقع شرق إقليم تيومان وكلاهما على الحدود الجنوبية مع جمهورية كازاخستان حالياً.

القوافل التجارية تغدو وتروح بين (بخارى وتارا) بصورة مستديمة، كذلك مارس البخاريون النشاط السياسي وقدموا خدماتهم بالعمل في السفارة الروسية في الصين، وفي مثيلتها الصينية في موسكو. وفي عام ١٦٥٨م كلفت الحكومة الروسية أحد البخاريين في تارا "سيد قل بابا" لإيصال هدية منها إلى بكين. وفي عام ١٦٦٨م دعا البخاريون قبائل الكيركن والباشقورت إلى اعتناق الدين الإسلامي.

توسعت تجارة أهل بخارى في سيبيريا حتى وصلت قوافلهم إلى بلاد الهند في عام ١٧٦٣م، وبعد ذلك بعقد من السنين بدأوا بعقد اتفاقيات رسمية مع الحكومة الروسية في (بتريسبيرغ)، وقد أكد "مير عليم شيخ بابا" -وهو من البخاريين المرموقين- أنه حصل على بعض الامتيازات الخاصة من الحكومة الروسية بشأن المنطقة التي يسكنها، وأنه يحتفظ بالوثائق الرسمية التي تؤيد قوله هذا.

وفي سنة ١٧٦٥م اكتمل بناء المساجد في جميع الولايات السيبيرية، كما ظهر بعد ذلك عدد من العلماء بين المسلمين، وقاموا بانتخاب رئيسٍ لهم، وحصلوا على إذن لتطبيق الشريعة الإسلامية، ونبغ من بين علماء المسلمين "عبدالرشيد بابا آخون" في (قلعة تارا)، وقد قام بجمع التبرعات لبناء مسجد في تلك المدينة. وأود أن أضيف أنني استقيت هذه المعلومات من كتّاب وباحثين من الروس أنفسهم. ومما يؤسف له أنه مع الانتشار الواسع لنفوذ البخاريين المسلمين في المنطقة لم يؤسس في حينه حكومة ذاتية لهم، ولم نتوصل لمعرفة الأسباب التي حالت دون تحقيق تلك الأمنية.

أكمل عبدالرشيد بابا بناء المسجد في قلعة تارا بمعاونة رجل من بخارى اسمه "سيد بابا" في بلدة (آيالي) سنة١٧٩٣م[١]، وقد تولى "إبراهيم باي" إدارة شؤون المسجد بعد وفاة والده عبدالرشيد، وإبراهيم باي هو جدّي الذي تنتسب إليه أسرتي، وكان من سراة القوم ومسئولاً عن إدارة المدرسة الملحقة بالمسجد، وكان يعمل في التجارة، ومع ذلك فقد خصص بعض وقته لتدريس الطلبة في تلك المدرسة.

ويوجد حالياً في قلعة تارا عدد من وجهاء المسلمين مثل "عيدكه قارت من نسل علي خواجه" و"نياز حاجي بابا" و"محمدي شيخ بيك من نسل شربتي شيخ" وغيرهم كثيرون، وهم أناس كرماء ومتدينون ولهم وزنهم لدى الحكومة.

وعندما حج "نياز حاجي بابا" عام ١٨٢٠م إلى الكعبة المشرفة حصل من مفتي مكة المكرمة "عبدالرحمن سراج"[٢] على فتوى بوجوب إقامة صلاة العشاء في

---

(١) الموافق ١٢٠٧هـ.

(٢) ولد الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله سراج الحنفي المكي بمكة المكرمة في عام ١٢٤٩هـ، وحفظ القرآن المجيد وكثيراً من الفنون، وتتلمذ على والده شيخ علماء مكة مفتي الأحناف الشيخ عبدالله سراج، كما تلقى العلم على يد مفتي مكة الشيخ جمال عبدالله، شيخ علماء مكة الذي تولى مشيختها بعد وفاة الشيخ عبدالله سراج والد الشيخ عبدالرحمن سراج، كما درس على مفتي الشافعية السيد أحمد زيني دحلان شيخ علماء مكة المكرمة، وعلى الشيخ رحمت الله العثماني مؤسسة المدرسة الصولتية، ويروي عن الشيخ صالح الفلاني صاحب ثبت قطف الثمر، وكان مجتهداً في الطلب مجداً فيه، متميزاً بين أقرانه، وكان أديباً من الأذكياء والنبلاء حسن السمت عليه مهابة العلم والفضل، فحصل على إجازات أقطاب العلماء في زمانه، وأصبحت له حلقة في المسجد الحرام وتتلمذ عليه طلاب العلم وتخرج جماعة منهم على يديه، نفاه الشريف عون الرفيق من مكة فتوجه إلى مصر وتوفي بها سنة ١٣١٤هـ. مختصر نشر النور والزهر، أعلام الحجاز للمغربي.

أقصر ليالي سيبيريا[1]، وفي طريق عودته من الديار المقدسة أقام في مصر بعض الوقت لغرض الدراسة[2].

وعندما حج إبراهيم بابا إلى بيت الله الحرام سنة ١٨٢٧م[3] عين نياز حاجي مسؤولاً على المسجد، وأخذ نياز حاجي على عاتقه إدارة المدرسة الملحقة بالمسجد وجمع بعض المبالغ التي خصصها لشؤون المسجد والمدرسة وعين "إبراهيم ملّا" مدرساً في تلك المدرسة وهو والد والدتي. ومنذ ذلك الحين والمسجد مفتوح للمصلين، وتقوم المدرسة بخدمة الطلبة الدارسين. وكان جدّنا إبراهيم بابا قد كتب وصية قبل أن يتوجه إلى البيت الحرام، وفي طريق عودته قام بزيارة دمشق ووافته المنية في بيروت.

ومن بين الذين خدموا الدين الحنيف من البخاريين المرحوم "نعمت الله حاجي" من قرية (مانچل) في منطقة (تيومان)، وقد اشتهر بالأعمال الخيرية، وبنى عدداً غير قليل من المساجد والمدارس الدينية.

---

(١) وذلك بسبب فتوى انتشرت في تلك البلاد تسقط صلاة العشاء عن أهلها؛ لعدم غياب الشفق في بعض أيام السنة.

(٢) عام ١٨٢٠م يوافق عام ١٢٣٥هـ وعليه يكون نياز حاجي بابا لم يلق الشيخ عبدالرحمن سراج، وربما لقي والده الشيخ القاضي عبدالله بن عبدالرحمن سراج الحنفي المكي (ت ١٢٦٤هـ). وقد ذكر الشيخ محمد مراد رمزي القازاني في تلفيق الأخبار: "ولمولانا المرحوم العلامة عبدالله سراج رحمه الله مفتي بلد الله الحرام رسالة فيها أيضاً حقق فيه الوجوب الذي هو الحق والصواب وذكر في أولها أنه قدم رجلان من بلاد البلغار وعليهما آثار السكينة والوقار... الخ"، والله أعلم.

(٣) وهو يوافق حج عام ١٢٤٢هـ، وقد ذكر الشيخ محمد مراد رمزي في تلفيق الأخبار أن إبراهيم بابا حج عام ١٢٥٠هـ.

أما والدي رحمه الله فإنه لم يعرف كيف يتصرف بالأموال التي آلت إليه وأضاعها جميعاً واتهم بالدعوة الانفصالية عن روسيا، واختفى فترة، ثم عاد وقضى مدة طويلة في السجن. وهكذا قضى بقية حياته وهو في فقر مدقع.

أما الوالدة فإنها قضت حياتها في التدريس وتعليم الفتيات. وكل النساء في (تارا) مدينات لها؛ لأنهن تعلمن على يديها، ولذلك فإنها كانت هي التي تصرف على شؤون البيت وعلى الوالد أيضاً. وكما أسلفت فإن أسرتنا تنتسب إلى إبراهيم بابا وكان والدي يستعمل لقب إبراهيموف، وكم وددت أن أفصل كلمة (أوف) هذه عن لقبنا، ولكن الحكومة رفضت طلبي هذا، وكانت والدتي من قبيلة باشقورت وأخوالي يسكنون قرية (ألمن).

وعليه يكون نسبي بخاري من جهة أبي: عبدالرشيد بن عمر بن إبراهيم بن عبدالرشيد بن عبدالرحيم.

ونسبي من جهة والدتي باشقورتي: عفيفة بنت إبراهيم بن جعفر.

وقد شرحت هذه التفاصيل لكي يكون أولادي على علم بها رغم علمي بصعوبة تدوين السيرة الذاتية من قبل الشخص نفسه.

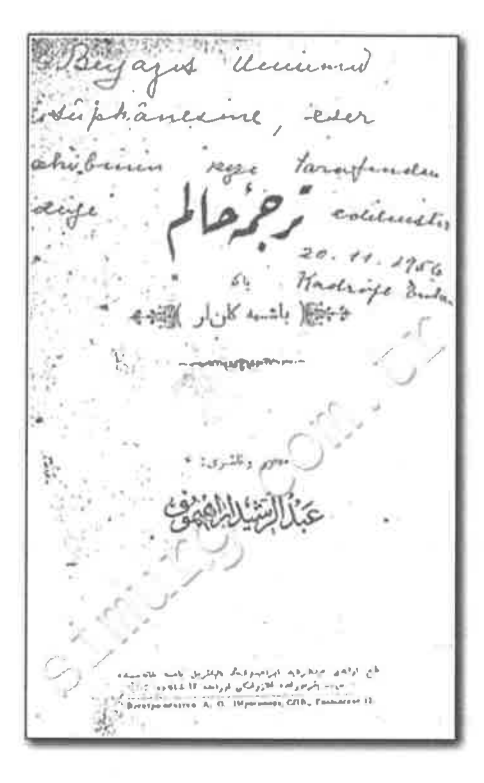
عبدالرشيد إبراهيم



سيرتي الذاتية[1] - المعاناة

(ترجمه حالم - ياكه باشمه كلن لر)

يا فتاح يا عليم يا مفتح الأبواب



(كلٌّ ميسر لما خلق له)[2] إذا طبقنا مدلول هذا الحديث الشريف على شخصي الضعيف ستتبين لنا الحكمة العظيمة الواردة فيه.

ليس من عادة الأدباء أن يكتبوا سيرتهم الشخصية بأنفسهم، ومع ذلك تجدون أن بعض مشاهير الأمة قاموا بتدوين تواريخ حياتهم بأقلامهم، لذلك وبناءً على إصرار بعض الأحبة قمت

---

(١) هكذا ترجم المترجم اسم الكتاب لكني بدلت اسم الكتاب إلى (حياتي) لأنه متوافق أكثر مع موضوع الكتاب. والمؤلف لم يعرض كامل سيرته الذاتية هنا على أن يقوم بعمل جزء ثانٍ للكتاب لكنه على الأغلب لم يفعل، فأصبح هذا الجزء الأول مقتطعاً من كامل سيرته الذاتية. والمؤلف له كتاب "العالم الإسلامي" فيه جانب كبير من حياته وخاصة رحلته إلى تركستان واليابان وكوريا وسنغافورة والهند والحجاز والشام وتركيا وهو مطبوع باللغة العربية عام ٢٠١١م وصورة غلافه بآخر هذا الكتاب.

(٢) رواه البخاري رقم الحديث ٧٥٥١.

بتسويد بعض الأوراق متحدثاً عن نفسي. وبما أن الأمر يتطلب سرد الكثير من التفاصيل إلا أني أجد نفسي عاجزاً عن ذلك؛ لذا فسأكتفي ببعض المعلومات الموجزة.

ولدت في بلدة (تارا) بولاية طبول في ٢٣ نيسان (أبريل) ١٨٥٧م[١] وهو التاريخ الذي سجله والدي في مفكرته. أما عن ذكريات الطفولة، فإنني لا أذكر بالضبط كم كنت أبلغ من العمر عندما انتابني مرض شديد، وكانت أمي رحمها الله تسقيني الشاي الساخن المخلوط بالعسل، وكان شقيقي إبراهيم الذي يكبرني بسنة واحدة في أوج صحته ويقضي نهاره باللعب خارج البيت. وعاد إلى البيت في مساء أحد الأيام وتمدد في فراشه مدعياً المرض وهو يبكي طالباً الشاي والعسل من أمي التي أجابته بالقول: يبدو أنك تمرّضت بعد أن رأيت العسل. وفي ذلك الصباح رأينا إبراهيم وقد فارق الحياة. وقد ندمت والدتي واغتمّت كثيراً، وأثّرت هذه الحادثة المؤلمة على صحتها وتوفيت بعد ذلك على إثر إصابتها بمرض السل. كانت سيدة فاضلة ذات خلق ودين وقضت أربعين عاماً من عمرها في التعليم، وكانت الفتيات في مدينتنا (تارا) يتلقين العلم في المدارس على يد أمي التي يعود إليها الفضل في وجود عدد غير قليل من المتعلمات بين الإناث.

كنت أحب الحيوانات كثيراً وأحب الخروج للعب في الهواء الطلق، وأتذكر قيامي ببعض الحركات التي لم يكن يرضى عنها والدي ويعاقبني عليها بالضرب،

---

(١) الموافق ٢٨/ ٨/ ١٢٧٣هـ.

وكنت ألاحظ بعض الحالات الغريبة على والدي عندما كان يعاقر الخمر، وأحاول الاختفاء من أمامه لكي لا يراني ويصب عليّ جام غضبه، ومع ذلك فإنه في حالات سكره كان يقضي الليالي في المناجاة وقراءة الأدعية، وكان مواظباً على صلاته مهما بلغت درجة سكره، وكان يدعو الله قائلاً: يا ربي إنك غفور وإنك رحيم، وكان يحفظ بعض السور الطويلة من القرآن الكريم ويقرأ سورتي الكهف ويوسف ويأمرنا بحفظ هاتين السورتين. وعندما يغضب نختفي في الغرفة الأخرى من الدار ونبدأ بتلاوة بعض الآيات من المصحف الشريف فيأتي إلينا وقد زال غضبه ويجلس بيننا وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

كنا في عز الشتاء عندما ذهبنا مع الوالد إلى قرية (أووش) التي تبعد ثلاثين ميلاً عن مدينتنا، فأضعنا الطريق بسبب كثافة الثلوج التي سدت علينا المنافذ، وكان والدي يرتدي ملابس خفيفة، وبدأ يؤذن بأعلى صوته، واستمر على ذلك تحت الثلوج المنهمرة بشدة حتى سمعنا أهل قرية قريبة فأسرعوا إلينا وأنقذونا من موت محقق، ولا أنسى صوت والدي وهو يؤذن في تلك الليلة ما حييت.

كنت في سن السابعة عندما أخذني والدي مرة أخرى إلى قرية (أووش) لكي يدخلني في مدرستها الليلية التي كان يديرها معلم اسمه "زين البشر" وأكون أنا التلميذ الليلي الوحيد بعد أن ينفضّ عنها التلاميذ النهاريون بعد المغرب، وتقع المدرسة في الطابق الأرضي من أحد المساجد، وهي عبارة عن غرفة واحدة بطول ثمانية أذرع

وعرض ستة أذرع يأتي إليها التلاميذ صباحاً يحمل كل واحد منهم حزمة من الحطب لغرض التدفئة، وكنت أنا مسؤولا عن إدارة المدرسة نهاراً أيضاً بسبب مرض المعلم الذي لم يكن يمرّ على المدرسة إلا مرة أو مرتين في الأسبوع. وقد أكملنا الدروس خلال فصل الشتاء الذي يمتد ثمانية أشهر، ومع ذلك فإنني لا أتذكر شيئاً مما تعلمته في تلك المدرسة. وعدت إلى (تارا) في موسم الصيف. ولا أدري لماذا لم يدخلني والدي في المدرسة الموجودة في (قلعة تارا) وكان يدرّس فيها أحد مشاهير العلماء ويدعى "داملا رحمت الله أفندي".

ولا أتذكر شيئاً آخر سوى أنني وخلافاً للأصول كنت في مواسم الزكاة أشد عمامة على رأسي وأخرج مدعياً الحاجة لجمع الزكاة من الناس.

و في سنة ١٨٦٧م[١] استطاعت والدتي أن تحصل لي على قبول في مدرسة قرية (ألمن) التابعة لناحية (چيلابي)[٢]. ورغم أنني لا أتذكر من تفاصيل هذه الرحلة سوى أننا عند انطلاقنا من (تارا) كان المؤذن "سفر محمد" يرفع الأذان خلفنا، وفي الطريق سقطت طاقيتي من فوق رأسي وشعرت بلفحة البرد القارس على أذني، كما أتذكر وصولنا إلى قرية (ألمن) ومعنا خلق كثير، وكان يرافقني "محمد قالي بن إدريس حاجي" وصديقي سيد بطال وشاكر من قرية (أوبا) وغيرهما من الطلبة. وكانت (ألمن) قرية

---

(١) بين عامي (١٢٨٣-١٢٨٤)هـ.

(٢) تقع في ولاية جيلابنسك Chelybinsk Oblast شرق ولاية أورينبيرغ، كان غالبية أهلها من أتراك الباشقورت.

فقيرة جداً وتحمل اسم أحد الأشخاص الموسرين، حيث كانت قلة المدارس سبباً في أن يشدّ إليها الطلبة الرحال من مسافات بعيدة. وبالنسبة لي فقد كان فيها بعض الأقارب.

وهنا أود أن أتحدث قليلاً عن مدرسة هذه القرية المسكينة؛ إذ كانت مؤلفة من غرفة واحدة فقط، وكانت القرية مؤلفة من حوالي ثلاثمائة بيت وفي كل بيت غرفة واحدة فقط، باستثناء عشرة منازل بغرفتين في كل منزل. ومع ذلك فان أهالي القرية كانوا كرماء وطيبي القلب ومرحبين بضيوفهم ويحبون العلم والعلماء وطلبة العلم. ومن المدرسين البارزين في هذه المدرسة "عبدالأحد بن عبدالناصر"، وكان أهل القرية يحبونه ويحترمونه كثيراً، كما كانوا يحبون الطلبة ويعتنون بهم قدر الاستطاعة ويقدمون لهم خدمات كثيرة مثل غسل الملابس وإعداد الطعام لهم دون مقابل. وكانت سيدات القرية يفتخرن بالخدمات المجانية التي يقدمنها للطلبة. وعندما توفيت زوجة أحد أهالي القرية حزن الجميع على وفاتها كثيراً وقالوا عنها: إنها بلغت مرتبة الشهادة؛ لكثرة خدماتها ورعايتها للطلبة. وهكذا وجدنا أهل هذه القرية رغم فقرهم قد تحملوا الكثير في رعاية وتربية حوالي خمسمائة طالب في مدارس القرية الخمس.

كانت الغرفة الوحيدة في مدرستنا بطول تسعة أذرع في سبعة أذرع عرضاً، وكنت أستغرب وأقول: كيف يمكن أن تسع هذه الغرفة للأعداد الكبيرة من الطلبة حتى لو وضعنا بعضهم فوق بعض! ولضيق المكان فقد أفرد لنا جار المدرسة فسحة إضافية في داره، يجلس فيها بعض الطلبة. وعندما ينصرف بعض التلاميذ إلى قراهم في

موسم العطلة الصيفية فإن العدد المتبقي من الطلبة يجدون مجالاً أرحب في الجلوس، وعندما تزدحم المدرسة بأعداد كبيرة من الطلاب يقوم الجيران بالمساعدة في توفير المكان لهم عن طيب خاطر، فما أكرم أهل هذه القرية. وقد قام أحد الجيران بالانتقال إلى بيت قريب له لكي يفسح المجال لجلوس طلبة مدرستنا في داره.

لا شك أن ما يدفع أهل هذه القرية إلى تقديم تلك الخدمات عن طيب خاطر كان حبهم للعلم والمعرفة، غير أنه كان لأستاذ المدرسة دور كبير في دفع هؤلاء القرويين إلى حب العلم وطالبيه بدليل أنه بعد وفاة هذا الأستاذ فإن طبائع أهل القرية قد تغيرت كثيراً.

قضيت أربع سنوات في الدراسة في تلك القرية. وذات يوم عام ١٨٧١م وردني خبر وفاة أمي في الرسالة التي كتبها والدي يقول فيها: يا بني انتقلت والدتك إلى رحمة الله، ونهايتي أيضاً قريبة، وأنا أرغب في رؤيتك قبل وفاتي. كنت أعلم أن الرسالة تأخرت كثيراً في الطريق وكانت الرسائل ترسل باليد عندما يصادف الوالد من يوصلها إليّ، ورغم توفر الخدمات البريدية في البلاد فإن تلك الخدمات لم تصل بعد إلى تلك القرية. وقد هزت رسالة الوالد كياني، فأنا لا أزال شاباً يافعاً وبحاجة إلى مواصلة الدراسة، ورأيت أن أستشير أستاذي في موضوع ترك الدراسة والعودة إلى والدي، فشجعني الأستاذ على الذهاب قائلاً: إن طاعة أمر الوالد واجب. وهكذا رتب لي من يرافقني في طريق العودة إلى بلدتي، وانطلقت من القرية.

وخلال ثلاثة أيام قطعت مسافة طويلة حتى وصلت إلى قرية (ايچكين) وقضيت فيها أسبوعاً انتظر لعلي أجد شخصاً يرافقني للوصول إلى بلدتي. وأخيراً وجدت شخصاً من قرية (آقيار) اسمه محمد قالي وقضيت برفقته أسبوعاً آخر في الطريق. وحل موسم ذوبان الثلوج فأصبح الطريق وعراً وموحلاً مما اضطرنا إلى البقاء في إحدى القرى على الطريق ننتظر وصول السفينة التي تمر من هناك وتوصلنا إلى بلدتنا.

أخذوني إلى مدرسة القرية وتعرفت فيها على المدرس الذي كان يعمل قبل ذلك بوظيفة مساعد مدرس في قرية (ألمن) التي درست فيها بعض الوقت، وأخبرت الوالد في رسالة حول مكوثي في هذه القرية بانتظار وصول إحدى السفن التي تأخذنا إلى بلدتنا (تارا)، وانتهزت فرصة وجودي في هذه القرية، وواصلت الدراسة في مدرستها التي كانت أحسن حالاً من سابقتها من حيث البناء والمرافق، وبدا لي أن معظم أهل القرية كانوا من الأغنياء ولم يكن دوام التلاميذ منتظماً وعدد التلاميذ كان في حدود الخمسين أو الستين.

بدأت الزوارق والسفن تصل إلى ميناء القرية الذي كنت أذهب إليه يومياً للاستفسار عن السفينة التي ستتوجه إلى منطقة (تارا)، وكانت سفرات هذه السفن متقطعة وغير منتظمة ولا يوجد موعد معين لوصولها أو إبحارها، وأكثر السفن التي تمر بالميناء كانت مخصصة لنقل البضائع.

تلقيت صدمة أخرى وأنا لازلت أنتظر وصول السفينة التي ستقلني إلى بلدتي؛ إذ تلقيت نبأ وفاة والدي، وحزنت أشد الحزن وأنا أشكو حالي إلى الله تعالى قائلاً: يا ربي إنك أعلم بحالي وأنا فتى صغير أعاني في الغربة يتيم الأبوين ودون مال أو نصير، وكنت أنا في الرابعة عشر من عمري ولم يبقَ لي سوى أخ صغير، ولم يترك لي والدي أي شيء أستعين به في هذه الحياة القاسية، وليس هناك من يرعاني أو يهتم بي وبأخي. هكذا وجدت نفسي حائراً هائماً في الطريق بعيداً عن موطني.

وفجأة تلقيت رسالة من مختار محلتنا "نصر الدين ملا" يقول فيها: يا بني؛ بعد وفاة والدك لم ترثوا شيئاً تعالجون به أموركم، لذلك أرى أن تظل حيث أنت، ولا يوجد هنا أحد يمكنه أن يساعد أخاك ويرعاه؛ لذلك فإنني سأرسله إليك في أقرب فرصة لكي تعيشا حياتكما سوية. فهل يمكن أن أتصور نفسي في موضع أسوأ مما أنا فيه، فأنت المستعان يا إلهي.

بدأت بقضاء الأمسيات باكياً حيث لا أجد ما أقتات به، وتركت أمري إلى الله، ولست من الناس الذين يمدون أيديهم إلى المال الحرام.

وفي أحد الأيام وأنا جالس أفكر في حالي ومصيري، جاء رجل إلى المدرسة يطلب بعض الشبان لمقابلتهم واختيار بعضهم للعمل لديه مقابل ٣٠ كوبك[1] في اليوم، وكان هذا العرض موضع سرورنا نحن الطلبة. وبقيت عنده أسبوعين قبل أن انتقل

---

(١) مائة ١٠٠ كوبك تساوي واحد روبل روسي.

لخدمة شخص آخر، ووفرت مبلغاً بسيطاً واستأنفت الذهاب إلى الميناء أراقب السفن الآتية والمبحرة لعلني أجد أخي قادماً في إحداها.

وكنت على عادتي جالساً أنظر إلى البحر حين وصلت سفينة محملة بالبضائع، ولدهشتي لمحت صبياً في سن العاشرة أو الثانية عشر يخرج من السفينة لابساً سترة حمراء وعلى رأسه طاقية بيضاء وخلفه كلب صغير. وقد تعذر عليَّ أن أتعرف على أخي؛ لأنني كنت قد تركت بلدتي وهو في السادسة من عمره. دمعت عيناي وأنا أنظر إليه وأكاد أفقد توازني واقتربت منه وهو يلاعب الكلب وينظر إليَّ خلسةً فبادرته بالكلام قائلاً: من أنت وما اسمك؟ وحين أجاب: أنا إسماعيل تعانقنا وقبلنا بعضنا والدموع تنهمر من أعيننا وهو يبكي وأنا أبكي معه، وأخذ يسرد عليَّ أخبار بلدتنا، ثم أخذته مع أمتعته وذهبنا إلى المدرسة وكانت خالية؛ لأن الطلبة يعودون عادةً إلى أهاليهم وقراهم في عطلة الصيف والبعض الآخر يقضون العطلة في خدمة بعض الموسرين في هذه المنطقة.

وبقيت مع أخي في إحدى زوايا المدرسة. وبعد أيام قررت مع أخي أن نقوم بخدمة من يحتاج إلينا من أهل القرية لعلنا نستطيع توفير بعض المبالغ لموسم الشتاء، ووجدنا عملاً لدى أحد شيوخ القرية مقابل خمسين كوبك في اليوم، ثم انتقلنا لخدمة شخص آخر، وكان هؤلاء يعاملوننا بلطف ومحبة، وتمكنا من توفير مبلغ لا بأس به نستعين به خلال موسم الشتاء، ولنواصل دراستنا في المدرسة. وهكذا بدأت السنة

الدراسية الجديدة. كان أخي يدرس علم الصرف وأنا أدرس النحو، وكانت المدرسة يعوزها الضبط والنظام ولكننا كنا مضطرين للبقاء فيها؛ لعدم توفر مكان آخر نلتجئ إليه، ولست بحاجة لذكر تفاصيل الحياة التي عشناها؛ لأن الغبن الذي يلحق بالمسلمين تحت حكم الروس معروف لدى الجميع، وهذا هو وضع المدارس كافةً في المنطقة وعلينا أن نتحمله شئنا أم أبينا.

وحل موسم الصيف حيث بدأ الطلبة في الانصراف، كما قررت أنا مع أخي أن نعود إلى بلدتنا (تارا) التي لم يبق فيها أقارب لنا من ناحية والدنا، وإنما كان هناك ثلاثة من أولاد خالتنا، وكانت نساء البلدة ينظرن إلى والدتي باحترام وتعظيم. وفي أول شهر (آيار) مايو من سنة ١٨٧٣م[1] أوصلتنا إحدى السفن إلى (تارا) بعد أربعة عشر يوماً، ونزلنا في بيت خالتنا، وقد أفردوا لنا غرفة نوم ننام فيها، ومعنا عبدالله ابن خالتنا. وكنت أجد نفسي غريباً في بلدتي التي غبت عنها ست سنوات، وكنت أرى الوجوه غريبة عني.

وبعد قضاء شهرين فيها عدت مع أخي إلى المدرسة في (تيومان). وخلال مكوثنا في (تارا) كان أقارب أمي قد قدموا لنا ٢٥ روبلاً هدية منهم، وهذا المبلغ كان يكفينا للصرف على احتياجاتنا في الموسم الدراسي خلال الشتاء.

---

(١) الموافق ٣/ ٣/ ١٢٩٠هـ.

وبعد أن قضينا هناك سنتين، شعرنا بعدها بضحالة المعلومات التي حصلنا عليها والدروس التي تلقيناها؛ فإننا أصبحنا في سن يسمح لنا بالاعتماد على أنفسنا، وكل ما تعلمناه خلال سنتين في مدرسة (تيومان) شعرنا أننا لازلنا جهلاء؛ لذلك قررنا أن نغير مكاننا وننتقل إلى القرى المجاورة. وتمكنا من شراء فرس يساعدنا على الوصول إلى حيث نشاء. ثم اقتضى الأمر الحصول على إذن من ناظر المدرسة الذي رفض طلبنا قائلاً: إلى أين أنتم ذاهبون؟ إنكم لن تجدوا عِلماً في المكان الذي تقصدون الذهاب إليه، فاضطررنا إلى البقاء في المدرسة سنة أخرى ونحن في حيرة من أمرنا. ومع ذلك فقد حصل زميلٌ لنا على إذن بالذهاب إلى (بخارى). فأعدنا الكرة على الناظر نطلب منه الإذن بالمغادرة ورفض مرة أخرى وأصر على الرفض وهو يقول: هل تريدان أن أدعو عليكما فتسوء أموركما؟! وقد تأكد لدي بأن معظم المدرسين التتار يتصفون بصفة الرفض وعدم مساعدة طلبتهم على الاستزادة من العلم، وقد دفعني ذلك إلى الاعتقاد بأن هؤلاء قد ورثوا هذا النوع من الجهل من آبائهم وحافظوا عليه، وكان الناس جميعاً يخشون من أن يدعو عليهم أحد هؤلاء المدرسين؛ لاعتقادهم بأن ذلك سيجلب الشر عليهم، وكأن جبرائيل الأمين عليه السلام قد نشر جناحيه عليه، وهو ينتظر إشارة من الأستاذ لكي يدمر الشخص الذي يدعو عليه.

لقد تأخرنا في فهم هذا الادعاء الباطل الذي كلفنا الكثير من الجهد والوقت، واستطعنا بإصرارنا الحصول على موافقة الناظر على السفر إلى (قازان)[1] للالتحاق بمدرسة (قشقار) المشهورة، وافترق عني أخي ليعود إلى بلدتنا (تارا).

أما أنا فقد توجهت في شباط (فبراير) ١٨٧٧م نحو (قازان) وهكذا بدأت سفرتي المشؤومة هذه؛ إذ كان المسافرون معي من الحمالين الذين كانوا يقضون أوقاتهم في الطريق بالسكر والعربدة، مما كان يحز في نفسي كثيراً. وطالت الرحلة وأفلسوا واضطروا إلى بيع دوابهم الواحدة تلو الأخرى ليصرفوا ثمنها على مأكلهم والخمور التي كانوا يحتسونها في الطريق حتى نفد كل ما لديهم من نقود. ولا أدري كيف عرفوا أنني أحمل معي بعض النقود. جاءوا إليَّ يطلبون مني المساعدة بالحسنى أولاً ثم أخذوا بمضايقتي وتهديدي حتى أخذوا كل ما عندي بما في ذلك ملابسي. وهكذا وصلت إلى بلدة (قشقار)[2] المجاورة لقازان وأنا في أسوأ حال ولا أملك شروى نقير وعارٍ من الملابس، وبقي في جواز سفري مدة شهرين، وأنا لا أعرف أحداً في هذا المكان ولا

---

(١) قازان Kazan عاصمة جمهورية تتارستان الإسلامية (تشترك مع جمهورية باشكيريا في حدودها الشرقية) خضعت للاستعمار الروسي منذ عدة قرون، وحالياً لها حكم ذاتي في الاتحاد الروسي الفيدرالي، وهي مدينة كبيرة تقع عند التقاء نهري الفولجا وقازانكا، كانت مدينة علمية رائدة ومركزاً إسلامياً تخرج منها ودرس فيها الكثير من العلماء المسلمين أمثال شهاب الدين المرجاني، ومحمد مراد رمزي، وموسى جارالله وغيرهم الكثير.

(٢) قشقار قرية صغيرة بالقرب من قازان كانت مشهورة بأغنيائها ومدارسها الكبيرة، وهي ليست المدينة الكبيرة كاشغر (قاشقر) التي كانت مركزاً علمياً والتي تقع في (تركستان الشرقية وعاصمتها أورومچي) والتي مازالت تحت الاحتلال الصيني.

أتوقع وصول أي مساعدة من أي نوع. ونحن في روسيا كنا نلجأ في حالات الشدة إلى أستاذ المدرسة. وهكذا ذهبت إلى ناظر (مدرسة قشقار) "داملا إسماعيل أوتاميشيف"[1] أشكو إليه حالي، فسأل عن جواز سفري الذي أبرزته إليه فقال: إن المدة الباقية فيه قليلة فأفهمته أن أهلي سيرسلون لي جواز سفر جديداً، فقبل عذري مشكوراً. دخلت المدرسة فوجدت فيها بعض الزملاء الذين كانوا معي في المدارس السابقة من بينهم "نظام الدين سيف الله" وقد ساعدني في إيجاد مكان للإقامة فيه مؤقتاً، وكان عدد الطلبة في المدرسة كبيراً، وزودني نظام الدين بفراش وقدم لي الشاي الساخن وشرح لي بعض الأمور المتعلقة بالدراسة وبالمدرسة، وامتد الحديث بيننا خلال السهرة حتى أذان الفجر، ولم أجد بين الطلبة من يهتم بأداء صلاة الفجر. وانفضّ الاجتماع في الثامنة صباحاً، ونمت حوالي ساعة واحدة أيقظني بعدها نظام الدين قائلاً بأنه جرت العادة عند التحاق الطلبة الجدد أن يأكلوا معنا في المطعم الذي يؤمه طلبة كثيرون، ويصبح الطالب الجديد هدفاً لسخرية الطلبة القدماء بعض الوقت لغرض الدعابة فلا تغضب أو تتأثر إذا حدث لك ذلك، ومن الأفضل أن تشاركهم في ضحكهم. وهكذا دخل إلى المطعم ثلاثون أو أربعون طالباً وهم يتسامرون ويضحكون وحدث ضجيج وضرب على الطبل، وجاءني من ينتزع الطاقية من فوق رأسي ويقوم ببعض الحركات بقصد

---

(١) الشيخ العلامة الملا إسماعيل بن موسى المچكروي ثم القشقاري أخذ عن الملا عبدالله المچكروي ثم رحل إلى بخارى وأخذ من علمائها وصار مدرّساً ببعض مدارسها، ثم رجع إلى قشقار وصار إماماً وخطيباً ومدرساً وتخرج عليه كثير من مشاهير العلماء كالشيخ محمد ذاكر بن نور محمد التمتي المكي ناظر تكايا أهل قازان بمكة المكرمة، توفي رحمه الله سنة ١٣٠٥هـ. تلفيق الأخبار.

إضحاك الحاضرين. وكانت تلك من البدع المستحدثة في مدرسة (قشقار) وأصبحت عادة متبعة كجزء من التربية التي يحصل عليها الطالب، ويدوم هذا الوضع مدة أسبوع حتى يستأنس الطالب المستجد مع زملائه في تلك المدرسة. وقد طبقوا عليَّ هذا الأسلوب الغريب بحذافيره واتخذوه وسيلة لتسلية الطلبة والترفيه عنهم، بدليل اشتراك المدرسين معهم. هذا مع قضاء أسبوع آخر يستذكرون ما قام به الطلبة مع القادمين الجدد ثم يقدمون تقريراً بما حدث إلى ناظر المدرسة.

وهكذا مرّ الموسم الدراسي دون رغبة مني بالاهتمام بتحصيل العلم أو الانتظام في الدوام، وقد هدّ الجوع كياني وأثرّ على صحتي ونشاطي.

وحل موسم الصيف حيث جاء وقت المرور على (قازان) والقرى المجاورة لجمع التبرعات الضئيلة التي قد تعيننا على البقاء أحياء وتسديد بعض ديوننا. أما الهاجس الذي كان يقض مضجعي فهو انتهاء مدة جواز سفري وعدم ورود جواز جديد من بلدتي (تارا) لذلك كنت أتحاشى رؤية ناظر المدرسة الذي قد يسألني عن مدة الجواز والجواز الجديد، وقد يهددني بالطرد بسبب ذلك لا لشيء وإنما خوفاً من الروس. وقضيت شهرين آخرين أهيم في القرى المجاورة لقشقار.[1]

---

(١) كانت الحرب الروسية التركية قد اندلعت في الفترة بين (١٨٧٧-١٨٧٨م) وكانت الحكومة الروسية طبقت نظاماً صارماً في التجول خاصة المناطق التي يكثر فيها الأتراك.

لقد لفت نظري بأن مساعدي الناظر وبقية المدرسين أيضاً لم يكونوا مهتمين أبداً بأحوال الطلبة وكيف يعيشون وماذا يعملون، رغم أن كثيراً من هؤلاء المدرسين قضوا أكثر من عشرين عاماً في تلك المدرسة. يدخل المدرس الصف مرة واحدة في اليوم ويخرج دون عودة، وكنت دائماً أفكر وأقول لنفسي: هل إن واجب المدرس يقتصر على حضوره في الصف مرة واحدة يومياً والخروج دون سؤال أو اهتمام بأحوال الطلبة من أمثالي المحرومين من العناية والرعاية ومصادر النفقة؟!

وأقول: أليس من واجب هؤلاء أن يسألوا طلبتهم عن أحوالهم ويساعدوهم على حل مشاكلهم وتقديم النصح والإرشاد لهم وتشجيعهم على الدراسة؟! أضف إلى ذلك عدم انتظام الدوام فضلاً عن التسيّب الذي نلاحظه على المدرسين وعلى ناظر المدرسة داملا إسماعيل الذي لم تكن لديه أي خطة أو برنامج لتحسين أحوال المدرسة وتطوير مدارك الطلاب وتأمين المستقبل لهم.

فالطالب الذي يلتحق بتلك المدرسة عن رغبة وشوق لتحصيل العلم، إذا كان فقيراً معدماً فإنه يعاني من العوز والفاقة ويقع في الوقت نفسه خارج اهتمامات الناظر والمدرسين وأولي الأمر، ومن بين هؤلاء طلبة كثيرون يدرسون بجد وبرغبة جامحة رغم الفقر الشديد الذي يعانون منه. والجانب الوحيد الذي يشكر عليه الناظر والمدرسون هو فتح باب المدرسة على مصراعيه وإتاحتهم الفرصة لاجتماع الطلبة فيها والتقاء بعضهم بالبعض الآخر، ولكن الذي يؤسف له أن بعض الطلبة كانوا يتصفون بسوء

الخلق، مثل التدخين وتعاطي النشوق وإشاعة لعب الورق (اسكامبل) في المدرسة، حتى أننا سمعنا بشيوع اللواط وشرب المسكرات من قبل البعض منهم.

كانت المدرسة عبارة عن أربع قاعات، في كل قاعة عدد من الطلبة، ويلاحظ النفور الشديد وعدم الانسجام والمحبة بين طلبة أي قاعة والقاعات الأخرى، وكان ذلك ناتجاً عن سوء الخلق الذي كان يتصف به كثير منهم، رغم إن ذلك يعتبر عكس ما هو متوقع من طلاب تتارين وأبناء مدرسة واحدة يفترض فيهم أن يكونوا قلباً واحداً ويداً واحدة، وبدلاً من ذلك فإنهم يفترون على رسول الله ﷺ بادعائهم أنه قال: "ستتفرق أمتي...الخ"[1].

في أحد الأيام غلبني الخوف على انتهاء مدة جواز السفر الذي أحمله واستولى هاجس القبض عليَّ وجلبي للخدمة العسكرية، ودفعني ذلك إلى الإسراع للذهاب إلى مركز (قارا دووان) الذي يبعد عن (قشقار) ثلاثين ميلاً للاستفسار عما إذا كانوا قد أرسلوا لي جوازاً جديداً؛ وذلك لعدم وجود مكتب بريد في (قشقار)، وكنت قد استعرت ملابس بعض زملائي عند ذهابي إلى هناك بدلاً من ملابسي الرثة وحذائي الممزق، كما استأجرت فرس "صوقر شريف" ووصلت إلى (قارا دووان) وقابلت

---

(١) قول النبي صلى الله عليه وسلم: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي". وفي بعض الروايات: هي الجماعة. رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

مختار القرية "مفتاح الدين ملا" الذي أعلمني بعدم ورود أي شيء باسمي في البريد، وعدت إلى (قشقار) وأنا خالي الوفاض وفي همّ شديد على ما أكابده من سوء الحال والطالع، وجلست بجانب ترعة تقع على مشارف القرية أفكر وأرثي لحالي، ثم قمت فتوضأت وصليت وجلست ثانيةً أبكي وأنتحب لتعاستي وأقول لنفسي: ما العمل وبماذا أجيب الناظر إذا طلب مني جوازاً جديداً، وماذا أقول لصوقر شريف إذا طلب مني أجرة الفرس الذي استأجرته منه. صعدت الأفكار السوداء إلى رأسي وأنا لا أدري كيف أتصرف، وقررت الذهاب إلى (قازان) وقضيت يوماً كاملاً في الطريق فوصلت مساءً إلى إحدى القرى المسلمة ونزلت ضيفاً على دار مختار القرية، واستأنفت السير صباح اليوم التالي وقضيت في الطريق يومين وها أنا أقترب من (قازان)، ولكني بدأت أفكر أين أضع هذا الفرس وأين أنزل في هذه المدينة بعد الوصول إليها؟ ومن المؤكد أنهم سيسألونني عن جواز سفري، وهذا مما جعلني أتوقف على مسافة حوالي خمسة أميال من (قازان)، وكان الوقت مساءً فجلست على حافة إحدى الغابات وربطت الفرس بشجرة قريبة وتمددت على العشب أفكر في حالي وأنا خائف من هجوم الذئاب عليّ وعلى فرسي. قضيت الليل كله سائراً وخائفاً أفكر في مصيري. وعندما بزغت الشمس قلت لنفسي: دعني أرتاح قليلاً قبل أن أقوم وأواصل سيري إلى (قازان). ولا أدري كم ساعة غفوت، وفتحت عيني لأجد الفرس قد اختفت وقضيت النهار كله أبحث عنها في الغابة دون طائل، وهدني الجوع والعطش وأنا أسير من سيئ إلى أسوأ.

لقد أصبحت عودتي إلى (قشقار) مستحيلة والله تعالى هو الوحيد الذي يعلم بحالي. لقد حل المساء وأظلمت الدنيا والمطر يهطل بغزارة، وأسندت ظهري إلى شجرة ونسيت أن معدتي خاوية وقد استولى عليَّ الرعب عندما كنت أسمع بين حين وآخر همهمة لم أعرف مصدرها إنساناً أم حيواناً. وفجأة لمع بريق شديد أضاء المكان وأجلت النظر حولي فلم أرَ غير الشجرة التي أستند إليها، ولكن ما حيلتي وأنا أقاسي ما أقاسي من الجوع والغربة وأعيش في رعب وأتمنى الموت، ولكن يبدو لي أن في حياتي بقية ولن يأتيني ملك الموت إلا عند انتهاء أجلي الذي قدره الله تعالى لي، وأقول: يا ربي إنك أعلم بما أنا فيه من الكرب، وبكيت حتى جفت الدموع في مقلتيّ.

قضيت ليلة ثانية وأنا في هذه الحال المزرية حتى انبلج الصبح، ولكن إلى أين أتجه وأين الطريق. نهضت بصعوبة وأنا أنظر حولي لأكتشف الطريق فوجدته وبدأت السير. وبعد مسيرة ميلين أو ثلاثة صادفت شخصاً علمت أنه نصراني وكنت أجهل اللغة الروسية، غير أنه فهم مني أنني كنت بحاجة إلى كسرة خبز، فأعطاني بعض الخبز الذي كان معه وهو ينظر إلى وضعي المتدهور من شدة الجوع وشكرته على إحسانه.

وعلى مشارف المدينة شاهدت أشخاصاً يشوون الآجر (القرميد) في كور صغيرة وبينهم بعض التتار، فسألتهم إن كان لديهم عمل يمكنني القيام به مقابل أجر فقالوا: نعم، إن كان لديك جواز سفر، ولما أجبتهم بالنفي قالوا: إذن احذر أن يراك الناس في المدينة، ثم طلبت منهم بعض الطعام حيث أنني لم أذق أي طعام منذ يومين،

وسألوا عن اسمي فقلت: اسمي "شكرت". وعندما سمعوا ذلك رحبوا بي وقدموا لي الخبز واللبن فشبعت والحمد لله، ثم نهضت لمواصلة سيري نحو مدينة (قازان). سألوني عن المكان الذي سأنزل فيه فقلت: ليس لي أي مكان، فأوصاني أحدهم بأن أذهب إلى (مكاريه) وعند وصولي إلى تلك البلدة فقد أجد عندهم عملاً أقوم به، وسألتهم عن مشكلة جواز السفر فأشاروا عليَّ بأن الأشخاص الذين سأقوم بخدمتهم قد يسهلون أمر الحصول على الجواز.

ثم واصلت السير إلى أن بلغت مدينة (قازان) وهي غريبة عني ولا يعرفني فيها أحد. أخذت بالتسكع في أطراف المدينة طول النهار، ثم بدأت أفكر في كيفية قضاء الليل وأين أنزل، فمن المعلوم أنهم سيسألونك عن جواز سفرك في كل مكان، وكنت أرتجف خوفاً كلما شاهدت واحداً من رجال الأمن. وعندما مررت فوق أحد الجسور جاءتني فكرة قضاء الليل تحت ذلك الجسر، وهكذا فعلت ولكن دون أن يغمض لي جفن، وكلما يمر أناس أو عربات فوق الجسر ينتابني الرعب وهكذا انقضى الليل. وفي الصباح قمت وأخذت طريقي نحو الميناء ودخلت إحدى السفن المتجهة إلى (نيزني نوفغورد)[1] حيث كنت أعلم بوجود عدد كبير من المسلمين فيها.

---

(١) نيژني نوفغورد أو (نيجني) أو (غوركي) وتسمى بالتركية (مكرجه بازاري) أو مدينة معرض القديس مكاريا، قامت فيها آخر دول الخانات التركية في القرن السادس الميلادي ١٥٤٠م ويأتيها المسلمون الأتراك من كل أنحاء روسيا للاشتراك في المهرجان الذي يقام بين أواسط تموز (يوليو) وأواخر آب (أغسطس) وكانت فرصة لاجتماع المسلمين كل سنة ولو لفترة قصيرة. وهي مدينة كبيرة على نهر=

أقلعت السفينة في الثامنة صباحاً ووجدت فيها عدداً من المسلمين فأخذت مكاني بينهم، ولكن دون أن تكون معي بطاقة سفر أو نقود فماذا يكون مصيري وأنا على تلك الحالة.

في صباح اليوم التالي اقتربت السفينة من (نيزني) وجاء المفتش يسأل عن بطاقات السفر فصارحته بالوضع الذي أنا فيه فسكت، وأخذ يجيل النظر في الرداء الذي أرتديه فأعطيته إياه وانتهى الأمر.

نزلت من السفينة متجهاً إلى المسجد مباشرةً وأقمت فيه يومين، ثم سألوني عن جواز سفري وعندما علموا بأنني لا أملك الجواز أخرجوني من المسجد، وقضيت يومين آخرين في ضيافة شخص يدعى "شمسي" وتبين لي عدم إمكان الاستقرار في (نيزني) فما العمل ولمن أشكو حالي. إنني لا أعرف أحداً هنا ولا يعرفني فيه أحد، فأخذت أدور في سوق المدينة أطلب عملاً مهما كان نوعه وتعذر عليَّ ذلك بدون جواز سفر.

تركت المدينة وأنا أسير باتجاه خطوط وأعمدة التلغراف وأنا هائم على وجهي وأجهل المكان الذي توصلنا إليه وماذا ينتظرني في البلدة التي سأصل إليها، وهكذا وجدت نفسي أسير على غير هدى مع خط التلغراف وعندما يهدّني التعب أجلس على

=الفولغا في إقليم نيزني نوفغورد (Nizhniy Novgorod) تقع على نفس خط العرض بين قازان وموسكو تقريباً.

جانب الطريق وأغفو قليلاً ثم أستأنف السير. ورغم اعتدال الجو فإن الليالي تمر عليَّ في الطريق وأنا في ظلام دامس وفي خشية من الوحوش البرية، فأقضي الليل ساهراً ثم أنهض وأنا أشعر بالتعب وخواء المعدة وأضطر إلى مواصلة السير بصعوبة شديدة.

وبعد ثلاثة أيام وجدت ترعة على مشارف إحدى القرى، فتوقفت وقررت أن أغتسل في ماء الترعة. شعرت ببعض النشاط ثم توضأت ووقفت أصلي. وقبل أن أكمل أول ركعة شعرت باقتراب خطوات بعض الأشخاص نحوي، فانتابني رعب شديد وأوقفت صلاتي لألتفت لأرى شرطياً واقفاً خلفي وكأنه من زبانية جهنم. لم يداخلني شك بأن أسوأ ما كنت أخشاه قد حصل وأنه لا سبيل للنجاة، وأخذ الشرطي يفتشني ويوجه إليَّ أسئلة وأنا لا أعرف من الروسية سوى كلمات معدودة، فأخذني إلى قرية قريبة وأوقفني فيها وطلب مني نقوداً وأنا لا أملك منها شيئاً ولم أذق أي طعام منذ ثلاثة أيام. وفي الغرفة التي أقفلها عليَّ في القرية استغرقت في نوم عميق.

نهضت من نومي على صوت المفتاح الذي أداروه في باب الغرفة ثم أخذوني إلى حيث سألوني عدة أسئلة مثل من أنت؟ ومن أين أتيت؟ وأسئلة كثيرة أخرى أجبتهم عليها ثم وضعوني في عربة انطلقوا بها إلى حيث لا أدري. وبعد ساعتين ونصف وصلنا إلى بلدة سألت عن اسمها فقالوا: (چاباقار) وأنزلوني في مركز شرطة البلدة وبدأوا بتدوين إفادتي مرة أخرى ثم أدخلوني السجن، وشعرت بخوف شديد عندما أحاط بي رهط من المسجونين في غرفة السجن التي كان فيها حوالي عشرين سجيناً من ذوي

الوجوه الغريبة المخيفة، وكنا دائماً نتخيل أن أبنية السجون تعج دائماً بالقتلة والمجرمين من أنماط مختلفة، رغم أن الذين أحاطوا بي كان من بينهم أناس أبرياء كما اكتشفت فيما بعد.

وزارني نزلاء السجن واحداً بعد الآخر وأطلعوني على بعض المعلومات الضرورية خلال فترة مكوثي في السجن، وسألوني عن موطني الأصلي وسبب وجودي في السجن فأخبرتهم بأن السبب هو عدم حيازتي على جواز سفر، وكانوا يظنون أني متهم بجريمة السرقة.

كان هذا السجن بمثابة مدرسة لي أتعلم فيها أشياء كثيرة، وقد وجدت فيه كثيرين يتصفون بالأخلاق الفاضلة مما جعلني في حيرة من أمري، وقد أطلعوني على نوعية الأسئلة التي قد توجه إليَّ في اليوم التالي من قبل محققي السجن وكيفية الإجابة عليها، وقد أنقذتني هذه المعلومات من البقاء في السجن سنة كاملة.

وعندما حل المساء قدموا لي كسرة من الخبز الأسود، ثم جاء الموظفون لتفتيش المكان والتأكد من عدد المسجونين ووزعوا عدداً منهم على الغرف الأخرى، وبعد ذلك بنصف ساعة بدأ زملائي في الغرفة يلعبون الورق والشطرنج وعينوني حارساً على الباب لمراقبة حراس السجن الذين قد يدخلون إلى الغرفة فجأة، وكنت أنظر إلى الخارج من خلال ثقب صغير في الباب. ومع ذلك فوجئنا بدخول أحد الحراس الذي بادر إلى جمع أوراق اللعب وأخذها معه وخرج. وقد أثار ذلك غضب بعض الزملاء عليّ بينما

انبرى أحدهم للدفاع عني قائلاً: كان علينا أن نلوم أنفسنا أولاً لأننا لم نشرح له ما يجب أن يقوم به بشكل دقيق. وكانت إدارة السجن هناك تمنع المسجونين من ممارسة ألعاب التسلية داخل السجن، ومع ذلك قام الزملاء بإخراج أوراق أخرى بعد خروج الحارس مباشرةً واستأنفوا اللعب مرة أخرى واستمروا في اللعب حتى منتصف الليل وآوى كل واحد إلى مضجعه. حاولت أيضاً أن أنام ولكني بقيت أتقلب على جنبي وتأتيني الأوهام والخيالات السوداء دون أن يغمض لي جفن.

وعند الصباح جاء الحراس وأيقظونا وخرجنا جميعاً، وكان المساجين يتوجهون نحو الباب الرئيسي للسجن ولا أدري سبب ذلك، وكنت واقفاً بإحدى الزوايا في فناء السجن عندما نادوا عليَّ. وعلمت فيما بعد بأن هناك بعض الناس ينتظرون أمام باب السجن لكي يقدموا ما أحضروه من طعام إلى المساجين كالخبز والبيض صدقة يمدّونها من بين قضبان الباب الخارجي وأعطوني بعضاً منها، غير أنني لم أكن أشتهي أي طعام رغم الجوع الشديد، فدفعت حصتي إلى أحد المساجين.

بعد ساعة واحدة أخذني أحد الحراس إلى مركز الشرطة حيث قاموا بأخذ إفادتي مرة أخرى وأعادوني إلى السجن على أن يرسلوني بعد ذلك إلى (قازان). وكان زملائي في السجن قد شرحوا لي هذه الإجراءات عند لقائي بهم أول مرة.

عند عودتي من مركز الشرطة استقبلوني بلهفة وأخذوا يسألونني عما جرى لي هناك فأخبرتهم بالتفاصيل وبقرار نقلي إلى (قازان)، فقالوا: إذن سيرسلونك غداً إلى

(قازان) على ظهر إحدى السفن وسيدخلونك إلى سجن المدينة ولنا زملاء فيه، وذكروا لي بعض الأسماء لكي أبلغهم سلامهم فوعدتهم بذلك.

قضيت ليلة أخرى في ذلك السجن وعند المساء كان السجناء قد بدأوا بقضاء أوقاتهم بلعب الورق كالمعتاد. لاحظت أن واحداً من المساجين لم يكن يشترك معهم في اللّعب وإنما انزوى بعيداً وقد استغرق في التفكير، فاقتربت منه لأتعرف عليه وأقضي معه بعض الوقت. لقد تبين لي أنه رجل طيب ويعرف كثيراً من أسرار السجون وأسدى لي بعض النصائح وقال لي أخيراً: إنك ستشاهد الكثير مما ذكرته لك في سجن (قازان).

عندما انتصف الليل قام الجميع لكي يناموا غير أنني وكما تعودت فارقني النوم وأمضيت الليل مع الخيالات والكوابيس المخيفة.

جاء الصباح وفتحوا باب الغرفة وأخذونا للتعداد في باحة السجن ثم توجهنا نحو الباب الخار-جي لكي نتلقى صدقة الطعام فحصلت على بيضة وكسرة خبز، ثم أخذوني إلى السفينة التي كانت تنتظر في الميناء. لم أكن وحدي في هذه المرة وإنما كان معي بعض المساجين بينهم فتاة في حوالي السادسة عشر من عمرها، ويبدو أنهم أتوا بها من قسم النساء الملحق بالسجن. قادنا عدد من الحراس إلى عنبر مخصص للمساجين تكدس فيه حوالي ثلاثمائة سجين من الرجال والنساء ويحيط بالمكان حاجز من القضبان الحديدية الغليظة. وقلت في نفسي: إذن ها هنا يتجمع القتلة المجرمون ولاحظت أن

أرجل البعض منهم مقيدة بسلاسل حديدية والنصف الأمامي من شعر رأسهم محلوق.

أخذتني الدهشة حينما وجدت نفسي بين هؤلاء المجرمين وتخيلت نفسي عندما أترك السفينة مساءً وأنا محشور بينهم لأدخل معهم السجن في (قازان). في هذه الأثناء اقتربت مني الفتاة التي مرّ ذكرها، وكنت ألاحظ أنها تجيل النظر إليّ بين حين وآخر وقالت لي: إني أعرفك.

فقلت لها: ومن أين تعرفينني؟

فقالت: ألم تكن تدرس في (تيومان)؟ كنت أشاهدك وأنت تمر من أمام نافذة دارنا مرتين أسبوعياً.

إذاً إنها من بلدة (تيومان). وجرى التفاهم بيننا رغم معرفتي القليلة باللغة الروسية، وسألتها: ولكن ما الذي جاء بك إلى هذا المكان؟ فأخذت تشرح لي السبب قائلة: قبل سنتين كنت خارجة إلى النزهة مع صديقة لي وجلسنا في إحدى الحدائق حين اقترب منا شاب جلس إلى جانبنا وعرّفنا بنفسه قائلاً: إنه من بلدة (نيزني) وأعجبت بكلامه اللطيف، وتكرر لقائي معه وتعرّف على والدتي التي لم تمانع في صداقتنا، ودخل حبه في قلبي ودعاني مرة للنزهة خارج المدينة وحدث ما حدث خلال تلك النزهة، وبعد أيام قال لي: إنه عائد إلى بلدة (نيزني) فلم أمانع في الذهاب معه وكنا متفقين على

الزواج، ولكن صغر سني كان حائلاً دون ذلك، وقررت الذهاب معه تاركة رسالة حول نيتي تلك لأمي التي كانت قد انفصلت عن والدي للعيش مع أحد الضباط.

ثم تابعت قائلة: جئنا إلى (نيزني) واستأجرنا فيها غرفة وبقينا فيها أسبوعين، قرر الشاب بعدها الذهاب إلى موسكو للالتحاق بمدرسة الفنون ووعدني بإرسال بعض النفقات، لكنه نكث بوعده وعانيت كثيراً من المتاعب، ولم أكن أدري بأن عليَّ أن أحصل على جواز سفر قبل أن آتي إلى هذه البلدة، وطلبت من والدتي أن ترسل لي جواز سفر فلم تفعل، وهكذا قبضوا عليَّ وأنا الآن أعاني من هذه المشكلة ومسجونة منذ سنتين. قالت ذلك وأجهشت بالبكاء فقلت في نفسي: إنني مسجون منذ يومين وهذه الفتاة مرّ عليها سنتان وهي تقاسي مرارة السجن.

رست الباخرة في ميناء قازان ونزلنا منها، بينما واصلت الفتاة سفرها إلى (تيومان)، وجاء الحراس ليأخذوني ويسلموني إلى سجن المدينة.

في الطريق إلى السجن كنت أخشي أن يراني أحد ممن يعرفوني وكنت أحني رأسي كلما مررت بأحد الأشخاص في الشارع. وصلنا إلى السجن مع غروب الشمس، وهو سجن كبير يعيش فيه أكثر من ألف سجين، وكان عددنا ٢٨ سجيناً. قرأوا أسمائنا وأدخلونا إلى أحد العنابر الذي كان يقبع فيه إضافة إلى القادمين الجدد أكثر من مائة شخص. ومن الغريب أنهم كانوا جميعاً في هرج ومرج فرحين وكأنهم يحضرون إحدى الحفلات الصاخبة وكنت الوحيد الذي أعاني من الهمّ والغمّ الشديدين . ظلوا في

صخبهم وضجيجهم وهم يغنّون ويتندرون أو يلعبون القمار حتى منتصف الليل، وكانوا يشجعونني على الاشتراك معهم في الصخب واللعب ولكني كنت في شغل شاغل أحاول الابتعاد عنهم. وهكذا قضيت تلك الليلة في سجن (قازان)، ونمت حوالي ساعتين قبل الفجر حيث فتحت الأبواب وجرى تعداد المساجين وخرجنا إلى باحة السجن.

وكما حدث في سجن (چاباقار) فقد بدأ السجناء باستلام صدقة الطعام التي يأتي بها أهل المدينة ويسلمونها إلى الحراس الذين يدفعون إلينا حصتنا منها. ويبدو أن هذه عادة متبعة في جميع أنحاء روسيا، حيث يعيش المساجين على الصدقات ويدخر الكثيرون منهم الإعانة النقدية التي تدفعها الحكومة إليهم البالغة تسعة كوبك في اليوم بينما يصرفها البعض الآخر على لعب القمار داخل السجن، وكميات الطعام التي يتصدق بها الناس على السجناء ليست قليلة.

وفي فناء السجن كنت أشاهد كل اثنين أو ثلاثة من السجناء يسيرون معاً ويتحادثون، بينما كنت أركن إلى إحدى الزوايا متفكراً في حالي ومصيري في داخل هذا السجن وما ينتظرني من مصير مظلم. ويضاعف حزني ما أشاهده من سجناء وهم يجرّون سلاسل الحديد المشدودة إلى أرجلهم. وعندما التقت عيناي بالشرفة العليا للسجن شاهدت شخصاً جالساً فيها وهو يرتشف الشاي وتجلس بجانبه سيدة،

فسألت أحد زملائي في الغرفة فأجاب بأن ذلك الشخص هو "مرتضى بيك قشقار "[1]، وشعرت ببعض السلوى عندما علمت بأن شخصاً ثرياً ومعروفاً مثله أيضاً من نزلاء هذا السجن، فلماذا أخجل أنا من وجودي في السجن خصوصاً وأني لم أسرق ولم أرتكب جريمة.

لقد علمت بعد فترة طويلة أن مرتضى بيك الذي كان في يوم ما من أكبر أغنياء مدينة (قازان) وأشرافها أفلس وحكم عليه بالسجن عشرين عاماً فقضى بقية حياته في فقر وعوز، وعند وفاته جمع له بعض الناس نفقات الدفن، فيا ربنا احفظنا من شرور أنفسنا.

وقد صادفت في هذا السجن حالات مشابهة أخرى. فمثلاً كان يوجد في السجن إمام مسجد إحدى القرى لا يحضرني اسمه. والخلاصة إنني تعلمت خلال خمسة أيام قضيتها في هذا السجن دروساً وعبراً لا يمكن تعلمها في مكان آخر في خمس سنوات. والواقع إن السجون تقوم مقام المدارس في حصول الناس على كثير من

---

(١) مرتضى بن مصطفى بن نذير بن بايزيد بن عثمان بن عبدالقادر القشقاري، كان من الأثرياء لكنه أفرط ووقع في الديون وسجن في ٢٥ صفر عام ١٢٩٤هـ وانقطع نسبه. وكان والد جدّه بايزيد هو الذي بنى مسجد قشقار في عام ١١٩٠هـ وبعد وفاته تعهد ابنه نذير المسجد مع حفيده موسى، ثم تعهده مرتضى وقام بعمل توسعة بالمسجد وتحسين منارته في عام ١٢٨٢هـ.

المعلومات التي يتعذر الحصول عليها خارجها. وقد شرحت ذلك بالتفصيل في كتابي الذي سميته (أسرار السجون)[1]. وفي هذا السجن قابلت عدداً من المشاهير.

وأثناء الأيام الخمسة التي قضيتها في هذا السجن تكررت عمليات التفتيش وتدوين الإفادات، فقرّروا بعدها إخراجي من السجن وإبعادي إلى مسقط رأسي بلدة (تارا).

بدأت الاستعداد للسفر مع عدد آخر من المساجين، وحضر أمامنا حوالي ثلاثون حارساً أخذوا ينادون علينا واحداً بعد الآخر، وكان عددنا يربو على المائة. شاهدنا حشداً كبيراً من الأهالي ينتظرون أمام بوابة السجن بينهم عدد من أقرباء ومعارف بعض المساجين حضروا لمرافقتهم إلى الميناء حيث تنتظرنا هناك السفينة التي يدخلوننا فيها، وحضر كثير من الأشخاص لدفع بعض الصدقات من نقود وطعام إلى المساجين.

وصلنا إلى السفينة وكانت نفس السفينة التي أوصلتنا إلى (قازان) قبل أيام وحشرونا في نفس القفص الحديدي الذي سبق وصفه، وكان عدد الموجودين فيه يزيد على خمسمائة شخص بينهم مسلمون ونصارى من أنحاء روسيا المختلفة. وأبحرت السفينة بعد انتظار ثلاث ساعات، وكان الوضع داخل عنبر السفينة يحاكي يوم الحشر،

---

(١) (حبسخانه اسراری) لم أقف عليه ولم يذكر أحد من الباحثين أنه وقف عليه أيضاً، وقد ذكرت أسماء بعض مؤلفات في سيرته أول هذا الكتاب، والله أعلم.

وساد الهرج والمرج وبينهم أناس يبكون وينتحبون وآخرون يتسامرون ويضحكون وغيرهم يرفعون عقيرتهم بالغناء.

تجمعت في المكان ألسنة كثيرة من التركية والتتارية والروسية ولغات أخرى ولهجات متعددة، وكنت أراقب هذا الجمع الغريب وأنا في حيرة من أمري. مرت ساعة واحدة فلفت نظري شيخٌ ذو لحية بيضاء يقترب مني ويسلم عليّ، فرددت عليه السلام وبدأ يسألني من أنا؟ وما الذي جاء بي إلى هذا المكان؟ لم أستطع الإجابة وأجهشت بالبكاء وبدأ ينصحني قائلاً: يا بني إنك شاب في سن التلمذة كما أرى، ألم تقرأ أو تسمع بأن نبي الله يوسف عليه السلام دخل السجن، ألا تعرف كم من الأئمة الكرام سجنوا؟ فلا تحزن يا بني؛ فإن كل هذه الأوضاع هي دروس لك ستفيدك في بناء مستقبلك، وخذ العبرة مني فأنت تراني وقد ابيض شعري وأنا قابع في السجن.

أيقظني هذا الكلام من غفوتي وبدأت أسأله من يكون؟ ومن أي بلد؟ فقال: أنا من بلدة (نيزني) واسمي "عين الله ملا" وسأذكر لك سبب وجودي في هذا المكان - وتابع قائلاً-: جاءني شخص يطلب مني معلومات عن الدين الإسلامي فشرحت له أركان الإسلام، وتكرر حضوره عندي وأنا أشرح له كل ما يتعلق بالدين الحنيف، وتعلم مني الكثير ثم غادرني ولم يعد مرة أخرى ولم أعلم عنه أو عن مكانه شيئاً، وبعد فترة جاءني رجل الأمن فاصطحبني إلى مركز الشرطة، وهناك أخذوا يمطرونني

بالأسئلة عن هذا الشخص الذي علمته أركان الإسلام، من هو؟ وأين يسكن؟ وماذا تعرف عنه؟

أجبتهم بصدق أنني لا أعرف اسمه ومن أي بلد هو وأين يسكن، فلم يصدقوني وهكذا حكموا عليّ بالسجن أربع سنوات قضيتها في سجن (فاستروك)، وهذا هو يومي الأخير في السجن بعد أن أكملت تلك السنوات الأربع، وأكمل كلامه والدموع تملأ مآقيه.

وصلت سفينتنا إلى (چيسطاي) في اليوم التالي وتوقفت لمدة ساعتين انضم إلينا خلالها عدد آخر من المساجين، وهكذا كانوا يأتون بمساجين آخرين كلما توقفنا في مكان ما حتى بلغ عددنا حوالي ستمائة شخص.

وفي نهاية شهر أغسطس من سنة ١٨٧٨م[١] أنزلونا وأدخلونا إلى سجن بلدة (بيرمي)[٢] الذي مكثنا فيه ثلاثة أيام.

---

(١) أوائل رمضان سنة ١٢٩٥هـ.

(٢) بيرمي مدينة كبيرة الآن، وهي إحدى مدن الوحدة الإدارية (بيرم كراي Perm Krai) في الكيان الفدرالي الروسي وكراي أكبر من إقليم (أوبلاست) وأصغر من جمهورية. تقع على سفح سلسلة جبال الاورال وهي المركز الاداري والثقافي والعلمي والصناعي واللوجستي لبيرم كراي، يوجد في المدينة ميناءان: بيرم وليوفشينو اللذان يربطان المدينة بخمسة بحار هي: البلطيق والأبيض والأسود وازوف وقزوين.

شاهدت فيه وجوهاً جديدة وأصبح لدي إلمام بسيط باللغة الروسية وتعلمت فيه بعض الأسرار الأخرى عن السجون. كنت قبلاً أحسب أن كل الموجودين في السجون من القتلة والمجرمين الخطرين، وتبين لي فيما بعد أن هؤلاء المساجين ينقسمون إلى عدة أقسام، بل يوجد بينهم أناس أبرياء لم يرتكبوا ذنباً من أمثال الشيخ الذي كان ينام بالقرب مني، كنت ألاحظ حركاته أثناء النهار ولم يدر بخلدي أنه مسلم، وشاهدته في إحدى الليالي ينهض من فراشه ويتمتم ثم بدأ بقراءة القرآن الكريم، فقرأ سورة يوسف ويعيد قراءتها، ثم بدأ بتلاوة الأدعية. وأصغيت إليه مندهشاً؛ إذ لم أرَ في حياتي من يحفظ هذا القدر من الأدعية ويتلوها، وقلت في نفسي حتى أساتذة مدارسنا يندر بينهم من يعرف هذه الأدعية أو يقرأها بمثل هذا الوضوح والدقّة.

عندما يبدؤون بدراسة علم الصرف في مدارسنا يقولون: "الدعاء بلفظ العربية مقرون بالإجابة"، معتقدين أن هذه الجملة كافية لتعريف الدعاء وإسكات السائلين عنه بينما يجهلون تماماً معنى الدعاء نفسه، وكان هذا الشيخ يتلو الأدعية التي يحفظها بصوت جهوري حزين، واستمر على ذلك حتى انبلاج الصبح.

ذهبت إليه بعد التعداد أعرفه بنفسي وسلّمت عليه فرد عليّ السلام وقضيت معه بعض الوقت. أخذ يسدي إليّ بعض النصائح فأسفت كثيراً لجهلي باللغة الروسية التي كان يتكلم بها، وكان يعرف اللغة العربية أيضاً، بينما أنا أجهل اللغتين عدا كلمات

وجملاً قليلة من اللغة الروسية. لم أعرف موطنه ولا أدري لماذا كنت أظنه من بلاد القوقاز، وبقيت على هذا الظن إلى أن افترقنا.

كان في الحبس مجرمون سياسيون أيضاً ولكنني لم أستطع الاطلاع على أحوالهم. وتهيأت للسفر من (بيرمي) حيث أنهم أعلمونا مساءً بأننا سنتحرك نحو مدينة (تيومان) في صباح اليوم الثاني.

وعند الصباح بدأوا بالمناداة على الأشخاص، وقد جذب انتباهي أن الحارس عندما نادى على اسم "آلبرت" تقدم حارس آخر وهو يدفع أمامه رجلاً شركسياً اسمه" علي بيك" وكرر الحارس الاسم مضيفاً له اسم العائلة. ومن الغريب أن هذا الشخص المدعو علي بيك اقتيد إلى الخارج بدلا من آلبرت ولم ينتبه إلى ذلك الخطأ حتى الشخص الذي كان ينادي الأسماء، وعلي بيك نفسه كان يجهل اللغة الروسية. وهكذا انتهت المناداة على الأسماء واستعد حوالي مائة شخص للسفر إلى (تيومان). ولعدم وجود خط حديدي بين بيرمي وتيومان في ذلك الوقت فقد وضعوا كل ستة أشخاص داخل إحدى العربات وأيدي الجميع مشدودة إلى بعضها بسلسلة حديدية واحدة وانطلقت بنا العربات.

هنا بدأت مشكلتي الحقيقية، فعند طلب الذهاب لقضاء الحاجة، يدخل أحدنا إلى الخلاء تحت سمع وبصر الخمسة الآخرين الموجودين معه؛ لأنهم مشدودون إلى بعضهم بسلسلة واحدة، لذلك أضطر إلى الانتظار حتى المساء لأقضي حاجتي في المكان

الذي نقضي فيه ليلتنا. وبعد التعداد الليلي كانوا يدفعون لكل واحد منا تسعة كوابك بدل الطعام.

وفي اليوم السادس من رحلتنا وصلنا إلى (يكا تيرينبيرغ)[1] ونزلنا في سجنها حيث قضينا فيه مدة أسبوع، ثم استأنفنا السير فوصلنا إلى (تيومان) ودخلنا السجن الموجود فيها.

شاهدت هنا علي بيك الذي أتوا به إلى هنا بدلاً من آلبرت كما ذكرت سابقاً، وأمضينا هنا أسبوعا آخر، رأيت علي بيك يستعين ببعض كُتَّاب العرائض ووكلاء المحامين الذين انتشروا بين السجناء لكي يثبت أنه شخص مسلم وليس آلبرت؛ إذ أن مثل هذا الاسم ليس موجوداً بين المسلمين ولم أعرف نتيجة ما آل إليه أمره.

بعد أسبوع واحد سفّرونا إلى (تارا)، وخلال مكوثنا في تيومان كنت قد طلبت من أقاربي برسالة أن يكفلوني حتى يفرج عني وأذهب باختياري إلى المكان الذي يطلبونه مني في (تارا) غير أني لم أتلقَّ أي جواب على طلبي. وأعتقد أن عدم إجابتهم لم تكن بسبب نفورهم مني وإنما بسبب جهلهم بأصول تنظيم الكفالة وعدم معرفتهم بالمراجع التي ينبغي تقديم الطلب إليها وغير ذلك من التعقيدات التي قد يصادفونها.

---

(١) ييكاتيرينبيرغ Yekaterinburg مدينة كبيرة إحدى مدن إقليم (سفيردلوفسك Sverdlovsk) تقع إلى شرق مدينة بيرمي شرق جبال الأورال على نهر إيسيت Iset وهي مدينة ثقافية وصناعية مهمة.

وقد يكون السبب ظنهم بأنني متهم بجريمة كبيرة؛ لذا فضلوا أن ينأوا بأنفسهم عنها. ومن المعلوم أن شعب التتار الموجودين ضمن الحدود الروسية هم أناس أصفياء القلوب وبعيدون عن الإساءة ويجهلون القوانين ولا يعرفون شيئاً عن الحكومة وأعمالها.

تحركنا من (تيومان) قاصدين (تارا) سيراً على الأقدام على الشارع العام الرئيسي، وهنا بدأت المشكلة الكبرى؛ إذ تقع بلدة (تارا) على بعد أربعين يوماً سيراً على الأقدام وينتظرنا برد الشتاء القارس وملابسي الرثة لا تفي بالمرام وأنا حافي القدمين، وأخبروني زملائي المساجين أن بعضاً من المجرمين العتاة قد اتفقوا فيما بينهم على أن ينقلوا إلى السلسلة الحديدية المشدودة على رجلي أحد القتلة، ومن حسن حظي أن اثنين من الحراس المسلمين حالا دون تحقيق فعلتهم، ولولا حمايتهما لي فقد كان من المحتمل أن يلصقوا بي تهمة القتل.

إن هذه الحادثة جعلتني أشعر برعب شديد وأقضي الليل ساهراً ولا أجد شيئاً أقتات به، وقد قضيت الشهرين الأخيرين مقتصراً في يومي على كسرة من الخبز وبعض اللبن، وتمر في مخيلتي بعض الأفكار السوداء والخيالات الغريبة التي تقربني من الجنون الحقيقي.

بدأت أيام الشتاء الباردة وكلما تقدمنا قليلاً نحو(تارا) تزداد برودة الجو وتسقط الثلوج، وكنت أمشي على الثلج حافي القدمين، وبين الحين والآخر أقف

وأجلس على جانب الطريق فيأتي الحارس ويرفعني ويحثني على السير، وهكذا فإن ما عانيته في هذا الطريق يفوق الوصف.

وأخيراً اقتربنا من(تارا) وادّعى الحراس أن الأجور اليومية المخصصة لنا على وشك النفاد، فقاموا بتخفيض الأجور اليومية المخصصة لنا من تسعة كوابك إلى خمسة.

وصلنا إلى (تارا) فاستقبلني فيها زوج خالتي نصرالدين ملا وابن عمي "أحمدي" واستلموني من مركز للشرطة. كنت أشعر بالخجل الشديد أمامهم وأمام الناس جميعاً وأنا في وضعي المزري وهم يحاولون تسليتي والتخفيف عني دون طائل. وذات يوم وأنا على هذا الحال جاءني شخص يدعى "سلمان ملا" وكان من الرجال الأحرار المتنورين في بلدتنا وقال لي: إن لديه رسالة تخصني، ثم أخذني إلى مختار المنطقة وهناك سلمني رسالة كانت مرسلة من قبل ناظر مدرستي داملا إسماعيل يذكر فيها أنني هربت من (قشقار) وضمّنها الكثير من كلمات التهويل والمبالغة، وفي داخل الرسالة وجدت جواز سفري القديم.

وهنا تبين لي أن كل ما قاسيته وعانيته كان بسبب جهل هذا الناظر الذي لم يبادر إلى حماية أحد تلاميذه بل خاف بسبب انتهاء مدة جواز سفري، وكان باستطاعته أن يجيب الدوائر الحكومية إذا سألوه حول جوازي بأنني طالب علم عنده وهو يعرفني وهويتي معروفة كما هي مدونة في الجواز القديم، كذلك كان باستطاعته أن يكفلني لحين الحصول على جواز جديد، ولكنه لم يفعل سامحه الله.

بعد وصولي إلى (تارا) بأسبوع أصابتني حمى شديدة جعلتني طريح الفراش وأنا غائب عن وعيي وعلى حافة الموت، كما أخبرتني خالتي بعدئذ، ومرّ شهر كامل قبل أن استرد عافيتي إلا أنني لازلت مغتماً حزيناً وأتحاشى مواجهة الناس خجلاً وأفكر في مصيري القاتم.

وفي هذه الأثناء علمت أن قافلة من التجار ستتوجه إلى(إيشم)[1] وبينهم أحد معارفنا وهو "عبدالوهاب باي" فلما أبلغته برغبتي في مرافقتهم قبل ذلك، وعندما أخبرت خالتي برغبتي في السفر إلى (إيشم) بقصد الدراسة أجهشت بالبكاء وتمتمت ببعض الأدعية، كما أن زوجها لم يجد مانعاً من سفري، فانطلقت مع القافلة قاصداً (إيشم) في جو شتوي بارد وأنا أرتدي ملابس خفيفة لا تقي من البرد ونقضي الليالي في الطريق ساهرين.

وصلنا (إيشم) وقضيت فيها يومين وأنا أفكر وأقول لنفسي ما العمل الآن ؟ وأين أذهب؟ وأنا لا أحمل أي مبلغ من المال، ولا يوجد في هذه البلدة من ألجأ إليه أو يسدي إليَّ النصح، وأخيراً قررت مغادرة البلدة ولكن إلى أين؟ إنني شخص أجهل وجهتي، ومع ذلك تركت البلدة مشياً على الأقدام وباتجاه أعمدة وخطوط التلغراف، فحلَّ المساء وأنا ماشٍ في ظلمة الليل ومستمر في السير والقمر يسطع في السماء الصافية.

---

(١) إيشم Ishim مدينة صغيرة تقع في جنوب إقليم تيومان أقرب إلى الحدود الكازاخستانية كانت لها أهمية تجارية قديماً.

وكنت أمشي على وسادة من الثلج الناصع البياض وأجهش في البكاء أحياناً عندما أتذكر سوء الطالع والنحس الذي ظل يلازمني طيلة هذه المدة ولكنني لا زلت دائباً على السير في هدأة الليل، والله سبحانه وتعالى هو الوحيد العالم بحالي، فلست أدري أين وجهتي ولكنني لازلت سائراً على الطريق مدة عشرين ساعة. وأخيراً وصلت إلى قرية روسية ورأيت فيها بعض الناس يتناولون طعام الفطور وأمامهم أقداح الشاي فقدموا لي قدحاً منه، وغفوت وغلبني سلطان النوم، ثم استيقظت بعد خمس ساعات وغادرت المكان بعد أن دفعت لصاحب الدار عشرين كوبكاً.

استأنفت السير باتجاه أعمدة التلغراف، وهبط الظلام ولكن القمر كان يسطع فوق رأسي وأنا سائر في طريقي وحيداً، وبعد حوالي خمس ساعات شعرت بوجود بعض المارة، اقترب مني أحدهم وسألني باللغة الروسية من أنت؟ فأجبته إنني طالب علم مسلم، وعاد يسألني باللغة التتارية عن المكان الذي أتيت منه، وسألتهم أنا عن وجهتهم فقالوا: نحن ذاهبون إلى (بتروباول)[1]، ودعاني أحدهم إلى ركوب دابته. وبعد ساعة واحدة وصلنا إلى قرية روسية ارتشفنا فيها قدحاً من الشاي.

---

(١) بتروپاول Petropavl مدينة في جمهورية كازاخستان المستقلة (قازاقستان Kazakstan)، وهي عاصمة ولاية شمال كازاخستان، تقع على نهر إيشم وتبعد عن مدينة أومسك حوالي ٢٦٠ كم وعن عاصمة البلاد آستانا حوالي ٤٥٠ كم.

وفي صباح اليوم التالي بلغنا بلدة (قيزيل يار)[1] التابعة (لبتروباول) واستضافني الرجل في داره وقدم لي الطعام والشاي وصلينا سوية في مسجد يقع في حي (چالا قازاق)، وأخذني إلى داره مرة أخرى حيث أكرمني كثيراً، ثم افترقنا لكي أسجل نفسي في إحدى المدارس ورجاني أن أمر عليه في داره طيلة المدة التي أقيم فيها في تلك البلدة، وقال: إنه سيسر إذا رآني مساء كل جمعة من كل أسبوع فوعدته بذلك، شاكراً فضله. إلا أنه لم تسمح الظروف لي بذلك؛ لأني عندما راجعت المدرسة شاهدت فيها أناساً تعرفوا عليّ ففضلت أن أتحاشى الظهور أمامهم بعد المصائب التي صادفتني، ورجحت الذهاب إلى مكان لا يعرفني فيه أحد فتركت البلدة سائراً على قدمي باتجاه خطوط التلغراف كما كنت أفعل سابقاً.

لا أزال أجهل المكان الجديد الذي أقصده، وعند مروري بإحدى المقابر تأوهت كثيراً ودعوت الله أن يفرج عني كربتي، وقرأت بعض الآيات الكريمة واستأنفت السير على طريق ضيق في منطقة صحراوية مستوية مغطاة بالثلوج، وقد اختفى القمر خلف السحاب ويصعب على المرء أن يتبين بوضوح معالم الطريق. إلا أن أعمدة التلغراف كانت ترشدني إلى الطريق. لابد أن يؤدي الطريق إلى بلدة أو مدينة ما.

---

(١) قيزيل يار هي الآن محافظة كزليار (Kyzylzhar) تقع في شمال ولاية شمال كازاخستان شمال مدينة بتروباول تبعد عن مدينة أومسك ٣٥٠ كم، وكانت مدينة لها أهمية تجارية في سيبيريا، وكان غالبية سكانها من المسلمين قدموا إليها من قازان وقاسم خان وبنزة وأوفا وكوّنوا هذه المدينة ثم استوطن معهم القازاق، وكان بها العديد من المدارس والمساجد.

وعندما قرأت الرقم (١٤٤) على أحد أعمدة التلغراف قلت في نفسي لابد أني مررت بإحدى القرى ولم أنتبه إليها، وسمعت نباح الكلاب غير أني لم أصادف أي شخص أو مسكن على طريقي. بدأت أدقق في الأرقام على الأعمدة التي أمر بها على طريقي من غير أن أتوصل لشيء، واستولى عليَّ الخوف عندما رأيت شبحاً يقترب مني ولا أعرف ما هو كنهه وكنت ألاحظ حركته، وازددت حيرة كلما اقترب مني أكثر، وفجأة وجدت أمامي ما يشبه شكل حيوان غريب، ولكنه ليس حصاناً أو بقرة، ولم يكن يشبه الرسوم التي كنا نتفرج عليها في المدرسة، ورأيت شخصاً يعتلي ظهر ذلك الحيوان الغريب.

لقد كان الخوف قد استولى على نفسي والظلام الدامس يجسد شكل ذلك المخلوق الذي كان يشبه شيطاناً رجيماً ويشكل كابوساً رهيباً من النوع الذي نشاهده في الرؤى والأحلام المخيفة.

وبينما أنا غارق في تلك الحالة التعسة، بدأ الراكب بالكلام باللغة الروسية التي فهمت منها بعض الكلمات، وعلمت منه أنه قازاقي من (قرغيزيا)[1] والحيوان الذي

---

(١) القازاق هم مجموعة من القبائل التركية وهم أصل الترك والتتار (وقيل: إن أصلهم قيرغيز) كانت تعيش تحت لواء الأوزبيك (أوزبيك خانليكه) ثم تمردت تلك الجماعة وانفصلت عنهم عندما كان شيباني خان مشغولاً في حروبه نحو الجنوب وسموا أنفسهم قازاق. وبعد ذلك تشكل مسمى قازاق أي بعد القرن الخامس عشر الميلادي تقريباً. والقازاق أرضهم (برية القازاق) جميع أراضي تركستان والتتارستان والآن يعيشون في دولة (جمهورية قازاقستان أو كازاخستان Kazakhstan) المستقلة وهي دولة شاسعة عاصمتها آستانا.=

يمتطيه هو جمل، وأخبرني بأنه في هذه الصحراء يوجد في نهاية كل ٢٠ أو ٢٥ ميلاً منزلٌ لاستراحة المسافرين وأن هذه المنازل مغطاة بالثلوج في هذا الموسم ويتعذر رؤيتها ليلاً. وأضاف قائلاً: إنك بعد قطع سبعة أميال أخرى ستصل إلى بلدة (كوكچه طاو)[1] وبعدها إلى (آط بازار)[2] فارتحت لكلامه هذا وشكرته عليه، إذ تأكدت بأنني على مسافة قريبة من بلدة لا يعرفني فيها أحد ويمكنني الإقامة فيها ومواصلة دراستي في مدارسها، وعندما افترقنا تمنيت للرجل القازاقي سفرة سعيدة، واستأنفت السير.

مرّت ساعة فسمعت نباح الكلاب، وكنت أشعر بالتعب الشديد وتصلبت قدماي من المشي طيلة هذه المدة، صار عندي إحساس بوجود بعض المنازل على جانبي الطريق إلا أني خشيت أن أحيد عن الطريق الذي أسير عليه فتضيع علي الوجهة التي

=وسهول قازاقستان (برية القازاق) في التاريخ منذ القدم كانت تسمي سهول القبچاق (القبچق أو القفچق) وهي قبيلة تركية من أقدم القبائل ومن ثم دولة القبچاق (قبچاق خانليكه) وبعد دولة جنكيز كانت ضمن أراضي الألتون أورده (القبيلة الذهبية) التي حكمها وكان سلطانها السلطان أوزبيك خان وينحدر منها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس.

أما أراضي القرغيز في الأصل جبال آلاطاغ (ألطاي) الشهيرة وليست الأراضي الحالية (جمهورية قرغيزستان Kyrgyzstan) وإنما ديارهم في الأصل في مناطق جنوب شرق سيبيريا ثم هاجروا إلى قرغيزستان الحالية، وهي قبيلة كبيرة من قبائل الترك. علماً أن جميع هذه القبائل المذكورة مسلمة.

(١) كوكچه طاو Kokshetau مدينة صغيرة في ولاية أقمولا Akmola (آق ملّا: وتعني الشيخ الأبيض) شمال كازاخستان إلى الجنوب من ولاية (شمال كازاخستان) والتي عاصمتها بتروباول، وهي عاصمة الولاية تقع جنوب مدينة بتروباول وشمال عاصمة البلاد آستانا على بعد ٣٠٠ كم تقريباً.

(٢) آط بازار Atbasar مدينة صغيرة في ولاية أقمولا جنوب مدينة كوكچه طاو على بعد ٢٠٠ كم تقريباً منها، ومعناها (سوق الخيل).

أقصدها، إلا أن ما كنت أشعر به وأعانيه من تعب دفعني إلى المجازفة والخروج عن الطريق لأصل إلى الجهة التي يصدر منها نباح الكلاب.

رأيت ناراً موقدة عن بعد فذهبت إليها، فاستقبلني شخص كان ينادي عليّ ويسألني من أنت؟ فأجبته: أنا شخص غريب وضيف عندكم. فأجابني بكلام لطيف وقادني إلى داخل الكوخ الذي وجدت فيه بعض الرجال والنساء تدل ملابسهم وسيماهم على أنهم من الروس ولكنهم يتكلمون اللغة التتارية، فحييتهم باللغة الروسية قائلاً: دراستي، فسألوني عن هويتي ووجهتي وأشاروا إلى المكان الذي أرتاح فيه. وعند جلوسي فيه رحت في سبات عميق؛ إذ كنت متعباً بدرجة لا توصف.

وعندما حلّ الصباح نهض الجميع وأيقظوني وأنا لا أزال أشعر بتعب شديد. بادرتهم بالسؤال عن المسافة الباقية للوصول إلى (قيزيل يار) فقالوا: خمسين ميلاً وهكذا قدرت المسافة الطويلة التي قطعتها وقدرت بأنني مررت بمنزل آخر للاستراحة في طريقي دون الانتباه إليه.

نهضت صباحاً على صوت جلبة وصخب في المكان ولاحظت أن الوقت لازال مبكراً ولم يحن وقت الفجر بعد، وسألت عن سبب نهوضهم مبكرين فقالوا: إن بعض النزلاء عليهم أن يحضروا في أماكن عملهم بعد الفجر مباشرةً. أحضروا أباريق الشاي وجلسوا لتناول الإفطار ولاحظت أيضاً أن واحداً منهم فقط بدأ إفطاره بقراءة البسملة. فقدرت أنه المسلم الوحيد بينهم، وكانوا جميعاً يتحادثون باللغة التتارية.

وعلمت أن صاحب الكوخ المسئول عن بريد المنطقة من "القازاق الدون"، ويقوم بخدمة المسافرين عدد من المسلمين من أهل قرغيزيا.

وبما أن العنصر السائد في تلك الأصقاع من القازاق فإن "القازاق الدون"[1] يقلدونهم في العرف والعادات واللبس ويتكلمون بلغتهم (الحكم لمن غلب).[2] والمسلمون عموماً في هذه البلاد قد نسوا دينهم الحنيف وعلى الخصوص الرجال؛ فإنهم يجهلون الأحكام والتعاليم الإسلامية غير أننا نجد بين النساء المسلمات من تتمسك بدينها وبزيها الإسلامي إلى حدٍ ما، وهذا ما نراه بوضوح بين مسلمي ليتوه في (لهستان)[3]. ونساء هذه المنطقة فقط يحتفظن ببعض المظاهر والعادات الإسلامية.

---

(١) قازاق الدون أو قازاق الأورص أو القازاق الروس أو القوزاق أو الكوزاك هم من عرق سلافي مسيحي من الجنود الفرسان الروس الذين فروا من ضياع النبلاء من ضفاف نهر دون Don والدنيبر واستوطنوا في مختلف أنحاء سيبيريا. ويجب التنبيه على التداخل بين المسميين القازاق والقوزاق:
قوزاق= بالروسية Казаки وتنطق كازاكي= وتكتب بالإنجليزية Cossacks= وبالفارسية كوزاك.
قازاق= بالروسية Казахи وتنطق كازاخي= وبالإنجليزية Kazakhs= وبالفارسية مردم قازاق.

(٢) في كتاب "العالم الإسلامي" يقول عبدالرشيد إبراهيم عن القوزاق: ولقد أراد الروس أن يجعلوهم روساً إلا أنهم لم يفلحوا بل صار هؤلاء من القازاق، واليوم تجد الأورس قازاق بعد أن استوطنوا بادية القازاق نسوا طقوسهم الدينية ولغتهم وتعلموا عادات القازاق ولغة القازاق. المجلد الأول ص ٣٧.

(٣) مسلمو ليبكا Lipka Tatar هم مجموعة تركية من التتار المهاجرين إلى ليتوانيا في القرن ١٤ الميلادي، استقروا هناك وحافظوا على دينهم الإسلامي وتقاليدهم ومع مرور الزمن انصهروا في المجتمع وتغيرت لغتهم، وتوزعوا بين ليتوانيا وبولندا وبيلاروسيا. ولهستان بالفارسية هي جمهورية بولندا Poland وعاصمتها وارسو، وتقع في شرق أوروبا وفي شمالها ليتوانيا.

شربنا الشاي سويةً وقدم لي صاحب الكوخ كسرة من الخبز بالسمن وهو يقول: كل ولا تخف، ولكنني لم أستطع أن آكل شيئاً؛ لأن الوقت كان مبكراً، وبدأت أفهم بعض العبارات من اللغة التي يتحدثون بها وفيها كثير من الشبه مع لغتنا واختلاف في اللهجة فهم يبدلون حرف (ش) إلى حرف (س).

واللغة القازاقية أوسع شمولاً عند مقارنتها باللغة التتارية وفيها كثير من ضروب الأمثال والعبارات الاصطلاحية، ويمتاز القازاقيون بسليقة شعرية قوية لكونهم من أبناء البادية ونادراً ما تصادف واحداً منهم لا يحفظ شعراً وقد نبغ منهم شعراء كثيرون.

غفوت قليلاً بعد احتساء الشاي ونهضت والشمس تسطع فوق رؤوسنا. خرجت من الكوخ وأنا أدقق النظر في خلق الله من صحراء واسعة مكسوة بثلج ناصع البياض وأشاهد في الأفق قطيعاً من الحيوانات واقفة فوق الثلوج، ولم أشاهد على مدّ النظر منزلاً أو كوخاً سوى هذا الكوخ الوحيد الذي كنت أنزل فيه، إنني لم أشاهد أو أسمع بمثل هذه المناظر أبداً.

قبل أن أغادر المكان عدت إلى صاحب الكوخ لأشكره على وفادته فقال لي: إننا دائماً في خدمتكم، فشكرته مره أخرى.

بدأت في السير على طريقي ولا أشعر بأي شيء يدعو إلى الخوف؛ لأن الوقت نهار. وبعد أن قطعت مسافة قصيرة، شاهدت شخصاً على صهوة جواد يقترب مني فداخلني شك بأن يكون من قطّاع الطرق مع أني أعلم أن قطّاع الطرق لا يخرجون إلا ليلاً ولكن ألا توجد لكل قاعدة شواذ؟! لحق بي الرجل وأخذ يسألني من أكون؟ ومن أين أتيت؟ وإلى أين أتوجه؟ وماذا صادفت في طريقي؟ رافقني حوالي نصف ساعة وودعني قبل أن يغير طريقه إلى وجهة أخرى. وقد علمت فيما بعد أنه كان أحد المخبرين[1] في شركات ومؤسسات الأخبار. حيث يقوم هؤلاء بجمع الأخبار والحوادث ويقدمونها إلى مراجعهم، وقد مرّ بي حتى المساء عدد آخر منهم هؤلاء وسألوني نفس الأسئلة وتركوني.

كنت أصادف بين الحين والآخر قطعاناً كثيرةً من الأغنام والدواب تعدّ بالآلاف على جانبي الطريق وهي تمشي على بساط الثلج وترعى على بعض الحشائش التي تبرز بين ثناياه. داومت على السير حتى المساء، وفي كل مرة كنت أصادف كوخاً منعزلاً ومستعداً لاستقبال النزلاء من المسافرين على الطريق، فأنزل فيه للاستراحة ثم أستأنف السير. وعندما نزلت في أحد هذه الأكواخ قدموا لي طعاماً مؤلفاً من لحم الخيل مع حساء ساخن، وكان القائمون بالخدمة من أهل التتار أيضاً. نهضت من النوم في الصباح الباكر مع بقية النزلاء وفضلت أن أستأنف السير في هذا الوقت المبكر.

---

(١) مراسل صحفي.

بعد فترة قصيرة رأيت منزلاً آخر على الطريق مخصصاً لاستراحة المسافرين فنزلت وشربت الشاي، وهناك استأجرت فرساً أركبه بقية المسافة إلى أن وصلت (كوكچه طاو) مع أذان الظهر وشاهدت مسجداً وكنيسةً في تلك البلدة الصغيرة ومدرسة، فذهبت إليها ووجدت فيها بعض الشبان، ثم جاء الأستاذ الذي سألني بعض الأسئلة ودعاني إلى الذهاب معه إلى بيته بعد أن قرر تأجيل موعد الدرس. قدرت مبلغ اهتمام المدرس بضيوفه؛ إذ أن قيامه بترك طلبته واصطحابه لشخصي العاجز إلى داره يدلّ على أن رغبته في إكرام ضيفه قد تغلبت على رغبته في تدريس طلبته.

نزلت ضيفاً على المدرسة، وكان الأستاذ من أوائل دفعته عندما كان يدرس في (إسترلي)[1] وعين بوظيفة نائب إمام هذه البلدة حيث كانت الأنظمة المعمول بها لا تجيز تعيين التتار في وظائف الأئمة في مساجد القازاق؛ لذلك لم يعينوه إماماً بالأصالة، ثم انتقل إلى وظيفته الحالية (وضع هذا النظام موسى چورمانوف وطبق اعتباراً من عام ١٨٦٤م) وقد احتفى بي كثيراً ودعاني في اليوم التالي إلى شرب الشاي في منزله، وأبلغني بأنه سيرسلني إذا رغبت إلى مدرسة لا تبعد كثيراً عن هذا المكان لأقابل هناك "رحمت الله ملا" الذي يحترمه أهل القازاق كثيراً وبإمكانه أن يجد لك قبولاً في أحد مدارسهم.

(١) إسترلي Sterlitamak مدينة في جمهورية باشكيريا (باشكوردستان Bashkortostan) ذاتية الحكم في الاتحاد الفيدرالي الروسي وعاصمتها أوفا Ufa، تقع إسترلي جنوب العاصمة على بعد ١٢٠ كم وعلى يسار ضفة نهر بيلايا المتفرع من نهر كاما وكلاهما من نهر الفولغا.

قبلت نصيحته وقررت الذهاب إلى ذلك الرجل، ورتّب لي الأستاذ شخصاً من أصحاب الخيول لكي يوصلني إلى المكان المقصود فأركبني الرجل خلفه على فرسه. وفي ذلك مخاطرة؛ فإذا حدث ووقعت من ظهر الفرس فقد لا ينتبه لي القازاقي؛ لأنه يغطي رأسه وأذنيه بقطعة من القماش السميك. وكان هذا القازاقي قد أعتاد الوقوف في الطريق كلما لمح شخصاً من القازاق ليسأله عن صحته وأحواله قبل أن يتركه ويستأنف السير، ولم يقتصر ذلك على من يقابله على الطريق العام بل يشمل حتى الناس الذين يصادفهم وهم يسيرون على الطرق الجانبية والفرعية ولا يتركهم قبل أن يعرف من هم ومن أين أتوا وإلى أين يتوجهون. وكان بين الحين والآخر يقرأ بيتاً أو بيتين من الشعر القازاقي ولا أفهم منه شيئاً.

حلّ المساء ولا زلت أجهل المكان الذي يقصده، وحاولت أن أسأله حول وجهتنا فلم أتلق منه أية إجابة.

بعد ذلك سمعنا نباح الكلاب ونحن نصعد إحدى التلال المكسوة بالثلوج، فتوقف عندما وصلنا إلى قمة التل ونزل من الدابة ونزلت بعده وبدأنا بالسير، فقابلنا حشداً من القرويين، وكان الظلام الدامس يحول دون رؤية ما حولنا، مرّ الرجل في دروب ضيقة بين الثلوج وأنا أمشي خلفه. ثم فوجئت بباب يفتح أمامنا وفي الداخل نار مشتعلة. تقدمنا نحوها، إنه كوخ من الطين وفيه رجال جالسون حول النار فسلمنا عليهم واستفسروا من صاحبي حول الشاب الذي يرافقه.

بعد ذلك جاءت سيدة ووقفت بقربي وفتحت الكيس الذي كنت أحمله واستخرجت منه بعض قطع الخبز وبدأت تأكل منه وتوزع قطعا على بقية الجالسين، ثم شدّت الكيس وأعادته إلى مكانه. وصل إلى المكان عدد آخر من الرجال حتى زاد عدد الموجودين عن عشرين شخصاً. وجاء أحدهم يحمل صحناً كبيراً وإبريق ماء فأخذ يصب الماء على أيدي الحاضرين ونشروا سفرة كبيرة في وسط المكان ووضعوا عليها عدة سكاكين وتجمع القوم حولها، وبعد ذلك بخمس دقائق دخل شخصان يتعاونان على حمل صينية كبيرة مملوءة باللحم بكميات كبيرة تكفي للحاضرين وتزيد.

قام أحد الحضور وأخذ قطعة كبيرة من اللحم وقدمها إلى السيدة الجالسة قرب الباب، وبدأ الآخرون بتقطيع اللحم إلى قطع صغيرة، وبدأ الجميع بالأكل وأنا معهم. وكان يتألف من لحم الغنم والخيل كما علمت فيما بعد.

كنت ألاحظ أن كل لقمة يَزْدَرِدها أحد هؤلاء الرجال تكفيني يومين، وهكذا فرغت الصينية الكبيرة الضخمة من اللحم في فترة وجيزة، ثم أتوا بقطعة من فرو الغنم وضعوها في وسط السفرة وأخذ الحاضرون يمسحون أيديهم بها، وجاءوا بإناء كبير مملوء بالحساء فأخذ الرجال يشربون منها بالتناوب حتى فرغ الإناء، وجاءوا بعدها بإبريق من الماء وصحن فغسلنا أيدينا بالماء البارد دون استعمال الصابون.

بعد ذلك، بحوالي نصف ساعة فتح الباب الخلفي ودخلت مجموعة من الفتيات وهن يبكين بحرقة، وبدأت إحداهن باحتضان الرجال الحاضرين فرداً فرداً وهي تبكي

وتنتحب، وجاء دوري فاحتضنتني وبكت وأنا مندهش لا أدري عن السبب أو المناسبة، ثم جلس الجميع وبعد فترة قصيرة دخلت مجموعة من الراقصات اللواتي وقفن في وسط المكان وبدأن بالرقص. لم تكن لدي رغبة بالسؤال عمّا شاهدته في هذا المنزل العجيب، بل خرجت في أول فرصة سنحت لي لكي أواصل سيري على الطريق رغم الظلام الشديد، ولا أعرف شيئاً عن وجهتي، ولكني مع ذلك مستمر على السير.

وبعد قليل صادفت شخصاً في الطريق شكوت له حالي وما صادفني من متاعب. أشفق عليَّ الرجل وقال: إن داري قريبة من هنا، فأخذني إلى بيته، وحال دخولي الدار غلبني النوم.

شعرت أن شخصاً ما يتحرك بقربي ويده على صدري وهي يد صغيرة ناعمة، فتحت عيني فإذا بفتاة في غاية الجمال نائمة بالقرب من فراشي، فداخلني خوف شديد وجلست وأنا أرتجف، وقضيت بقية الليل ساهراً فكنت أسمع شخير بعض النائمين وعددهم غير قليل. علمت بعدها أن من عادة القازاق دعوة الناس المحتاجين للراحة في بيوتهم، وزيادة في الكرم يعهد إلى إحدى بناته بخدمة الضيف نهاراً وأثناء الليل تقوم حاضرة عند قدميه كي تقوم بخدمته متى احتاج إلى الخدمة، وكان جهلي بهذه العادات

يسبب لي إحراجاً كثيراً في أكثر الأوقات. وهذه العادة شائعة بين شراكسة (داغستان) أيضاً، ولا يمكننا أن نتهمهم بسوء الخلق بسبب هذه العادة.[1]

نهضت صباحاً وتوضأت والفتاة تصبّ الماء على يدي، وأديت صلاة الفجر وبعد الصلاة تبين لي أن الدار قد خلت من ساكنيها باستثناء الفتاة التي كانت قائمة على خدمتي. جاءت إليّ مرة أو مرتين وهي تبتسم في وجهي وتتركني، وبعد حوالي ساعة واحدة عاد صاحب الدار ومعه أهله وقال: إن عليه أن يعتني بحيواناته صباح مساء وينشغل بتربيتها، وقدموا لي الفطور. وكان ربّ البيت لطيفاً معي ويصرّ على أن أبقى في داره مدة أطول.

شكرته مبدياً رغبتي في السفر فأحضروا لي دابة أركبها، وكانت الفتاة تساعدني في جمع حوائجي ولم تتركني إلا بعد مغادرتي المكان، وابتسمت وهي تودعني.

رافقني في سفري أحد الشباب من أهل الدار، وكان يؤنسني في الطريق بإيراد بعض الطرائف فسألته: هل إن جميع أهل القازاق يكرمون ضيوفهم مثلما أكرمتموني؟ فقال: إننا نقوم بأكثر من ذلك، وللأسف إن معظم أهل الدار كانوا خارج البيت؛ لأنهم

---

(١) قبائل القازاق كثيرة، وربما تكون هذه العادة عند أحد قبائلهم وهي تحمل على حسن النيّة وكرم الضيافة كما ختم عبارته المؤلف وليس على الفحش أو سوء الخلق. وكثير من قبائل القازاق عادة ما يسكنون الخيام الصغيرة الدائرية أو الأكواخ الصغيرة ولا توجد بها غرف منفصلة كثيرة، وبعضهم يعيش في ترحال دائم. وهذا القرب في النوم سببه ضيق المكان حيث ينام الجميع في نفس المساحة المتاحة. كذلك الخدمة التي يشير إليها المؤلف هي خدمات الطعام والشراب أو تسخين الماء لدخول الحمام.

يشاركون في حفلة عرس شخص قريب، لذلك فإنهم حرموا من تقديم الخدمة اللازمة لك وأخذ يروي لي بعض التفاصيل عن حفلات العرس عندهم.

وأخبرني أن العشاء الذي شاركت فيه على التل كان ضمن الحفلات التي أقيمت بمناسبة العرس الذي يتكلم عنه، وتبين لي أن كل ما شاهدته في هذه الدار كان من مظاهر العرس التي كنت أجهلها وكانت أحياناً تسبب لي إحراجاً وارتباكاً شديدين. على أية حال فقد اطلعنا على الكثير من عادات وطبائع قوم القازاق والتي سنتكلم بالتفصيل عنها كلما وقفنا عليها إن شاء الله.

وصلنا في اليوم التالي إلى بلدة (ملا باي)، وهي البلدة التي أوصاني بها الأستاذ في (كوكچه طاو) ودلوني على منزل "رحمت الله ملا التاري" وأصله من بلدتي وكان يقع في حي جميل رغم عدم انتظام الأبنية فيه.

دخلت المنزل بعد استئذان ورأيت الأستاذ رحمت الله الذي خرج إلينا وكان في العقد السادس من عمره ويتكلم بلغة القازاق، وبعد أن عرّفته بنفسي دعاني إلى داخل المنزل ونهضت ربّة المنزل وأرتني مكاناً للجلوس فيه. وبعد السؤال عن الحال وبعض الكلام قدموا لي الشاي وأخرج ربّ البيت بعض المشهيات من كيس كان بجانبه وقدم لي حفنة منها، وسأل عن أحوال الأهل والأقارب في (تارا)، ومما لفت نظري أن ربّة البيت كانت تغطي شعرها بقطعة من القماش وترتدي ملابس تتناسب مع الزي الشرعي وتراعي فيها الناحية الاقتصادية، أما كريمتها التي كانت تناهز السادسة عشر

فإنها كانت حاسرة الرأس وكان أثاث البيت عادياً وبقدر الحاجة رغم ما كنا نسمع عن غنى صاحب الدار من أنه يمتلك نقوداً وأموالا طائلة. وفي المساء تناولنا العشاء سوية وكان الطعام الذي يتألف من اللحم والحساء لذيذاً جداً.

بدأ رحمت الله بعد ذلك بالحديث حول ما يعرفه عن أحوال وعادات وأخلاق القازاقيين والتجارب التي مرّت به خلال ربع قرن قضاها في هذه الربوع. وخلال مكوثي معه عرفني بكثير من وجهاء البلدة وحللت ضيفاً على بعضهم. وخلال أسبوع واحد بدأت بالتحدث بلغة القازاق بطلاقة، وساعدني رحمت الله كثيراً في تعلم هذه اللغة وأطلعني على عمل المعلمين وواجباتهم في (ملا باي)، ثم عهد إلى بعض الناس لكي يبحثوا لي عن عمل مناسب فتوصلوا إلى إيجاد عمل في منزل شخص يدعى "اورده باي حاجي"، وكانت مساعدة رحمت الله لشخصي العاجز لا تقدر بثمن، في وقت كنت بأشد الحاجة إلى عمل أعيش منه ويفتح لي أبواب المستقبل، وكان ذلك مكرمة منه لا أنساها ما حييت.

ذهبت إلى قرية باي حاجي، وكان من حسن حظي إنه منذ نهاية القرن السابع عشر صدر قرار من قبل الإمبراطورة كاترين الثانية يقضي بإرسال مدرسين من التتار لتعليم القازاق أحكام الدين الإسلامي، ورغم إلغاء ذلك القرار بعد فترة فقد استمر وجهاء وأغنياء المنطقة في السعي لتوفير المدرسين لتحقيق تلك الغاية النبيلة. وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان كثير من ذوي الثروات المتواضعة من القازاق يجلبون

المدرسين لتعليم أولادهم، إلا أنه مما يؤسف له أن المدرسين باستثناء القلة كانوا من العجزة ومن أنصاف المتعلمين؛ لذلك كانوا عاجزين عن تعليم الأولاد القراءة والكتابة البسيطة حتى بعد مرور خمس أو ست سنوات.

ولكنني لم أكن أفضل من أولئك المدرسين عندما بدأت التدريس في دار أورده باي حاجي الذي كان من الرجال المعروفين في قريته وكان بمثابة كتاب تاريخ متحرك يمشي على قدمين، ومطلعاً اطلاعاً واسعاً على تاريخ أهل القازاق.

قابلني الرجل بكثير من الاحترام والتوقير وكان تلاميذي عبارة عن ابنه وبنتيه إضافة إلى ابن أخيه، واستمر عملي معهم طيلة موسم الشتاء. وفي الوقت الذي أعترف فيه بأنني لم أقدم لهم فائدة جديرة بالذكر، إلا أن الرجل كان بالغ الامتنان من الخدمة التي أقدمها لأولاده وكان يعتبرني معلماً وإماماً في الوقت نفسه. اشتهرت في القرية بهاتين الصفتين. ويبدو أن المعلمين الذين سبقوني كانوا أجهل مني.

ومرت ثلاثة أشهر دون أن أستلم راتباً، وكان عليَّ أن أنتظر حلول شهر رمضان لكي يعطيني مما يستخرج من زكاة ماله أو يدفع لي من الخيرات التي يتصدقون بها عند وفاة أحد أفراد الأسرة مقابل الجهد الذي بذلته في تعليم الأولاد، وكان السيد رحمت الله قد ذكر لي مسبقاً أن هذا الأسلوب هو المتبع في دفع أجور العمل. ولا أنكر أنهم كانوا يقدمون لي الطعام ولكني كنت بحاجة إلى ما ألبسه، إذ أن ملابسي الرثة لم تكن مناسبة ولا تساعدني على زيارة القرى المجاورة. جاء موسم الصيف ولكن شهر

رمضان كان لا يزال بعيداً، ولم يتوف أحد خلال تلك المدة.

وفي أوائل الصيف بدأت الاستعدادات لانتقال باي حجي مع أسرته إلى داره الصيفية في (يايلاو) وعليّ أن أوقف التدريس خلال هذه الفترة. وبغية استغلال فرصة التوقف عن التدريس قررت زيارة المدينة، وعندما استأذنت حاجي اقترح الانتظار بعض الوقت، وهكذا لم تتحقق تلك الزيارة.

انتقلنا إلى المصيف بعد أن تم تحميل جميع الأشياء الضرورية على عربات خاصة معدة لهذا الغرض وتشرف عليها السيدات والخدم أثناء سيرها ويشترك رب الأسرة مع آخرين في جلب الحيوانات إلى المصيف، والشبان والبنات كل واحد منهم على صهوة جواد يتابعون السير خلف هذا الجمع الحاشد وهم يغنون ويقرأون الشعر ويوردون النكات على امتداد الطريق، وكنت أنا مع هؤلاء أشاهد وأدقق النظر في عادات أهل القازاق وطرق معيشتهم.

بعد وصولنا إلى (بايلاو) استأذنت حاجي للذهاب إلى (آط بازار)، وتعرفت خلال هذه السفرة على عدد من وجهاء أهل القازاق، ووجدت هناك بعضاً من أهل منطقتنا (تارا) وتعرفت عليهم. ومن هؤلاء المرحوم "عبدالغني" الذي كان أصلاً من قرية (أوبا) التي تبعد ٣٥ ميلاً عن (تارا) وهو ينتسب إلى بيت "كنازوف" الذي يكثر فيه العلماء والموسرون، وكان المرحوم في أواخر أيامه يعيش حياة العوز والفاقة، وهو من أهل العلم والمعرفة ويجيد اللغة الروسية، وكان يوصينا ويقول: إنني كفرت بالنعمة

التي أنعم الله بها عليّ ولم أشكره، وهكذا تجدونني في حالي هذه، وأمنيتي الوحيدة من الله تعالى أن يكون مماتي في ديار الغربة (من مات غريباً مات شهيداً)[1]. وقد تقبل الله دعاءه وتوفي في ديار الغربة رحمه الله.

عدت إلى أورده باي حاجي بعد أسبوع قضيته في (آط بازار) واستأنفت عملي لديه. يقضي أهل قازاق الصيف في جو جميل ووفرة من الطعام، ونحن نتناول اللحم كل يوم ونشرب (القِميز)[2]، ونتفسح على ظهور الخيل بين المناظر الطبيعية الجميلة. والملاحظ أن أهل قازاق من ذوي الأجسام الضخمة القوية، ولكن لا أهمية لعفة النفس عندهم، وينطبق ذلك على النساء أيضاً.

وفي أثناء موسم الصيف يقضي أهل القازاق ذكوراً وإناثاً سحابة يومهم على ظهور الخيل، والشباب منهم يتصيدون الفتيات، وقد يفاخر أحدهم بعدد الفتيات اللواتي يصادقهن واتصل بهن، ولا يعتبر ذلك تصرفاً يعاب عليه[3]،

---

(١) رواه ابن ماجه بلفظ: (موت غربة شهادة) رقم الحديث ١٦١٣.

(٢) حليب الفرس يعد بطريقة معينة وله فوائد كثيرة ومن المشروبات المعروفة والتقليدية حتى في هذا الزمان في وسط آسيا عموماً.

(٣) يعيش غالبية القازاق في ترحال دائم، ولأنهم مسلمون ولا يقبلون بالفحش والبغاء في علاقاتهم، ولبرودة الجو والثلوج في أغلب شهور السنة فإنهم يتجمعون في فصل الصيف في مهرجانات محددة يحضر فيها جميع الأهالي مع أبناءهم وبناتهم. فيقوم الشبان بالتعرف على زوجات المستقبل في ذلك المكان فيتواصل معها ويعرض عليها الخطبة فإذا رغبت الفتاة بالشاب يتم بعده التعارف بين الأسرتين ويعقد عليها نكاحاً صحيحاً شرعياً فيتزوجها ويرحل معها إلى دياره البعيدة.

ولا شك أن ذلك يؤثر على قواهم البدنية والمعنوية ويدل على ضعف العقيدة الدينية.[1]

قضيت موسم الصيف تحت رعاية أورده باي حاجي ورغم كوني مرتاح البال من ناحية المعيشة إلا أنني من الناحية المادية أصبحت خالي الوفاض، ولم يمت أحد في الأسرة لكي أنال بعض الصدقات، وكان عليَّ أن انتقل إلى شخص آخر أعلّم أولاده.

استطعت الحصول على موافقة حاجى على ذلك بعد جهد كبير، وأخذت معي فرساً كان حاجي يصرّ على إبقائه عنده، وتوجهت في أغسطس من عام ١٨٧٨م[2] إلى (آط بازار) ومنها إلى "عمر ڤولص"[3] في ولاية (آق ملّا)، وكان قد أرسل إليَّ الدعوة بالحضور إليه لكي يعيّنني إماماً عنده. كان هذا الرجل من أصل تتاري، ولكنه كان مسجلاً مع القازاقيين، وهو ينتسب إلى اليعاقبة "يعقوب ملا"، وكان والده "إبراهيم توره" قد شغل في حينه وظيفة حاكم في مناطق القازاق سنين عديدة وكانوا ينظرون إليه كزعيم للمنطقة، فكان عمر ڤولص نفسه شخصية معروفة لدى أهل البلد والحكومة على السواء، وقضى فترة في وظائف حكومية، وكان من ذوي النفوذ الواسع

---

(١) يقول شهاب الدين المرجاني في كتابه مستفاد الأخبار في أحوال قزان وبلغار (١/ ١٥٥): أن طائفة القازاق كانت ولعام ١٢٠٠هـ في غاية البداوة والوحشية والجهالة، وعندما هاجرت قبائل التتار واستوطنوا أراضيهم واختلطوا بالتجار والأئمة بدأوا بالتغير تدريجياً فأصبحوا يؤدون الصلاة والزكاة ويصومون رمضان ويحجوا إلى البيت الحرام.

(٢) الموافق شعبان من عام ١٢٩٥هـ.

(٣) تنطق ڤولص (Vuls).

في المنطقة، وتعاون معه أخوه الأكبر "اوكارناي" وأخوه الأصغر منه "اوبارناي"، وهما يتمتعان بالشهرة أيضاً.

بقيت عند هذا الرجل سنة كاملة في وظيفة إمام، وقد استفدت كثيراً من حيث الاطلاع على أوضاع وعادات الناس، وكان الأطفال الذين أقوم بتعليمهم صغاراً ولكني كنت أعتبرهم أعلم مني، وهم ولدان وبنت واحدة، ولقد بذلت جهداً كبيراً في تدريسهم وكانت تتوفر لي فرص كثيرة للتفسح والاتصال بالناس الذين كانوا مستعدين لسماع نصائحنا ولكن للأسف لم نستغل تلك الفرص الثمينة؛ إذ كانت الحكومة في تلك الفترة قد فسحت مجالاً للحريات السياسية لأهل القازاق، وكان باستطاعتنا أن نغرس في أذهانهم التفكير السياسي إلا أن تفكيرنا كان قاصراً ومحدوداً.

كان هذا الرجل قد وعد بتزويج إحدى بناته لأحد أبناء "مايرام" من وجهاء القازاق في بلدة (آط بازار)، وتوفي ذلك الشاب لذلك قرروا تزويج البنت للشقيق الأصغر للشاب المتوفى الذي كان في سن الثانية عشر، وكان هذا الاختيار ضد رغبة البنت التي كان عليها أن تنتظر طويلاً حتى يبلغ الشاب سن الزواج. جاءت الفتاة إليّ وهي تشكو حالها فأشفقت عليها كثيراً، وتكرر مجيئها كلما وجدت الفرصة لذلك، وفي آخر لقاء معها قررنا الفرار من البيت سوياً، وتباحثنا حول مستقبلنا والمكان الذي سنلجأ إليه، وكنا نظن أنه لا أحد يعرف سرّنا بيننا كان والد البنت يرصد حركاتنا.

كنت دائماً أشكو لصاحب الدار وضعي السيئ وأنني كطالب علم لديّ رغبة شديدة في الذهاب إلى المدينة المنورة للاستزادة من العلم، وأن ذلك يحتاج إلى مائة روبل وهو مبلغ كنت أعتقد أنه مبلغ كبير. وفي صباح أحد الأيام دعاني لمقابلته وقدم لي مبلغ مائة روبل، كما طلب من أهل الدار أن يعطوني من صدقاتهم قدر استطاعتهم، فتجمع لدي خمسون روبلاً أخرى وقال لي صاحب الدار: ولك أن تأخذ معك الفرس الفلاني لكي تسافر به إلى المدينة المنورة.

وعدته بالسفر في اليوم التالي فوافق على ذلك، غير أنه تعذر لقائي بالفتاة خلال تلك الفترة، واستطعت الاتصال بها كتابةً، فأخبرتني بأنها ستلتحق بي في اليوم التالي لسفري على أن انتظرها في إحدى القرى القريبة. لقد انتظرتها طويلاً غير أنها لم تأت، ويبدوا أنهم لم يعطوها الفرصة لتحقيق أمنيتها. وهكذا قطعت الأمل في مجيئها واستأنفت سفري.

استطراد

أود أن أذكر هنا أن أهل القازاق مسلمون، ولكن الجهل يسودهم، إنهم متمسكون بالعادات والتقاليد التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ويفضلونها على الأحكام الشرعية. وفي عهد كاترين الثانية اعترفت الحكومة الروسية بالدين الإسلامي وألحقت الشئون الإسلامية المتعلقة بالقازاق بإدارة المحكمة الشرعية في (أورينبيرغ)، كما أصدرت الحكومة مراسيم خاصة تتعلق بإرسال معلمين من التتار لتعليم القازاقيين

أمور دينهم، وخصصت لهم الرواتب اللازمة. وعلى إثر الفساد الذي اتهم به بعض الأئمة في منطقة (آق ملا)، انبرى أحد وجهاء القازاق المدعو "موسى چورمانوف" وأعوانه وسعوا لإلغاء تلك القرارات، وساعدهم في ذلك المدعو "يوسف ملا" في (آط بازار). ولا شك إنه كان لبعض ملالي المنطقة دور في هذا الإلغاء وسنفصله فيما بعد.

وصلت وأنا على صهوة الفرس إلى (قيزيل يار) وبعتها هناك، ومنها توجهت إلى (تيومان) سيراً على الأقدام وكان ذلك سنة ١٨٧٩م[١] لقد التقيت هناك بأستاذي القديم "جلال الدين ملّا"، وبقيت عنده أسبوعاً، ثم استأنفت السفر ماشياً إلى (أورينبيرغ)[٢] ومنها إلى (بيرمي). وكنت قد التقيت قبل ذلك بإمام بلدة (كاترينبيرغ) "حكيم ملّا" الذي أوصاني بسلوك طريق (تيمور) في الذهاب إلى (بيرمي) وهو الذي رافقني حتى بلدة (ڤاكزال) ونزلنا عنده في البيت وأكرمني كثيراً.

(ڤاكزال) بلدة صغيرة ومعروفة بأبنيتها الجميلة التي لا نظير لها، ثم ودّعنا حكيم ملا عندما استقلّينا عربة كبيرة أوصلتنا إلى (بيرمي) بعد يوم واحد. ومن هناك

---

(١) الموافق عام ١٢٩٦هـ.

(٢) أورينبيرغ Orenburg مدينة كبيرة في ولاية (أورينبيرغ أوبلاست) وهي ملتقى قارتي آسيا وأوروبا، تقع جنوب جمهورية باشكيريا قريبة من حدود كازاخستان جنوب جبال الأورال على نهر الأورال، وهي مدينة مهمة وصناعية وسياحية. وتقع تقريباً على خط طول واحد مع إسترلي وأوفا وبيرمي.

ركبنا باخرة أوصلتنا إلى (نيزني) بعد ثلاثة أيام، وهناك تجولت في سوق (مكاريه)[1] وقضيت في تلك البلدة يومين في أحد المساجد وعلمت أن "عبدالفتاح ايديكين" موجود في (مكاريه) وهو أصلاً من بلدة (تارا). كنت أتهيب الالتقاء به غير أن إمام مكاريه المدعو "سمرقند آخون" ألحّ عليَّ بالذهاب إليه وأخذني معه لمقابلة عبدالفتاح باي، وهناك شرحت له أحوالي، وبدلاً من تقديم أي مساعدة لي فإنه وجه لي كلاماً جارحاً ندمت بسببه على ذهابي إليه.

بقيت في (نيزني) أحصل في اليوم على روبلين أو ثلاثة روبلات مقابل بعض الخدمات التي كنت أقدمها، وهناك صادفت عدداً من الأشخاص من أهالي (سيمي پولات)[2] وصلوا إلى نيزني في طريقهم إلى الحج وكان عددهم يربو على عشرة أشخاص فقررت السفر معهم إلى الديار المقدسة.

---

(١) سوق مكاريه كان أصلاً سوق المسلمين في فترة الأمراء والخانيات للمناطق المحيطة بقازان وبلغار، ثم أصبح سوق قازان وكان يقصده الكثير من خوارزم وما وراء النهر وتركستان الشرقية وبعض ممالك روسيا ومن جميع الأطراف، وتعرض إلى حريق كبير سنة ١٢٣١هـ، وتم بناء مسجد حجري فيه في عام ١٢٣٨هـ.

(٢) سيمي پُولات Semey أو (يِدِي طاش) أي الأحجار السبعة حيث يروى أنه كان في هذا المكان سبعة أحجار وتقع على نهر إرتيش Irtysh في شمال مقاطعة (شرق كازاخستان) على الحدود السيبيرية وتبعد عن مدينة أومسك Omsk حوالي ٧٠٠ كم، وكان أهلها من النوغاي القادمين من قازان وبعض الأوزبك.

تحركنا من (نيزني) في ٢٢ أغسطس وفي ٢٦[1] منه وصلنا إلى ميناء (أوديسا)[2]، ولم يبق في جيبي أكثر من ثلاثين روبلاً. وهناك قام رجل اسمه "إبراهيم ملّا آدكاييف" باستقبال الحجاج الذين أتوا من (سيمي پولات) وأنا معهم وأخذنا إلى بيته وكان فيه عدد غفير من الطلبة وغيرهم، من بينهم "أحمد نرمي" من أقارب خير الدين ملّا ومخدوم عبدالله بن خبير ملّا من (بتروباول) وجميع هؤلاء وأنا معهم لا نحمل جواز سفر وكذلك الحجاج الذين جاءوا من (سيمي پولات) باستثناء اثنين منهم ليس لديهم جوازات سفر.

بدأ إبراهيم ملا بالأغنياء واستوفى من كل واحد منهم ثلاثمائة روبل، وأعدّ اثنا عشر شخصاً منهم لإرسالهم إلى الديار الحجازية، وكنت أنا و"عبدالله" نقوم بخدمة القوم ونحمل أمتعتهم ومعنا أيضاً أحمد نرمي، وبقينا نحن الثلاثة نشاهد يومياً وصول عشرات الحجاج وهم يسافرون إلى الديار المقدسة بدون جواز سفر، بينما بقينا نحن على أمل صدور القرار بتسفيرنا.

وهكذا انتظرنا شهراً كاملاً دون أن يلتفت إلينا أحد أو يصلنا الدور. وجاء يوم تمّ فيه تسفير نرمي أفندي أحد زملائنا، وبقيت أنا وعبدالله وكلانا لا نملك مالاً ندفعه، ولا نجد وسيلة أخرى نلجأ إليها. لم يدر في خلدنا أن نفاتح إبراهيم ملا في الأمر، رغم

---

(١) أي من عام ١٨٧٩م (٤-٨/ ٩/ ١٢٩٦هـ).

(٢) أوديسا Odessa ثالث أكبر مدن جمهورية أوكرانيا تقع جنوبها على ساحل البحر الأسود، كان ميناؤها بوابة العبور لحجاج أهالي تترستان سيبيريا، وكان الأتراك يطلقون عليها اسم (قواجه بيك).

أنه قام بتهريب عشرات الناس وأرسلهم إلى الديار الحجازية. وفي هذه الأثناء جاءنا "سيمون"، أحد مساعدي إبراهيم ملا في تهريب الحجاج ووعدنا بأنه سيقوم بتسفيرنا نحن الاثنين إلى الديار المقدسة.

وبعد يومين ألبسنا رداءً طويلاً ووضع على رأسنا طربوشاً قديماً وقادنا إلى إحدى السفن واحتفظ بملابسنا عنده وقال: الآن إنكما تشبهان الأتراك، والروس الذين على ظهر السفينة لن يتعرفوا عليكما. وهكذا أقنعنا وصدقناه واستولى على ملابسنا مقابل الأجور التي كنا نملكها.

وعلى ظهر السفينة استلمنا شخص عربي كان مسئولاً عن تقديم القهوة إلى المسافرين، وقال لنا: عليكما بالاختفاء لكي لا يراكما أحد قبل إقلاع السفينة. وأدخلنا عراة في حوض الاستحمام الخاص بركاب السفينة التي تحركت. ولم نلبث إلا أن دخلنا المضيق[1] ونحن نشاهد المساجد والمنائر والمباني العالية على جانبي البحر، وبعد ساعة واحدة حدث هرج ومرج وتعالى صراخ: استانبول.. استانبول هاتوا الزوارق.

أنزلونا لندخل أحد الزوارق، وسألنا سائق الزورق عن جواز سفرنا فأجبناه: نعم عندنا، ثم جاء مرة أخرى يطلب منا أجرة نقلنا بالزورق، ولم أكن أملك أية نقود ودفع صديقي بعض النقود من المبلغ القليل الذي كان معه. وفي كل مرة يعود سائق

---

(١) يقصد مضيق البسفور.

الزورق ليطلب المزيد، وسألنا عن الجواز ثانيةً فقلنا: نعم عندنا ثم صاح: (سيركه جي)[1].

اقترب الزورق من الساحل وأنزلنا إلى البرّ ونحن نجهل المكان الذي نحن فيه وعن وجهتنا، فسألت سائق الزورق هل تعرف "محمد رحيم أفندي"؟ وأين هو؟ فأجاب بالإيجاب، فقلت له: إذن أرنا إياه، فقال: نعم.. نعم.

وبعد أن مشينا حوالي عشرين خطوة على الساحل قال سائق الزورق: سأريكم مكان محمد أفندي، والآن ادفعوا لي أجرتي عن ذلك، فأعطاه زميلي ما بقي عنده من نقود قليلة وأشار الرجل إلى مكان نجلس فيه وننتظر ريثما يذهب ويجد محمد أفندي ويأتي به إلينا.

وجلسنا وجاء شخص يقول: هل تشربون قهوة سادة؟ كان يجلس في المكان خَلق كثير، وأمام البعض منهم قارورة زجاجية مملوءة بالماء يتصل به أنبوب يقوم الزبون بامتصاصه، وفي أعلى القارورة نار موقدة[2]. ويخرج الدخان من فم الزبون وأنفه.

---

(١) سيركه جي Sirkeci ميناء في اسطنبول على مدخل خليج القرن الذهبي Golden Horn.

(٢) يقصد النارجيلة أو الشيشة، ويبدو أنه لم يشاهدها في بلدته الصغيرة، علماً أنها كانت معروفة في تلك النواحي، فقد ذكر الشيخ محمد عياد الطنطاوي في رحلته لروسيا بين ١٨٤٠-١٨٥٠م (١٢٥٦-١٢٦٦)هـ أن الأرجيلة كانت موجودة في بترسبيرغ وكان الفرس منهم يتعاطونه.

وجاء الخادم وفي يده قطعتان أعطاهما لي ولزميلي الذي قال على الفور: إني أشك أن هذه القطعة أفيون، وأعرف ذلك من رسالة تلقيتها من أحد أصدقائي الذي كان يصف لي هذه المقاهي.

نهضنا لنترك المكان فجاء نادل يطلب أجرة الجلوس وليس معنا أي نقود فطردنا وخرجنا لا ندري إلى أين نتوجه. سألنا عن محمد رحيم فلم يعرفه أحد ممن سألناهم. كنا هائمين على وجوهنا ونحن نضحك على حالنا أحيانا ونبكي أحياناً أخرى. ومن الغريب أن معظم من سألناهم عن محمد رحيم كانوا يسكتون ولا ينبسون ببنت شفة.

أخيراً قررنا أن نسأل شخصاً آخر ونلح عليه في السؤال لعله يجيبنا ويدلنا على ما نطلب. وهكذا فعلنا، فتكلم الرجل وقد أشفق على حالنا ونظر إلى ساعته قائلاً: الآن وقت أذان الظهر، وسمعنا صوت مدفع وعلمنا أنه مدفع العيد الذي يطلق في كل وقت صلاة أيام العيد وقال الرجل: هنا طريق الترام تسيران على استقامة السكة إلى منطقة (الباب العالي)[1]، وهناك تسألان عن تكية (بشريه تكيه سي) يوجد بالقرب منها خباز تسألان منه أن يريكما مكان محمد أفندي القازاني وهو يدلكما عليه.

---

(١) الباب العالي يطلق في الاصطلاح العثماني على مقر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية، وقد أنشأه السلطان محمد الرابع عام ١٦٥٤م وأطلق فيما بعد اسم المكان على ساكنه وهو يعني الوزير الأعظم. المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية لسهيل صابان (ص ٤٩).

وجدنا محمد أفندي القازاني بعد نصف ساعة، وكان رجلاً طيب القلب، فرح كثيراً بمقابلتنا وعاملنا مثل أولاده وقدم إلينا طعاماً طيباً وزودنا ببعض الملابس من ضمنها جبّة وعمامة لكل واحد منا.

بقيت في خدمة هذا الرجل المحترم في استانبول مدة خمسين يوماً وفي هذه الأثناء وصل إلى استانبول آتياً من قازان "إسحاق حاجي أبانابيف" وافتتح تكّية قرب منطقة (نور عثمانية)، ووصل "شهاب الدين المرجاني"[1] كما وصل من سيبيريا نعمت الله حاجي سيدوكوف ونصر الدين حاجي ايديكين وصادق حاجي موسين وغيرهم.

---

(١) شهاب الدين هارون بن بهاء الدين بن سبحان بن عبدالكريم المرجاني القَزَاني، نسبة إلى قرية مرجان التابعة لولاية قازان عاصمة جمهورية تتارستان التابعة للاتحاد الروسي حالياً، ونسب إلى مرجان لأن أحد أجداده (عبدالقدوس) بنى هذه القرية. عالم حنفي مشارك في أنواع من العلوم ولد في قرية ياپنچي نواحي قازان في ٧ ربيع الأول عام ١٢٣٣هـ (١٨١٨م)، وكان أبوه من العلماء الذين درسوا في بخارى. فدرس على أبيه وغيره من المدرسين النحو والفقه وعلم الكلام والمنطق وأصول الفقه وكان معروفاً بحرصه واجتهاده. رحل إلى بخارى عام ١٢٥٤هـ واشترى غرفة بجانب مدرسة الشيخ النقشبندي الشهير نياز قولي خان التركماني ت ١٢٣٦هـ وبدأ يطلب العلم من منلا كبير مرزا صالح أعلم بن نادر محمد بن عبدالله الفرغاني الخوجندي ت ١٢٥٦هـ، وداملا محمد بن صفر الخجندي ت ١٢٦٧هـ، وداملا فضل بن عاشور الغجدواني ت ١٢٧١هـ، وداملا عبدالمؤمن خواجه بن أوزبك خواجه البخاري الأفشنجي الوابكندي إيشان مؤمن خواجه ت ١٢٨٣هـ، وداملا خداي بيردي بن عبدالله البايصوني ت ١٢٦٤هـ، وداملا بابا رافع الخجندي ت ١٢٨٥هـ، والقاضي ملا محمد شريف خواجة بن عطاء الله الهادي البخاري المولوي ت ١٢٦٠هـ، وداملا حسين بن محمد عمر الكرماني الكارغالي ت ١٢٧٤هـ، ثم انتقل إلى مدرسة كوكلداش فكان يدرّس الطلبة في الصيف وينسخ الكتب لكسب المعيشة وبعد أن أمضى ست سنوات في بخارى انتقل إلى سمرقند.

استقر في مدرسة شيردار وتلقى عن الشيخ القاضي أبي سعيد عبدالحي بن أبي الخير السمرقندي، وبعد سنتين عاد إلى بخارى واشترى غرفة في مدرسة مير عرب فجاء أخوه صدر الدين والتحق معه=

=لطلب العلم وكان إماماً في الصيف بالمدرسة وسكن فيها خمس سنوات ودرّس الكثير من الطلبة، واهتم بعلم التصوف وأخذ الإجازة في الطريقة من الشيخ عبدالقادر بن نياز أحمد الفاروقي الهندي ت ١٨٨٥م.

عاد إلى قازان في عام ١٢٦٥هـ ومر في الطريق بإِمَن قَلْقَا وأورسك وأورينبيرغ ووصل لقازان في رمضان من نفس العام. وعيّن إماماً وخطيباً بأحد مساجدها بعد أن أدى الامتحان في الوزارة الدينية بأوفا. وكانت لديه أفكاراً إصلاحية في مناهج التعليم ولم يتمكن من تنفيذها لمعارضة العلماء، ثم تقلد رتبة آخوند أي الأستاذ عام ١٨٦٧م وهي من أعلى درجات العلم آنذاك. ولما علت مكانته اشترى أرضاً وأسس مدرسة جديدة عام ١٨٧١م وكانت له فتاوى مخالفة في وقته فاتهموه أقرانه فأوقف عن الوظيفة، وسمى مدرسته بالمدرسة العالية وبدأت بقبول الطلبة من عام ١٨٨١م وكانت من أفضل مدارس وقتها بالمنطقة، ولما فرض الروس تدريس اللغة الروسية للطلبة وافق بشرط ألا يسبب أي ضرر في لغة التتار وثقافتهم وقوميتهم.

رحل رحمه الله إلى الحج ومرّ باسطنبول والتقى فيها بشيخ الإسلام والمفتي أحمد أسعد أفندي ووزير العدل المؤرخ أحمد جودت باشا ووزير الخارجية عاصم باشا، ثم انتقل إلى الإسكندرية وزار ضريح الإمام البوصيري صاحب البردة الشريفة وابن الحاجب صاحب الكافية. ثم انتقل إلى القاهرة ونزل ضيفاً عند تلميذه كمال القاري وتعرف بالعالم الفلكي محمود بيك وزار مساجدها ومكاتبها وأهراماتها كما زار قبر الإمام الشافعي والشاطبي وابن دقيق العيد وابن عطاء الله السكندري وابن الهمام والليث بن سعد المصري. ثم أبحر إلى ينبع والتقى بمكة المكرمة والمدينة المنورة في حج عام ١٢٩٧هـ بالشيخ آخوند جان البخاري وشيخ الإسلام حسن فهمي وعبدالجليل المدني وعبدالقادر بن أحمد الطرابلسي والمفتي محمد الزُّبالي وخليل بن إبراهيم ومنلا أحمد ضياء الدين الطرخاني ورحمت الله بن خليل الهندي ومحمد أحمد القونوي وغيرهم. وبعد أداء فريضة الحج أبحر من جدة إلى اسطنبول وزار وزير التربية القديم منيف باشا ثم أبحر إلى أوديسا حتى وصل إلى قزان في ٢٠ كانون الأول عام ١٨٨٠م (١٧/ ١/ ١٢٩٨هـ).

ومن طلبته: حبيب النجار بن محمد كافي السلطوق العتكي، وبرهان الدين بن عبدالرفيق الشبكاوي، وملا عبدالخبير المسلمي القزلجاري ت ١٨٧٩م، والقاضي محمد بن صالح الأوفاوي العمري ت ١٨٨٩م، وحفيظ الدين بن نصر الدين القرصاوي، وحسين فيض خاني ت ١٨٦٦م، عالم جان محمد جان البارودي ت ١٩٢١م وغيرهم.

من تصانيفه الكثيرة: ناظورة الحق في فرضية العشاء وإن لم يغب الشفق، إعلام أبناء الدهر بأحوال ما وراء النهر، مستفاد الأخبار في أحوال قزان وبلغار (مجلدين)، الحكمة البالغة الجنية في شرح عقائد الحنفية، غلالة الزمان في تاريخ بلغار وقازان، الفوائد المهمة، جوامع الحكم وذرائع النعم من مقولات علي بن أبي طالب، الحق المبين في محاسن أوضاع الدين. توفي في قزان ودفن فيها في ٢٨ شعبان سنة ١٣٠٦هـ، (١٨٨٩م). للمزيد انظر كتابه "ناظورة الحق" طبع ٢٠١٢م.

لقد عرضنا حالنا على جميع هؤلاء وتوسلنا إليهم لكي نرافقهم إلى الديار المقدسة وأننا مستعدون لتقديم أية خدمات إليهم على امتداد الطريق، إلا أنه لم ينل طلبنا قبولاً من أي واحد منهم[1]، لذا قررت البقاء والإقامة في استانبول وزرت عدداً من المدارس فيها وعرض عليَّ البعض الخدمة في القصر السلطاني ولكن قلبي لم يطمئن لهذا العرض.

كنت في أحد الأيام واقفاً في ميناء (سيركه جي) عندما وصلت إحدى السفن من ميناء (أوديسا) ونزل منها شخصان فاقتربت منهما وسألتهما عن البلاد التي أتيا منها فقالا من (ايركونسكي)، ثم طلبا مني أن أوصلهما إلى الموقع الذي ذكرا لي. قال لي أحدهما: إنني ملزم بدفع بعض المبالغ زكاة أموالي، فهل تعرف أحداً من الطلبة المستحقين تدفعها له؟ فأجبته: يا سيدي أنا طالب علم ومحتاج وأرغب في الوصول إلى المدينة المنورة لكي أواصل دراستي فيها، ولضيق ذات اليد فإنني لم أستطع تحقيق هذه الأمنية. فأراني المبلغ قائلاً: هل يكفيك هذا؟ فقلت: نعم سيدي. فأعطاني المبلغ.

في اليوم التالي قمت بخدمة الحجاج الراغبين في السفر إلى الديار المقدسة وحصلت منهم على مبلغ إضافي واشتريت ملابس الإحرام وتوجهت إلى الميناء لشراء تذكرة السفر على السفينة التي ستغادر الميناء قريباً إلى الحجاز فقال لي "حسام الدين

---

(١) جاء في ترجمة الشيخ شهاب الدين المرجاني السابقة أن الشيخ المرجاني حج عام ١٢٩٧هـ وليس ١٢٩٦هـ.

باباي"، وهو الذي سبق أن دفع لي مبلغ الزكاة: يا ابني لا حاجة لك بأن تدفع ثمن التذكرة؛ لأنني سأدفعها عنك بنفسي وأطلب منك أن تساعدني ببعض الخدمات الضرورية على ظهر السفينة، فقلت له: يا سيدي إني مستعد لخدمتك دائماً وإنما لي رجاء بأن تدفع بدلاً من ذلك تذكرة أحد الطلبة ممن أعرفهم وهو من المحتاجين، وقبل الرجل هذا العرض وقال: على بركة الله وسنجلس سوية على ظهر السفينة.

وهكذا تم الأمر، وفي اليوم التالي كنا في السفينة العثمانية المسماة "شريف رسان"، وكانت سفرة طيبة، مررنا بـِ (چناق قلعة) و(إزمير) و(اسكندرون) و(بيروت) و(بورسعيد) و(قناة السويس)، واستغرقت تلك السفرة أسبوعاً، وصلنا في نهايتها إلى ميناء (جدة) في اليوم الأول من شهر ذي الحجة[1]. وعند نزولنا من الباخرة صادفنا نعمت الله حاجي ونصر الدين حاجى من أهالي (تيومان)، وقد علمنا أن هؤلاء الحجاج سافروا من استانبول عن طريق مصر وكانت الشركة الروسية قد زودتهم بتذاكر توصلهم إلى جدة إلا أنه عندما وصلوا إلى السويس لم تكن هناك سفينة تابعة للشركة، لذلك حولوهم إلى الباخرة النمساوية "ماغنيت" التي أوصلتهم إلى جدة في أربعة أيام. أما نحن فقد تحركنا من جدة في مساء نفس اليوم إلى مكة المكرمة، وعلى مشارفها شاهدنا زحاماً يفوق الوصف والجميع يرددون بأعلى صوتهم: (لبيك اللهم لبيك) وشاهدنا المئات من الحجاج الذين وصلوا على ظهر الجمال أو سيراً على الأقدام

(١) من عام ١٢٩٦هـ.

وسمعنا أصواتاً تنادي وتردد اسم نعمت الله حاجي، وكان هذا أسلوب أدلّاء مكة لاستقبال الحجيج لتقديم ما يحتاجون إليه من خدمات.

توضأ الحجاج في الموقع المسمى (الشيخ محمود)[1]، وقام الأدلّاء بسوق الجمال إلى الأماكن المخصصة لها، وأخذوا الحجاج إلى الأماكن التي يرتاحون فيها. أما نحن فقد أخذنا الدليل إلى منطقة الحرم الشريف مباشرة ودخلنا من باب السلام ووقفنا خلف الدليل الذي بدأ يقرأ بعض الأدعية ونحن نرددها بعده متوجهين نحو الكعبة المشرفة، وتقدمنا للطواف حولها ونقبل الحجر الأسود وندور حول الكعبة سبع مرات، وصلينا ركعتي الطواف ثم ركعتي الشكر عند مقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقدم إلينا السقاة من ماء زمزم، ثم خرجنا من باب الصفا مروراً بالمخفر العسكري، وصعدنا إلى الصفا وكانوا يسمونه جبل الصفا رغم عدم وجود جبل فيه، وبدأنا السير من الصفا حتى وصلنا إلى المروة وعدنا إلى الصفا... وهكذا سبع مرات. وبعد انتهاء السعي ذهب الحجاج إلى الدار التي أعدها الدليل. أما نحن فقد ذهبنا إلى الحلاق الذي جزّ شعر رأسنا ونحن وقوف ودفعنا للحلاق سبعة كوابك.

---

(١) توضأوا واغتسلوا من بئر "ذي طوى" وهو المكان الذي اغتسل منه النبي صلى الله عليه وسلم أثناء دخوله يوم فتح مكة، ويقع في جَرْوَل بالقرب من قبر الولي الصالح "سيدي محمود" رحمه الله واسمه (محمود بن إبراهيم أدهم) كما ذكره الملّا ميرزا عليم بن دام الله ميرزا رحيم الطاشكندي في رحلة حجه عام ١٣٠٥هـ، وذكره أيضاً سنوك في صفحات من تاريخ مكة، وهو نفس المكان الذي يعسكر فيه المحمل المصري عند قدومه بموسم الحج وأنشأ بالقرب منه والي الحجاز عثمان باشا نوري أول حديقة مزروعة بمكة المكرمة.

وبعد قراءة التعاويذ والبسملة انطلقنا لزيارة البلدة والاطلاع على أحوالها، وبقينا فيها يومين أو ثلاثة وتعلمنا طريق الوصول إلى الحرم الشريف، والجميع مشغول بالدعاء والصلاة والطواف ليلاً ونهاراً، وفي أوقات الصلاة يجتمع في المسجد أكثر من مائة ألف حاج ويسود الزحام الشديد في كل مكان بشكل لا نظير له في أرجاء الدنيا كافة.

جاءنا الدليل في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة وقال لنا: إن غداً هو يوم الوقوف في عرفات وعلى الجميع أن يلبسوا ملابس الإحرام، وعندما حل موعد صلاة العصر تهيأ الجميع ولبسوا ملابس الإحرام ودخلنا الحرم الشريف لأداء صلاة العصر، وتعجبت لأنه لم يكن هناك خطيب بعد انتهاء الصلاة، وسألت عن ذلك فقيل لي: اذهب إلى الجهة الأخرى من الكعبة المشرفة، وفعلاً وجدت هناك الخطيب وهو يستعد لإلقاء خطبته[1]، ولكني لم أتمكن من الوصول إلى مكان قريب من المنبر الذي كان مرتفعاً، وبدأ الخطيب بالكلام وكنت أسمعه بوضوح ولكني للأسف لم أكن أفهم منها شيئاً. وعند المساء تهيأ أصحاب الجمال وجميع الحجاج وبدأوا بجمع أمتعتهم لكي

---

(١) خطبة يوم ما قبل التروية أو يوم التروية من السنن المتروكة في هذا الزمان. روى البيهقي والحاكم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان قبل التروية بيوم خطب الناس فأخبرهم بمناسكهم) حديث صحيح الإسناد، وقال الامام النووي في شرح المهذب: إسناده جيد. وعند السادة الحنفية الخطب المسنونة في المناسك ثلاثة: يوم السابع والتاسع والحادي عشر، وقال زفر: يوم الثامن والتاسع والعاشر.

يتوجهوا بالصعود إلى عرفة في صباح اليوم التالي، ثم مشينا لنصل إلى ما يشبه قرية قالوا إنها (منى).

صلينا فيها صلاة المغرب، وفي الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي وصلنا إلى عرفة، وكان الازدحام شديداً بدرجة لا توصف، وكانت الخيام مبعثرة على مدّ النظر. وانشغل الجميع بإعداد الطعام، وبعد صلاة الفجر مباشرة بدأ الحجاج بتناول الفطور وشرب الشاي كأنهم يطبقون الآية الكريمة (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية). وجاء الأدلّاء وهم ينادون: يا حجاج! عرفات سلامت! مملكت سلامت! الله سلامت! ويكررون ذلك مراراً وأنا أتعجب لا أفهم المقصود منها، وجاء بعض الخدم وهم يرددون نفس العبارات. ظل الحجاج داخل خيامهم، وبين الحين والآخر يمرّ بعض طلبة العلم ويطلبون الصدقة من الموجودين.

وعرفة يشبه صحراء واسعة يحيط بجبل الرحمة، أما عدد الحجاج الموجودين في عرفة فلا يعلمه إلا الله تعالى. مرّ إمام جبل الرحمة ثم توقف في المحل المخصص له وكان يعتلي جملاً أبيض اللون، وأحاط به الحجاج وهم ينادون: (لبيك اللهم لبيك) وتملأ أصواتهم عنان السماء، وكان زملاءنا التتاريون لا يزالون جالسين في خيامهم لا همّ لديهم سوى الاستزادة من شرب أقداح الشاي واحداً بعد الآخر[1].

---

(١) الشاي في منطقة تتارستان ووسط آسيا من العادات المشهورة والملازمة لأهالي تلك البلاد، مثل القهوة في منطقة الشرق الأوسط.

حلّ المساء وبدأ الناس بجمع أمتعتهم، وركب البعض الجمال التي كانت تنتظرهم، ووقفوا ينتظرون غروب الشمس، وقيل لنا إن شريف مكة سيمرّ من هناك فأفسحوا له الطريق.

وجاء وقت النزول من عرفات والحجاج بين ماش على قدميه أو راكب جمل أو حمار، وبعد أن سرنا حوالي عشر دقائق أُطلقت المدافع. إن هذا المنظر العظيم والمهيب غير قابل للوصف، وأنا عاجز عن ذلك بالفعل، وما على المرء إلا أن يشاهده بنفسه، ولك أن تتصور كيف يتسنى لمائة ألف من البشر من أجناس وأقوام مختلفة من المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها أن يجتمعوا في مكان معين دفعة واحدة وفي آن واحد وفي جو يسوده الوئام والسلام.

وصلنا بعد ساعتين إلى (مزدلفة) وقيل لنا نجمع بين صلاتي المغرب والعشاء، واختلف البعض حول أي الصلاتين تؤدى أولاً، ثم سألْنا بعض الملالي هناك وعملنا برأيهم.

في اليوم التالي بدأ الناس بجمع الحجارة استعداداً لرمي الجمرات وكنا نسمع صيحات الاحتفال بالعيد، وقد عمت البهجة، وسمعنا أصوات طلقات الرصاص.

وبعد صلاة الفجر استعد الحجاج من البدو للرحيل فجمعوا أمتعتهم وركبوا الجمال وغادروا المكان. وصلنا إلى منى مع شروق الشمس، وهي ليست صحراء قاحلة

وإنما مدينة متكاملة وفيها أبنية خاصة كثيرة، وبعد أن وضعنا أمتعتنا ذهبنا لذبح الأضاحي وقد مرض نعمت الله حاجي؛ لذلك وكلني عنه في هذه المهمة. وهكذا بلغ عدد الأغنام التي ذبحناها مع رفقائنا عشرين ضحية.

وقد لفت نظري رخص ثمن الأغنام الذي لم يتجاوز مجيديتين[1] وكثير من الحجاج لم يكونوا يساومون على السعر[2]، وإنما يدفعون الثمن الذي يطلب منهم بعد ذبح الضحية دون نقاش، وكان القصّابون يحصلون على مبالغ كبيرة لكثرة الأغنام التي يذبحونها، وكنت أشعر بهاجس عدم كفاية الأغنام الموجودة لهذا الحشد الهائل من الحجاج الراغبين في نحر الأضاحي.

عدت إلى رفاقي الذين أعدوا الفطور وحلقوا رؤوسهم وخرجوا من الإحرام مرتدين ملابسهم العادية، بعد ذلك ركبنا ظهور الحمير التي أخذتنا إلى الحرم الشريف للطواف حول الكعبة المشرفة، وبعدها مباشرة جاءنا الدليل يقول لنا: الآن انتهت

---

(١) المجيدي اسمه الأصلي (الريال المجيدي) واختصره الناس إلى مجيدي، وهو نقد عثماني فضي ضربه السلطان عبدالمجيد سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤م) فنسب إليه، ومع أن السلاطين الذين تولوا بعد عبدالمجيد ضربوه بأسمائهم إلا أنه ظل يحتفظ باسمه على ألسنة الناس وبقي المجيدي في التداول في الجزيرة العربية وخاصه في مكة والمدينة ولم ينته التداول به إلا بعد سك الريال العربي السعودي. كانت قيمة المجيدي تعادل خمس الليرة الذهبية الا أن قيمة صرفه كانت تختلف بين الخزينة والسوق، ففي الخزينة كان يعادل عشرين قرشا وفي السوق خمسة وعشرين قرشاً أو أقل قليلاً في بعض المدن كما كان يعادل ٨٠٠ بارة عثمانية، وكانت للمجيدي أجزاء وهي: نصف مجيدي وربع المجيدي.

(٢) حتى لا يدخلوا في صنف المجادلين بالآية الكريمة ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ البقرة ١٩٧.

شعائر الحج وبذلك أصبحتم حجاجاً، وعدنا إلى (منى) وبقينا فيها ثلاثة أيام لرمي الجمرات.

بعد ذلك عاد الجميع إلى مكة المكرمة وهم فرحون مستبشرون، وانشغل البعض بشراء كميات مختلفة من ماء زمزم. والحجاج الذين زاروا المدينة المنورة قبل الحج بدأوا يغادرون إلى بلدانهم، أما نحن فقد قررنا أن نزور مدينة الرسول ﷺ ضمن القافلة التي كانت تستعد للسفر إليها. ولقد انشغلت يومين أو ثلاثة في أداء واجب العمرة عن ثمانية أشخاص كلفوني بهذه المهمة، وعلى القائم بهذا الواجب أن ينوي ويلبس ملابس الإحرام ويذهب إلى الموقع المسمى (التنعيم) على مسافة ساعة واحدة من مكة المكرمة ثم يعود ويقوم بالطواف والسعي. بعد ذلك يحلق شعر رأسه، وعليه أن يقوم بهذه العملية سواء بقي الشعر في رأسه أو لم يبق. وقد حصلت على ثماني ليرات ذهبيه بعد إتمام واجب العمرة. وقد لازمني بعد ذلك صداع شديد، وبعد أن صرفت الليرات الثماني التي حصلت عليها فقد استمر الصداع معي منذ ذلك الحين.

وفي اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة تحركنا نحو المدينة المنورة ضمن قافلة كبيرة، وامتطى كل من نعمت الله حاجي ونصر الدين حاجي وصادق حاجي ظهور الخيول المطهمة[1] وكان من نصيبنا أن نركب ظهور الجمال المحمّلة بأمتعتهم

(١) في "لسان العرب" المُطَهَّمُ من الخيلِ: الحَسَنُ التام.

وسنقطع المسافة في أحد عشر يوماً، وخلفنا كانت تسير قافلة أخرى من الحجاج مشياً على الأقدام، تليها قافلة من النساء.

وصلنا إلى وادي فاطمة بعد مسيرة ست ساعات، وهنا صاح الجمّال المسئول عن القافلة قائلاً: (حرامي كثير مشمش مافيش). تعجبت من كلامه ولم أفهم منه شيئاً. سألت الآخرين فأجابوني بما معناه: (انتبهوا في هذا المكان يكثر قطاع الطرق).

وهنا شربنا الشاي وأعددنا الطعام ثم غفونا قليلاً ونهضنا على صوت صياح يقول: (حرامي.. حرامي).

حصل هرج ومرج وعلمنا بعده بأن قطاع الطرق هاجموا أحد الحجاج وأصابوه بجروح وسلبوه نقوده وهربوا. فاستعد الجميع للحركة عند الفجر وانطلقنا في السير طيلة أربع عشرة ساعة حتى المساء دون توقف وبلغنا موقعاً يسمونه (عسفان)، وهنا أخذت أشعر بصعوبة السفر على ظهر الجمال لمن لم يتعود عليه وأن ذلك يؤدي إلى هدّ كيان الإنسان وإلى التعب الشديد لأعضاء الجسم كافة.

وعندما مررنا بموقع يسمونه (خليص)، وقعت عيني على طفل بجانب الطريق وهو يبكي بحرارة، نزلت محاولاً معرفة مشكلته وكلمته بعدة لغات دون طائل، ثم حملته ووضعته أمامي على ظهر الجمل، فجاء الجمّال معترضاً وهو يقول: إني قبضت أجرة لشخص واحد وليس لشخصين. فشددت الطفل على ظهر الجمل واستغرق في

النوم بينما نزلت أنا إرضاءً للجمال واستأنفت السير ماشياً، وبقيت على تلك الحال مدة سبع عشرة ساعة إلى أن بلغنا مكاناً اسمه (رابغ). كان الطفل لا يزال يغط في النوم وقد تورمت قدماي من المشي واحمرت عيناي وأنا أشعر بتعب شديد.

أيقظت الطفل وأنزلته من فوق الجمل محاولاً أن أتوصل منه إلى أي معلومات ولكن دون نتيجة، وأصر على صمته وصحبت الطفل وأكلنا وشربنا الشاي، ثم نام الطفل ونمنا واستيقظنا صباحاً وتناولنا الفطور وجاء بائع الحليب فاشتريت منه قدحاً من الحليب أسقيته الطفل، ثم عدت أسأله من يكون وما هي مشكلته. بدأ بالكلام ولكنه لم يذكر شيئاً عن هويته وأين بلده وأبواه، فعرضته على سائر الموجودين في قافلتنا فلم يتعرف عليه أحد غير أن واحداً منهم ذكر بأنه رأى هذا الطفل مع أبيه في وادي فاطمة. لم يتقدم أحد في القافلة للعناية بالطفل مما اضطرني لاستئجار دابة أخرى دفع أجرتها نعمت الله حاجي.

وصلنا المدينة المنورة وهناك سلمت الطفل إلى إحدى المدارس بكفالة دليلنا وهو كل ما كان باستطاعتي أن أفعله. حمدت الله على وصولنا إلى المدينة المنورة حيث توجهت مباشرة للحرم النبوي الشريف وزيارة صاحب القبر السعيد الرسول ﷺ وكنت أشعر بسعادة غامرة؛ إذ كتب الله لشخصي العاجز أن أتشرف بزيارة مدينة الرسول الكريم نورها الله إلى يوم القيامة، ثم عدنا إلى المنزل الذي استأجره حجاجنا

الذين نقوم على خدمتهم فارتحنا قليلاً وتناولنا الطعام، وقضيت ليلتي الأخيرة مع هؤلاء الحجاج الطيبين الذين ساعدوني في الوصول إلى هذه المدينة العزيزة على نفسي.

وفي اليوم التالي خرجت أبحث عن أهالي بلدتي، فوجدت "عبدالستار أفندي"[1] الذي كان شيخاً لإحدى التكايا الأربع المخصصة لفقراء (قازان) في المدينة المنورة فخصصوا لي مكاناً في التكية وأتيت بأمتعتي وفراشي إلى المكان. وكان بين الزملاء الذين تعرفت عليهم "شاكر عبدالحق أفندي" الذي كان يقيم في المدينة المنورة مع أبيه وكان من سراة القوم[2]، أما أنا فكان عندي مبلغ بسيط من المال يكفيني رغم قلته.

وفي هذه المدينة الطيبة تعرفت على عدد من المسلمين من أهل (قازان) من بينهم أربعة ممن سبقوني في الوصول إلى هذه الديار، ووجدت ثمانية أشخاص جاءوا إليها طلباً للعلم، وفي هذه السنة بلغ عدد الطلبة ستة طلاب وأنا واحد منهم فأقمنا في

---

(١) عبدالستار بن جابر القازاني الإستراخاني، هاجر إلى المدينة المنورة في حدود سنة ١٢٧٥هـ وكان رئيس الجالية التترية بالمدينة وبدأ بجمع الأموال من أهالي تتار فأرسلوا له الأموال ليبني تكيّة ومسجداً ومدرسة، وكان المسجد ملحقاً بمكتبة المدرسة بزقاق جعفر بالقرب من باب الكُومة بناه في عام ١٣١١هـ وما ذكره السيد أحمد ياسين الخياري في كتابه "تاريخ معالم المدينة المنورة" من أن المسجد بني عام ١٢١١هـ هو سبق قلم ولعله خطأ مطبعي. وغالبية التتار الذين استقروا في المدينة المنورة جاءوا بعد الاضطرابات التي نشبت في بلادهم عام ١٣٠٩هـ (١٨٩٢م) وذريتهم مازالت موجودة بالمدينة. والمكتبة "القازانية" مازالت محفوظة في مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة تحتوي على ٢٤٩٩ مجلد مطبوع و ١٥١ مخطوط.

(٢) أي: من الميسورين مالياً.

المدينة بهذه الصفة. ومن بين هؤلاء "حنان أفندي" وهو من جماعة الباشقورت و"عبدالله مخدوم" من ناحية چيلابي وكلاهما من بلاد (بخارى)، وقد سلكا طريق الهند في الوصول إلى هنا، وكذلك "عبدالحق أفندي" الذي جاء من بلدة (تيومان). وعند دخولي إلى غرفتي وجدت فيها عبدالحق أفندي الذي غادرني للدخول في مدرسة المحمودية بقيت أنا في تلك الغرفة الملحقة بتكيّة عبدالستار أفندي.

في الأيام الأولى لإقامتي في المدينة المنورة كنت مهموماً إلى حدٍ ما لسبب لا أدريه، وكان زميلي في الغرفة عبدالحق قد ذهب إلى الحرم الشريف، وبعد خروجه بلحظات قمت وتوضأت وأنا أنوي زيارة الحرم، وما أن وضعت قدمي على السلم المؤدي إلى الخارج حتى شعرت بلدغة مؤلمة في الإصبع الوسطى في يدي اليسرى، وعلى الفور ضغطت على الإصبع وشددتها بقطعة قماش، ولكن الألم استمر بشدة وتحول لون الإصبع إلى أسود غامق، وجعلني ذلك الألم عاجزاً عن الذهاب إلى الحرم فصليت صلاة الفجر في الغرفة وأنا آسف على حرماني من الذهاب إلى الحرم.

عاد عبدالحق بعد ساعة ورَويت له ما حدث فقال: لا شك أنها لدغة عقرب فقلت: إنني لم أر أي حشرة، ثم جاء هادي أفندي من طلبة مدرسة المحمودية، فلما علم بما حدث لي أكد بأن العقرب لا يزال في مكانه، وأخذ يبحث عنه فوجده في الحال وقتله ثم أحرق الحشرة ووضع رمادها فوق موضع اللدغة. وفي هذه الأثناء جاء عبدالستار أفندي ولما علم بالحادث قال: إن الرماد لا يفيد في علاج اللدغة وإنما الأفضل الصبر

على الألم لمدة ٢٤ ساعة. وفعلاً عانيت من تلك اللدغة حوالي ٢٤ ساعة قبل أن يخف الألم ورحت بعده في سبات عميق.

بعد استراحة يومين أو ثلاثة بدأت أفكر في موضوع دراستي، وقد عرضت الفكرة على بعض المختصين الذين اختلفت آراؤهم حول الموضوع، وأخيراً اتفقت مع طلبة آخرين أمثالي على أن ندبر أمورنا بأنفسنا، ونتتلمذ على "أحمد ضياء أفندي"[١] وهو أستاذ من قرية طارخان بولاية سمبر، وقد حصل على تعليمه الابتدائي في قرية (طارخان) وانتقل بعدها إلى استانبول وأكمل تحصيله العلمي في البلاد العربية، وكان يتميز بعلمه الغزير.

وهكذا قضينا سنة واحدة تحت رعاية هذا الأستاذ في نفس التكيّة التي نقيم فيها. وكنت أحياناً أشكو حالي إلى الأستاذ وكان يؤيدني في عدم رغبتي في العودة إلى بلادنا، ولكنه يستطرد قائلاً يا بني لا تستعجل فقد يغير الله من حال إلى حال، ويضيف قائلاً: إنك الآن تقول هذا الكلام وقد تغير رأيك بعد خمس سنوات، لذلك لا تقطع برأي نهائي واترك الأمر للأقدار وهذا هو أسلم الطرق التي يجب أن نسلكه.

---

(١) الشيخ أحمد ضياء الدين الطرخاني من أهل قازان، ولد بقرية كجك التابعة لولاية سمبر حوالي عام ١٢٦٨هـ وأقام بمدرسة الملا عبدالناصر بقصبة بووا ثم سافر إلى اسطنبول وأخذ عن علمائها، ثم هاجر إلى المدينة المنورة وسكن بمدرسة المحمودية وأخذ عن علمائها وكان له استعداد جيد وذكاء وفطنة وكان شاعراً، أخذ الطريقة النقشبندية عن شيخه مظهر الدهلوي قدس الله روحه وصحب السيد محمد صالح الزواوي، توفي بالوباء في مكة المكرمة بعد أداءه الحج في يوم الأربعاء ١٨/ ١٢/ ١٣٠٧هـ. تلفيق الأخبار لمحمد مراد رمزي.

استمرت إقامتنا في هذه المدينة المباركة التي لم يكن بها بريد أو برق، ولا نصادف أحداً يأتي إليها من بلادنا أو يذهب إليها، ونشعر وكأننا نعيش في عالم آخر، حتى الاتصال مع مكة المكرمة مقطوع كذلك باستثناء حقيبة ترسل باسم شيخ الحرم مرة كل شهرين، ويتأخر وصول الحقيبة مدة خمسة أشهر أحياناً، والبريد الخارج من المدينة المنورة ينبغي أن يوضع في تلك الحقيبة. وكمثال على ذلك، أني كتبت رسالة إلى أخي وكتبت عنوانه باللغتين العربية والروسية ووضعتها في تلك الحقيبة المباركة، فوردني الجواب ضمن محتويات الحقيبة المذكورة من بلدتي (تارا) في سيبيريا بعد مرور ثمانية أشهر.

وهذه لها قصة، ففي أحد الأيام كنت جالساً في الحرم الشريف حين سمعت شخصاً يناديني: يا عبدالرشيد أفندي.

فقلت له: أنا عبدالرشيد.

فقال لي: إن شيخ الحرم[1] يريد مقابلتك.

---

(١) هو الشيخ شريف باشا شيخ الحرم النبوي، وهو الذي جدد بناء مسجد السبق بالمناخة في عام ١٣٠٣هـ، وذكره علي موسى أفندي بأنه (شيخ الحرم السابق) في كتابه عن وصف المدينة المنورة في ٢١/٦/١٣٠٣هـ. استلم المشيخة من عثمان باشا، ويروى أنه أمر بنقل ٦٠ كتاباً من مكتبة عارف حكمت إلى اسطنبول وكتب أمامها في السجل (م) أي مفقودة بالرغم من أن صك وقفيتها يمنع إخراج كتبها خارج المدينة. وابنه محمود جميل بيك كان يصرف له راتباً من الدولة العثمانية.

وكان شيخ الحرم النبوي: له جميع أحكام السياسة بالمدينة المنورة، فله سلطة دينية ودنيوية، بمثابة حاكم المدينة المنورة ويتواصل مباشرة مع الخليفة إضافة إلى وظيفة مشيخة الحرم النبوي، ويشترط أن=

فأخذني إلى شيخ جالس في موقع كبار الرجال، فسلمت عليه وقبلت يديه وجلست، فبادرني بالسؤال قائلاً: من أين أنت يا بني؟

فقلت: إنني من سيبيريا. فناولني ورقة كانت في يده وهو يقول: هذه الرسالة لك.

ثم سألني: من أين جاءت تلك الرسالة؟

فقلت: من سيبيريا.

فقال: من مكان بعيد حقاً.

سلمني الرسالة وقرأتها والدموع تنزل من عيني، ولم تكن فيها أخبار مهمة، وكنت في رسالتي إلى أخي أخبرته بأن يمسحوا اسمي من سجلاتهم، وأنني لن أعود إلى بلدتي مرة أخرى فاعتبروني ميتاً، وكان أخي يشير في رسالته إلى كلامي هذا.

ثم قال لي شيخ الحرم: هل تأذن لي بقراءة الرسالة. فناولته إياها وقرأها.

=يكون من أهل العلم وتقلب في القضاء وأن يتقن العربية وتجاوز الثالثة والستين وله مكان مخصص في الحرم النبوي (دكّة شيخ الحرم ملاصقة لباب جبريل عليه السلام من جهة الشرق بجانب مخزن الآغَوات) وكان شيخ الحرم سابقاً من الآغوات ثم صار من الوزراء وكبار الرتب العسكرية، وله راتب يصرف من الدولة العلية. المصادر: وصف المدينة المنورة لعلي موسى أفندي، تاريخ معالم المدينة لأحمد خياري، وصور من الحياة الاجتماعية بالمدينة لياسين خياري، وتحفة المحبين والأصحاب لعبدالرحمن الأنصاري، ومرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا، وأشهر المساجد في الإسلام لعبدالمجيد بكر، المكتبات العامة بالمدينة لحمادي تونسي.

فقال لي: ماذا كتبت لأخيك يا بني؟ هل إنك حقاً كتبت بأنك مت؟ ثم ضحك وقال: إنك شاب مسلم ومثل هذا الكلام لا يليق بك. ثم إنك إذا بقيت هنا فماذا تعمل وكيف تعيش؟ إنك أتيت من بلاد بعيدة وأوصيك ألا تستمر في الإقامة هنا بعد إكمال تحصيلك العلمي وتعود إلى بلادك بدون تأخير.

ودعته بعد تقبيل يديه، وقررت الدخول في زمرة الطلبة مرة أخرى وأقبلت على الدراسة بصورة جدية لا أبالي بالتعب وأتحمل الفاقة المادية؛ إذ كنت وفرت ٣٥ روبلاً[١] لكي أدفعه إلى شريف في (قشقار) الذي تسببت في ضياع فرسه في حينه، ولم أجد وسيلة لكي أرسل المبلغ إليه، ولم أصرف منه شيئاً حتى في الأيام التي كنت في أشد الحاجة إليه.

قد حلَّ شهر رمضان المبارك فانشغل جميع أهل المدينة بالعبادة وتلاوة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً، وبلغني أن إماماً يدعى "عمر زاهد"[٢] ختم القرآن الكريم في ليلة واحدة فأثر ذلك عليّ كثيراً وقررت أن أحفظ القرآن.

---

(١) الروبل الروسي قطعة نقدية فضية كان يصرف في ذلك الوقت تقريباً باثني عشر قرشاً. والمجيدي يصرف تقريباً بعشرين قرشاً، ويعادل حوالي روبلاً واحداً و٦٠ كوبكاً.

(٢) عمر بن محمد زاهد توفي سنة ١٣١٨هـ، وابنه زاهد كان أيضاً إماماً بالحرم النبوي الشريف توفي سنة ١٣٤٨هـ. بيت زاهد كان من أحد البيوت التي توارثت الإمامة بالحرم النبوي، وقد ذكر علي موسى أفندي (وهو أحد الأئمة المالكية بالحرم النبوي) إن عدد الأئمة والخطباء بالحرم النبوي في عام ١٣٠٣هـ كان يتجاوز المائة والسبعين بين أحناف وشوافع وموالك. كما ذكر عبدالرشيد إبراهيم في كتابه "العالم الإسلامي" أثناء رحلة الحج عام ١٣٢٨هـ منتقداً: أن عدد أئمة الحرم النبوي الشريف يبلغ قريباً من=

واستشرت في ذلك أحد مشايخ القرّاء المدعو الشيخ أحمد أفندي، فقال لي: هذا شيء جميل وما أسهل حفظ القرآن ولكن المشكلة تكمن في النسيان بعد الحفظ، وأضاف: لا تستعجل يا ولدي وأمامنا موسم الحج.

داومت على الدراسة بانتظار موسم الحج وعندما حان الموسم صادفت من بين حجاج بلادنا "قزلقاش طيب حاجي" و" أوبا حسين حاجي" الذي جلب لي رسالة من أخي وفيها مبلغ من المال، وقال لي عبدالفتاح باي: إذا أكملت تعليمك فإننا بحاجة إليك في (تارا).

لقد أسعدني هذا الكلام كثيراً، إلا أنني لم أكن راغباً في العودة إلى (تارا). وفي هذه الأثناء جاء إلى الحجاز "ذو القرنين خواجه" وهو من أهل (تيومان) وسلمني مبلغاً من المال مقابل قيامي بأداء فريضة الحج بدلاً عن شخص آخر، وأوصلني معه إلى مكة المكرمة، وعند الطواف صادفت "عبدالرحمن أفندي بن عبدالله حاجي" من أهالي (قازان) وكنت قد تعرفت عليه أثناء وجودي في (قشقار) وطلب مني أن أساعده في اختيار بعض الكتب لإرسالها إلى (قشقار) مع شخص اسمه "قاسم" لأنه شخصياً قد

=مائة وبينهم أئمة لم يروا الحرم أصلاً حتى الصلاة لا يعرف أداءها على الوجه الصحيح أولا يريد أن يؤديها، هذه الإمامة التي ورثها عن أبيه إذا جاء دوره فيها مرتين أو ثلاثة في العام دفع إلى أحدهم بضعة قروش ووكله بالإمامة واستمر هو في استلام راتبه كل شهر. وبين هؤلاء الأئمة أطفال لم ينبت الشعر على وجوههم، حفظ بضع آيات، لا يعرف شروط الصلاة ولا شروط الوضوء وهو إمام في الحرم النبوي؛ لأن أباه كان إماماً. ثم أضاف: والواقع أن الحرم النبوي لا يخلو من أئمة قديرين وقورين ومعمرين ولكن لا يأتي دورهم إلا كل ستة أشهر.

يتأخر في الديار المقدسة سنة أخرى، فقبلت العرض ووجدتها فرصة سانحة لتسليم ذلك الشخص المبلغ الذي وفرته ثمناً للفرس الذي فقد مني في الطريق لكي يوصله لشريف آغاي[1] صاحب الفرس عند عودته إلى (قشقار). وهكذا اطمأن قلبي من هذه الناحية وكان هذا الهاجس يقضّ مضجعي ليل نهار منذ أن تسببت في فقدان فرس ذلك الرجل الطيب.

وخلال هذه السنة استتب الأمن في الديار الحجازية، إلا أنه خلال وجودنا في مكة المكرمة، ظهر الوباء وتوفي كثير من الحجاج أمام أعيننا في (منى)، وكان المئات منهم يدفنون يومياً، ولكن الله تعالى وقانا من هذا البلاء وعدنا سالمين إلى المدينة المنورة.

استأنفت دراستي التي أقبلت عليها بشوق ورغبة لمدة سنة واحدة، وكنت قد استأجرت غرفة في مدرسة أمين آغا، وبدأت الدراسة مع حفظ القرآن الكريم الذي شجعني عليه أستاذ المدرسة، وبدأت بالحفظ في اليوم الأول من شهر محرم سنة ١٢٩٨هـ، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأت البسملة وقرأت سورة الفاتحة، وكان شيخ المدرسة يراقبني وقال لي: هل تعلم الحكمة الكامنة في الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؟ لأن الشيطان عليه اللعنة يقف حائلاً أمامك ليمنعك من القراءة ومن فهم معاني ما تقرؤه؛ لذلك فإن الاستعاذة بالله أصبحت سنة لقارئ القرآن الكريم.

---

(١) ذكره في بداية الكتاب باسم "صوقر شريف".

ثم ذكر لي بعض التوصيات المفيدة وكثيراً من التفاصيل حول تجويد القراءة، ثم شرح معنى البسملة وسورة الفاتحة وأضاف الأستاذ: يا بني إنني أكاد أرتجف من خشية الله كلما قرأت القرآن، ألا تلاحظ بأننا نشعر بالخوف ونرتجف أمام رجال الأمن عندما نكلمهم فما بالك ونحن نقرأ كلام خالق الكون سبحانه وتعالى وهو الذي يرانا ويسمعنا أينما كنا.

واستطرد قائلاً: إنني سأواصل تقديم النصائح لك وعليك أن تسمعني وتعمل بما أقوله لك حيث يقول سبحانه وتعالى: (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) واسترسل الشيخ في الكلام وشرح لي آيات سورة الفاتحة ومعانيها الجليلة وشجعني على مواصلة القراءة قائلاً: (همة الرجال تقلع الجبال)[1]. وهكذا بدأت بحفظ القرآن الكريم.

وكنت كذلك أحضر دروس الحديث الشريف، وكان أستاذنا في القراءة من بين الذين خدموا سلاطين آل عثمان، وقد تلقيت الدروس على يديه لمدة أربع سنوات، وكنت أحضر دروس الفقه عند الأستاذ "أحمد ضياء الدين" ودروس الفرائض

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء: لم أقف عليه أنه حديث، لكن نقل بعضهم عن الشيخ أحمد الغزالي أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (همة الرجال تقلع الجبال) فليراجع.

وخلاصة الحساب عند "آخون جان أفندي"[1]، وقضيت سنة أخرى في مدرسة "أمين

---

(١) الشيخ آخوندجان بن المفتي محمد هادي بن محمد مراد بن إدريس البخاري المَرْغيناني المكي رحمه الله، ولد رحمه الله في شعبان من عام ١٢٤٣هـ في بلدة "مَرْغينان" بوادي فرغانة في بلاد ما وراء النهر بتركستان الغربية (أوزبكستان) حفظ القرآن الكريم وتلقى العلوم ببلاده وبخارى. هاجر رحمه الله إلى الحرمين عام ١٢٧٩هـ فأدى فريضة الحج ثم استقر في المدينة المنورة وقرأ على من بها من العلماء الأفاضل كالمحدث الشهير الشيخ عبدالغني الهندي المجددي ولازمه مدة وافرة كبيرة وقرأ عليه كتباً كثيرة من الحديث وأصوله والتفسير والفقه الحنفي وأصوله وغيره فأجازه بسائر مروياته، ثم قرأ في الفقه على الشيخ الخرنوبي بالمحمودية. أقام بالمدينة المنورة حوالي ٢٣ عاماً فسافر إلى السودان ثم رجع إلى مكة المكرمة عام ١٣١٠هـ وأقام بها إلى وفاته، وتصدّر للتدريس بالمسجد الحرام وانتفع به كثير وألف العديد من المصنفات، وعرضت عليه الفتوى في بلده فلم يقبلها، وكان مشتغلاً على الدوام بالتدريس والإفتاء والإفادة والمواظبة على أداء الفرائض مع الجماعة والتأليف. كان رحمه الله إماماً فقيهاً ذا ذهن مستقيم وطبع سليم مع كثرة التواضع والخلق الرضي والوقار وسلوك طريق السلف من أهل السنة والجماعة وعظم الرغبة في العلم والمذاكرة.

ومن طلبته: الشيخ محمد إكرام بن محمد ملا عبدالسلام البخاري، والشيخ محمد مراد رمزي، والشيخ الداعية عبدالرشيد إبراهيم القازاني، وأجاز الشيخ عبدالله مرداد أبو الخير.

ومن مؤلفاته: "تعليقات على المنسك المتوسط"، ورسالة في "صلاة العصر" يرد فيها على السيد أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية، ورسالة في "صلاة العشاء" يرد فيها على أبي الحسن السندي الكبير ويؤيد ابن نجيم، ورسالتان في "الدخان" الأولى يرد فيها على الشيخ عبدالحي والثانية طويلة، ورسالة "متعلقة بالحوض والغدير الكبير" معرضاً لابن عابدين، ورسالة في "الأبحاث الثمانية التي ذكرها ابن عابدين في رد المحتار في باب الأنجاس" راداً بها عليه، ورسالة في "مسألة العشر في العشر" معرضاً لابن عابدين أيضاً فيها، ورسالة "تتعلق بالرمي قبل الزوال في اليوم الثاني والثالث من أيام النحر"، ورسالة تتعلق في "الكلام على اللحية"، ورسالة في "الفلك"، ورسالة في "تجويز الإشارة بالسبّابة في الصلاة" جمع فيها الروايات الحديثية والفقهية وقد أجاد كل الإجادة. توفي رحمه الله بمدرسته التي أنشأها في مكة المكرمة وأوقف كتبه بها بالمسفلة، في يوم الثلاثاء في الثاني عشر من شهر ذي القعدة سنة ١٣٢٠هـ ودفن بجنة المعلاة. "علماء ما وراء النهر المهاجرين للحرمين" لمنصور عبدالباقي بخاري (ص ٨٠).

آغا" ثم انتقلت إلى مدرسة الشفاء[1]، وكانت غرفتي فيها نظيفة وصحية، وكان معي زملاء لي من أهلنا التتار من بينهم "موسى أولي نعمت الله" من (أورينبورغ) الذي كان يسعى لحفظ القرآن الكريم.

كنت جالساً في مدرسة الشفاء عندما جاء خادم شيخ الحرم وناولني رسالة قال: إنها من قبل حضرة الشيخ، فتحت الرسالة فوجدت أنها مكتوبة بلغة غير الروسية أو التتارية. وضعت الرسالة في جيبي وتوجهت مباشرة نحو الحرم الشريف وهناك قابلت الدكتور "قدري بيك"[2] الذي كان من الأطباء المعروفين وأكمل تحصيله العلمي في فرنسا، وكان رجلاً ذا خلق ودين وأطلعته على الرسالة، فقال: إن المكان هنا غير مناسب ونحن داخل الحرم النبوي، وأفضل أن أقرأ لك الرسالة إذا أتيتني في داري مساءً. كانت الرسالة طويلة وأنا أشعر بالقلق لجهلي بمحتوياتها.

---

(١) أنشأها شيخ الإسلام فيض الله الهندي عام ١١١٢ هـ (١٧٠٠م) وهو من علماء الدولة العثمانية تولى منصب شيخ الإسلام مرتين. كان سخياً يُنفق بسخاء في إنشاء المساجد والمدارس والمبرات الخيرية وله أوقاف عدة في استانبول وأرضروم ودمشق وقد زار المدينة وبعد عودته أرسل الأموال اللازمة لشراء الأراضي وإقامة المبنى فأقيم في حارة ذروان (ذَرَوان) وتحتوي على أكثر من عشرين غرفة واحدة للناظر وأخرى للمكتبة وأخرى لحافظ الكتب وأخرى للمدرس وأخرى للتدريس وست عشرة غرفة لإقامة الطلاب ومسجد ومطبخ، وقد أوقف لها عدة عقارات في المدينة وخارجها وظلت تؤدي دورها إلى نهاية العهد العثماني. التاريخ الشامل للمدينة المنورة د. عبدالباسط بدر.

(٢) كان في المدينة المنورة يوجد طبيب مقيم واحد وفي مكة المكرمة طبيبان فقط، ويأتي مع كل محمل شامي ومصري طبيب واحد فقط في فترة الحج.

وعند المساء ذهبت إلى الدكتور قدري الذي أخذ الرسالة من يدي وبعد أن نظر إلى السطور الأولى منها وضعها بجانبه ثم التفت إليّ قائلاً: يا رشيد أفندي، إنني كنت راغباً في رؤيتك منذ مدة لأتحدث معك طويلاً وأسألك بعض الأسئلة، فإنني أود أن أعرف من أي البلاد الروسية أنت، فأنا أعرف روسيا جيداً؛ إذ تجولت في أنحاء كثيرة منها قبل الحرب حتى وصلت إلى (قازان).

أجبته: يا سيدي إنني من ولاية (طبول) في (سيبيريا).

فقال: إنني لم أصل إلى تلك الولاية ولكن صاحبنا "سليمان" قد زار تلك البلدان حتى وصل إلى (سيمي پولات) والأنهار السبعة[1]، وقد كتب مقالات عديدة عنها في صحيفة (عمران)[2]، وأود هنا أن أسألك لماذا لم تشكل قوة عسكرية في بلادكم؟ وقد سألت عن ذلك "إسحاق بايدي" من وجهاء (قازان) المعروفين ومن المؤسف أنني لم أستطع أن أفهمه قصدي أو الحصول على أية معلومات مفيدة منه، وكنت أتحدث معه عن طريق أحد المترجمين وكان هذا المترجم يفهم قصدي تماماً، لكن مما يؤسف له أنه لم يكن يحمل أي فكرة عن السياسة، وكان ضد فكرة تشكيل قوة عسكرية، وأكد لي أن المواطنين في تلك البلاد عامة يكرهون الخدمة العسكرية حتى أن الكثيرين ممن يدعون إلى الخدمة الإجبارية يعمدون إلى تشويه أجسادهم بقصد التهرب من تلك الخدمة،

---

(١) الأنهر السبعة هي ولاية (يدي صو) وعاصمتها (آلما أتا) عاصمة كازاخستان السابقة.

(٢) كتب في هذه الصحيفة التركية أيضاً فيما بعد الشيخ عبدالرشيد إبراهيم، وكتب في صحيفتي البصيرة والوقت أيضاً وغيرها.

وللأسف هناك من يتبع هذا الأسلوب في بلدنا تركيا أيضاً، ولكن في حدود ضيقة وهذه محاولات فردية لا علاقة لها بالسياسة.

ثم عاد يسألني: وما هو رأيك أنت؟ ولماذا لا يتقدم السيبيريون إلى تشكيل قوة عسكرية خاصة بهم؟

فقلت: أنا شاب في الثالثة والعشرين من عمري وسني لا يساعدني على فهم هذه الأفكار.

فقال: إن هذا شيء يؤسف له حقاً، فعندما جئتني وبيدك مثل هذه الرسالة ظننت أنك تحمل معك خزيناً واسعاً من الأفكار، حتى إنني فكرت في أن أرسلك إلى استانبول، فهل أستاذك الذي يعلمك القراءة هنا لا يعلمك شيئاً آخر غيرها؟

فأجبته بالنفي، وقلت له: ألا تقرأ لي هذه الرسالة يا سيدي؟

فضحك وقال: هل لك أقارب أو معارف يعرف اللغة الفرنسية لكي يكتب لك تلك الرسالة؟

فقلت: كلا!

فقال: إن الرسالة ليست موجهة إليك وقد أتى بها الخادم إليك خطأً وسأعيدها إلى شيخ الحرم؛ لأنها موجهة إليه. والآن وبعد أن خاب ظني فيك أيها الشاب فأني أوصيك

أن تستمر في دراستك، وقد يشار إليك بالبنان في يومٍ ما بالمستقبل، وأود أن أسألك هل ستبقى طويلا في هذه البلاد؟

فقلت: نعم إلى ما شاء الله.

فقال: إن هذا خطأ من شاب مثلك ينبغي ألا يفني عمره في بلاد الغربة، ولو كنت مكانك لما بقيت في هذه البلاد يوماً واحداً، فأنا من مواطني الدولة العثمانية وفي استانبول كثير من المواطنين الذين يخدمون الدولة، ومع ذلك فإني أعتقد بأنني لو عشت هناك لكانت فائدتي أكثر. أما بالنسبة لك وأنت في الثالثة والعشرين من عمرك وتقضي حياتك هنا؛ فإن رسول الله ﷺ لن يرضى بذلك.

شخصياً كنت متحمساً لسماع مثل هذا الكلام، وقد سجلت كلامه بحذافيره في دفتري عندما عدت إلى غرفتي.

مرت فترة طويلة وأنا مواظب على الحفظ وتلقي الدروس، وكان عدد من زملائي مستمرين في دراستهم في خانقاه الشيخ "مظهر أفندي" الذي كان ينتسب إلى سلالة شيخ مشايخ النقشبنديين، وشجعني بعضهم على الدوام في الخانقاه معهم.

وفي أحد هذه الأيام سنحت لي فرصة التحدث مع الشيخ مظهر أفندي[1] وعرضت عليه أوضاعي ونوع دراستي وإنني مشغول بحفظ القرآن الكريم فقال: يا شيخ إن شيخك من أكبر الشيوخ وعليك أن تواصل الاجتهاد في هذا الأمر فقط. وعدت إلى مدرستي وواصلت الحفظ وتلقي الدروس المتعلقة به.

يصبح الجو مشبعاً بالرطوبة أيام الشتاء في المدينة المنورة، وتزداد الرطوبة في غرف المدرسة، أما في موسم الصيف فإن الحرارة تكون مرتفعة تتراوح بين ٢٨ و ٣٠ درجة[2]؛ لذلك فإن أهالي المدينة ينظمون أمورهم حسب الظروف فيقضون أيام الصيف في الحدائق والبساتين، وفي موسم الشتاء يقضون معظم أوقاتهم في الأدوار العلوية من دورهم. أما الطلبة فيقضون معظم أوقاتهم داخل الحرم النبوي الشريف،

---

(١) الشيخ العلامة العارف بالله محمد مظهر بن أحمد سعيد بن أبي سعيد العمري المجددي الدهلوي المدني، أحد الأعلام الهندية في المدينة المنورة، ولد في ٣/ ٥/ ١٢٤٨هـ في دهلي، وهو ابن أخ الشيخ عبدالغني الدهلوي ت ١٢٩٦هـ وأخذ عنه، حفظ القرآن في سن تسع وقرأ أكثر الكتب الدينية على والده وفرغ من علومه وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، ثم توجه إلى الحرمين وعاد إلى بلده لكنه هاجر إلى الحرمين مع والده في وقعة دهلي عام ١٢٧٣هـ فاستفاض هناك. وله من المؤلفات: المقامات المظهرية، والمعمولات المظهرية، ورسائل مولانا أحمد سعيد، وهو جد آل مظهر الفاروقي في المدينة المنورة، ومن طلبته في الطريقة النقشبندية الشيخ محمد مراد رمزي القازاني والشيخ أحمد ضياء الدين أفندي الطرخاني والشيخ محمد سعيد خان المدراسي والشيخ محمد صالح الزواوي والشيخ عبدالله الشيبي والسيد عمر بن عبدالله السقاف وغيرهم رحمهم الله، اتخذ المدينة المنورة وطناً وبنى بها مدرسة مظهر المعروفة وكان يدرّس الأحاديث النبوية. توفي رحمه الله في الثاني عشر من محرم سنة ١٣٠١هـ ودفن بالبقيع الشريف. فيض الملك الوهاب المتعالي لعبدالسلام دهلوي، والمكتوبات لأحمد السرهندي.

(٢) هذه متوسط درجة الحرارة في فصل الصيف في غرفة غير كبيرة ومحمية جيداً من الشمس، وفي الشتاء تنخفض إلى ١٣ درجة مئوية. أما تحت الشمس في الصيف فإن متوسط درجة الحرارة لا تقل عن ٤٥ درجة.

وكنت أتواجد كثيراً داخل الحرم وأنشغل بمراجعة دروسي أو الاستماع إلى الدروس والمواعظ التي تلقى هناك، والجو لطيف داخل الحرم الذي لا يخلو من مرتاديه ليلاً ونهاراً، ويشكل المركز الرئيسي للمدينة المنورة.

وفي أحد الأيام وبينما كنت واقفاً خلف الحرم أستعيد قراءة ما حفظته من القرآن الكريم وأنا مغمض العينين، فتحت عيني لأرى "حسن أفندي" المدرس في المدرسة المحمودية جالساً أمامي وهو يقول: بارك الله فيك، هكذا تكون الدراسة، ثم أضاف قائلاً: انظر أمامك هل تراهم؟ فقلت: ماذا تقصد يا سيدي؟ فقال: انظر إلى هؤلاء وقد أخرجوا المصاحف الشريفة في غرفة السند وبعد أن أكملوا قراءة صحيح البخاري بدأوا بقراءة الأدعية بقصد تخليص البلاد المصرية من الاحتلال الإنجليزي، فهل هذا هو الأسلوب الصحيح لمقاومة المحتلين[1] بينما يقول الله سبحانه وتعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ) إن هؤلاء يدافعون عن مصر بتلاوة الأدعية هداهم الله، أما أنا فرغم تواجدي في مكان قريب إلا أنه لم يكن لدي أي علم باجتماع أئمة مساجد المدينة في الروضة المطهرة وهم يقرأون القرآن الكريم ويدعون الله لتخليص مصر من الاحتلال الأجنبي. وكرر الأستاذ قوله: ليس هذا أسلوب الدفاع عن مصر، لن يغير ذلك من الواقع شيئاً طالما كان الفلاح المصري مسروراً بدخول الإنجليز إلى

---

(١) يجب ألا يحمل هذا الكلام على التقليل من قدر قراءة القرآن وصحيح البخاري أو التهوين من فضل الدعاء لتفريج الكرب ورفع الضر، فالأمور كلها موكلة على النوايا.

بلادهم، وقد يكون هؤلاء معذورون؛ لأنهم ذاقوا الأمرين تحت الإدارة العثمانية؛ لذلك فإني أوصيك بتدوين هذه النصائح، فقد يأتي يوم تحتاج فيه إليها.

قمت بتدوين ما قاله بالفعل، وكنت أجهل ما يتعلق بمصر وبالسياسة، ولم تكن هناك وسائل اتصال ولا خدمات بريدية أو برقية في المدينة المنورة، وكان سبب قراءة الأدعية أن "توفيق باشا"(١) أرسل رسولاً إلى الحجاز يحمل معه بعض المال وطلب عقد ذلك الاجتماع لتلاوة الأدعية، ثم تأكدنا من دخول الجيش الإنجليزي إلى مصر حيث وصل من هناك عدد من المصريين المنفيين من بينهم الشيخ "محمد هجرسي"(٢) الذي كان ضمن المصريين الذين قاوموا الاحتلال الأجنبي. وأود أن أذكر هنا بأن المدينة المنورة قد تحولت إلى منفى للسياسيين مثل سيبيريا للمنفيين في روسيا.

---

(١) أحمد توفيق باشا سياسي عثماني كان آخر من شغل منصب الصدر الأعظم عام ١٩٢٢م وهي ثاني أعلى وظيفة في الدولة العثمانية بعد السلطان، ولد في اسطنبول عام ١٢٦١هـ (١٨٤٥م) وتوفي فيها سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) وهو من أصل تتاري، شغل عددًا من المناصب الهامة فكان وزير الخارجية العثمانية لأربعة عشر عامًا خلال سلطنة عبدالحميد الثاني ومحمد السادس، وعين سفيراً لإيطاليا والنمسا وروسيا وألمانيا.

(٢) أبو الفتوح زين الدين محمد بن خليل الهجرسي الشافعي الأزهري، عاش في مصر وقضى في جوار الحرمين الشريفين زمناً ثم عاد إلى موطنه، تلقى علومه بالأزهر، وهو تلميذ الشيخ محمد إبراهيم السقا أحد شيوخ الأزهر وخطيب الجامع الأزهر. له مكانة بين الفقهاء ويعد من الشعراء المقلين، وله مؤلفات في التصوف منها: الجوهر النفيس على ابن إدريس، والفتوحات المدنية الهجرسية على الصلوات الإدريسية، توفي سنة ١٣٢٨هـ. معجم البابطين للشعراء، وهدية العارفين.

استطراد


غازي محمد بن الإمام شامل مع أحفاده بالمدينة المنورة عام 1899م (1316هـ)

فمثلاً نفي إلى المدينة المنورة "غازي محمد باشا الداغستاني"(١) وزعم بأنه اشترك في حركة الشركس في القصر السلطاني سنة ١٨٨٢م وخصص له راتب مائتي ليرة شهرياً، والذين كانوا يعاقبون بعقوبة أشد كانوا ينفون إلى الطائف. بعد ذلك أرسل عدد من المنفيين من مصر إلى المدينة المنورة، وجاء إليها بعض المبعدين من أَغَوَات القصور السلطانية، وكانوا متهمين بجرائم أخلاقية. كان أستاذي يذكر بعض الملاحظات السياسية أثناء إلقاء دروسه، منها

---

(١) المجاهد غازي محمد بن الإمام المجاهد الكبير شامل الداغستاني، سمّاه والده غازي محمد على اسم شيخه الشهيد "غازي محمد" الذي استشهد في نفس عام ولادته بداغستان سنة ١٢٤٨هـ. أخوه "محمد كامل" ولد في روسيا في بلدة كالوغه، حين كان الإمام شامل منفياً بها، ومحمد كامل هو والد المجاهد سعيد بيك المولود بالمدينة المنورة عام ١٣١٣هـ والمتوفي باسطنبول سنة ١٤٠١هـ. وغازي محمد كان قد شارك في حرب الأتراك مع الروس برتبة فريق (ذكره الشدياق في منتخباته)، وحث أهل داغستان على الثورة فثار العلماء والوجهاء والعوام في رمضان ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م) فقتلهم الروس قتلا ذريعاً ونفوا الألوف إلى سيبير. ثم نفي إلى المدينة المنورة وله ابنة واحدة فقط اسمها نفيسة، ومات بالمدينة المنورة سنة ١٣٢١هـ. أفادني بذلك كله الشيخ علم الدين الشيخلوي الداغستاني حفظه الله. وابنته هذه كانت متزوجة من "عثمان فريد باشا" محافظ المدينة ذكره الضابط التتاري عبدالعزيز دولتشين في رحلة حج عام ١٣١٥هـ (١٨٩٨م): أنه شاهد غازي محمد وأخاه (سازى باشا وكان شاباً نسبياً) وذكر أن غازي باشا هو حمو عامل المدينة عثمان باشا وهو من أصل شركسي لا يقل عن رتبة جنرال ا.هـ.

قوله: كان للسلطان عبدالحميد أخطاء كثيرة وكان يصدر قراراته دون رويّة، وأن السلطان عبدالعزيز أعاد البلاد خمسين سنة إلى الوراء. كنت أتابع دروسي وأعتبر كلام الأستاذ نوعاً من السفسطة الزائدة.

حين كنت أواصل دراستي في قسم الحديث الشريف تعرفت على زملاء كثيرين من العرب، كما تعرفت على واحد من أئمة المذهب المالكي وهو الشيخ "علي موسى"[1] الذي كان موضع احترام أهالي المدينة، واشتهر في علم القراءات وكان يؤم المصلين في صلاة الفجر في المحراب العثماني مرتين سنوياً، وكان معروفاً بقراءة السور الطويلة في الركعتين ويتسبب ذلك في إنهاك عدد من المصلين. وقد زارنا الإمام في غرفتنا مرة بعد صلاة الفجر وبدأ كلامه حول مصر قائلاً: إن الفساد استشرى بمجيء محمد علي إلى مصر قبل ستين أو سبعين عاماً وأنه قد أثمر واتسع في هذه الأيام،

---

(١) الشيخ المؤرخ علي بن موسى أفندي المدني فقيه وأديب من أهل المدينة المنورة، كان فيها إمام المالكية الثاني في المسجد النبوي. له قصيدة ذكرها في مرآة الحرمين إبراهيم رفعت باشا نظمها في سنة ١٢٩٥هـ عندما ردّ الأحامدة المحمل الشامي بتاريخ ٢٦/ ١١/ ١٢٩٥هـ، وله كتاب في وصف المدينة المنورة نشرها حمد الجاسر ضمن مجموعة سماها رسائل في تاريخ المدينة، وذكر عبيد مدني في مقدمته لهذه الرسائل أنه كان حياً إلى عهد الفريق أحمد شاكر باشا محافظ المدينة المنورة نحو ١٣١٩-١٣٢٠هـ كما رواه بعض المعمرين له وذكر أنه كان رئيس القلم العربي في ديوان محافظ المدينة واسم الوظيفة في تصنيف الوظائف في العهد العثماني (باش كاتب) وكان حسن التصرف لبقاً ذو ثروة ورخاء عيش متأنقاً في لباسه ومظهره ا.هـ. وقد ذكر لي الدكتور سعيد طوله أن علي موسى ذكر اسمه من ضمن أسماء الأئمة المالكية في الحرم النبوي الشريف سنة ١٣٢٩هـ كما في مخطوط للسيد حسين هاشم في أسماء الأئمة والخطباء وأن ابنه موسى بن علي موسى كان من ضمن المنفيين في حادثة القلعة عام ١٣٢٢هـ إلى الطائف ا.هـ. فقلت: مستبعد أن يكون حيّاً لعام ١٣٢٩هـ لأن كتاب عبدالرشيد إبراهيم هذا قد طبع باللغة التركية في حوالي عام ١٩٠٦م (١٣٢٣هـ) وذكر أنه توفي كما سيأتي في الصفحات القادمة.

وأضاف: بكلمة أخرى لقد ظهر ما كان خافياً من دسائس الفرنسيين، وخرجت مصر من أيدي الحكم الإسلامي، ونحن نطلب النصر والهداية للمسلمين إن شاء الله. وأردف قائلاً:(إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم)، وقد حدث ما حدث لنا نتيجة سوء عملنا والكفر بالنعمة التي أنعم الله بها علينا، فقبل ٢٥٠ سنة كان السلطان مراد الرابع يفكر في خدمة أجيال المستقبل بتعيين الأدلاء في خدمة الحجاج في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ورتّب لهم المعاشات وخصص لهم أوقافاً وسوقاً ورواتب ومساعدات للسفر إلى بلاد الله الواسعة لتشجيع المسلمين للتوجه إلى الكعبة المشرفة، بينما نجد الآن الأدلّاء اتخذوا الحجاج أهدافاً لمطامعهم المادية، وهكذا تحولوا إلى خيانة الدين والدولة والناس، فبدلاً من أن يوجهوا المسلمين إلى أداء فريضة الحج؛ فإنهم ينفّرون الناس من أداء هذه الفريضة السامية.

وكنت أسجل ما يقوله الشيخ كلمة بكلمة، وأحفظ ما يتفوه به من كلام. وكان سوء حالتي المادية يحول دون إمكاني الاتصال بمثل هؤلاء الأئمة العظام.

وفي أحد الأيام كنت في الحرم النبوي الشريف أقرأ سورة التوبة، وعند قراءتي آية رقم (١٢٣)[1] في نهاية السورة قال أستاذي وهو يقف بجانبي: هكذا إذا أراد الله تعالى فإنه قادر على أن يأتي بك من أقاصي سيبيريا إلى أرض الحجاز ويجعل منك رجل

(١) قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ التوبة.

دين مطلعاً على أحكام دينه الحنيف الذي سيظل حياً إلى يوم القيامة ويدين به أكثر من ثلاثمائة مليون من البشر. والناس من أمثالك مكلفون بالعناية بهذا الدين والمحافظة عليه، ويقع عليك هذا الواجب بما لديك من كتاب وهو القرآن الكريم وما تعلمته من الحديث الشريف وسائر العلوم. ثم دعاني الأستاذ إلى داره في اليوم التالي.

ذهبت إليه بعد صلاة العصر مباشرة وجاء إلى بيته الدكتور قدري بيك الذي كان مدعواً أيضاً ورحب بنا الأستاذ كثيراً. وبعد تناول الطعام أخرج الدكتور ورقة وقال: هذه ترجمة الرسالة التي وردت إليك خطأ قبل أشهر وبدأ بقراءة الترجمة:

مدينة ليون في تموز ١٨٨١م

"يا محمد إنك وضعت لنا طريقاً جميلاً نتبعه، وبنيت أسس الحياة المادية والمعنوية، ولكن هذه الأسس نالها الخراب والدمار وسوء التصرف بعدك، ولو جئت لترى ما آل إليه حال أمتك ورأيت الدرك الذي نزلوا إليه لنفرت منهم".

وكان في الترجمة كلام كثير لم أستطع تدوينه أثناء قراءة الدكتور قدري.

ثم أضاف الدكتور: أيا أخي رشيد أفندي، ها أنت تراني هنا منذ ثلاث سنوات أقدم خدماتي للفقراء في الحضرة النبوية، وتدفع لي الدولة خمسين ليرة، ولكنني أفضل أن أقدم خدماتي في استانبول مقابل خمس ليرات فقط، ولكن ما حيلتي والأمر ليس في يدي. واستطرد قائلاً: إن النصارى يطلبون المعلومات عن أسس وأحكام الدين

الإسلامي، وهذه الرسالة التي اطلعت على جانب منها هي من الرسائل الموجهة من المسيحيين إلى شيخ الحرم، ويطلب أصحابها الإجابة عليها، وقد قدمت مثل هذه الرسائل إلى المراجع المسئولة في استانبول أيضاً.

ودعني أقصّ عليك قصة أخرى: كان الجو لطيفاً في موسم حج السنة الماضية، وفجأة تلبد الجو ولمع برق شديد أضاء الدنيا مع زمجرة شديدة لم نتبين مصدرها أول الأمر، وظننا أن مخزن العتاد والأسلحة في المنطقة قد انفجر، وجاء بعض رجال الأمن يعلمونني أن ثلاثة من الحجاج قد ضربهم الرعد العاصف مع جمالهم، وحين أسرعت إلى المكان وجدت الحجاج الثلاثة وعليهم ملابس الإحرام قد ماتوا، كما نفقت جمالهم. وقد تأيد لدي بعد الكشف عليهم والمعاينة أن الرجال الثلاثة كانوا بدون ختان، واستغرب رجل الأمن وسائر الموظفين من هذا الأمر، ورجحنا أنهم فرنسيون، وعندما أخبرنا الوالي عثمان باشا بالأمر طلب حفظ الجثث في محل معيّن للتحقيق حول الموضوع، ولاحظت وجود أثر الحياة في أحد الجثث وبقيت هناك أحاول بعث الحياة فيها بكل ما لدينا من إمكانيات، ولكن محاولاتنا باءت بالفشل ومات الرجل.

ثم أضاف الدكتور قدري بيك: يا عبدالرشيد هذا دليل آخر على أن هؤلاء قد دسوا على الحجاج ولم يكن قصدهم شريفاً، وهذه الأمور تدعو المسلمين إلى الانتباه والتيقظ إلى ما يحاك ضدهم من دسائس. وفي هذه الحادثة حكمة بالغة من الله سبحانه وتعالى في كشف هذه اللعبة الخبيثة وحكمة أخرى من الباري سبحانه وتعالى نجدها في مجيئك من

أصقاع سيبيريا إلى هذا المكان الطاهر لأداء فريضة الحج. فانظر وتدبر معي هذه العبارة العظيمة (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين).[1]

خرجنا مع أذان المغرب للذهاب إلى الحرم وعدت بعدها إلى غرفتي أستعيد في ذهني ما تحدث به الدكتور لأدونه في دفتري. أمضيت الليل ساهراً أفكر فيما قاله الدكتور ولا سيما قصة البرق والرعد التي كشف الله تعالى بها مكيدة أعداء الإسلام.

يشتد الحرّ في المدينة المنورة صيفاً ويهرع معظم الناس خلال هذا الموسم إلى الحدائق والبساتين، وكان لي صديق اسمه "صالح شيغليبه"[2]، دعاني مرة إلى بستانه في حي العوالي، وكان بستاناً جميلاً حقاً وفيه أنواع الفواكه وقال لي صالح: قبل سنوات قليلة لم تكن أكثر الفواكه متوفرة عندنا، وقد أعطاني جاري "محمود حماد"[3] -وهو من خطباء المسجد النبوي الشريف- بعض الشتلات التي اعتنيت بها، كما استوردنا الكثير منها من استانبول ومن بلاد أخرى. وأطلعني محمود حماد على بعض الأساليب

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق...) رقم الحديث ١٩٢٠.

(٢) قد يكون من بيت (شقلبها) كما ذكر عبدالرحمن الأنصاري في تحفة المحبين: أصلهم الحاج محمد من أهل الشام قدم المدينة عام ١٠٧٠هـ وكان يتعاطى البيع والشراء ويدين الناس وإذا تعسر على أحد الخلاص يقول له (شقلبها) أي اجعل لها ربحاً وابقها فلقب بها.

(٣) أسرة حمّاد في المدينة المنورة كانت من أكبر الأسر التي توارثت الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي الشريف، وهم من نسل عبدالرحمن بن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكذلك كان منهم الكثير من المؤذنين، وآخر إمام وخطيب منهم هو الشيخ زين العابدين بن محمد بن محمد صالح حماد ت ١٣٩٥هـ، وكان الشيخ زين العابدين ووالده الشيخ الإمام والخطيب محمد حماد ت ١٣٣٦هـ يهتمون بالزراعة ولديهم مزرعة تسمى بالفيروزية. مدونة د.سهيلة حماد.

الزراعية وقال إن تربة المدينة كثيرة الخصوبة وتصلح لزراعة أنواع عديدة من المحاصيل الزراعية.

وعند المساء ألحّ عليّ أن أبيت عندهم فبقيت، وجاء بعض الضيوف وأخذ أهل البيت بدق الهاون لطحن القهوة وهي عادة متبعة عند العرب. ودقّ الهاون دليل على وجود الضيوف في الدار ودعوة موجهة إلى الجيران لكي يحضروا ويشربوا القهوة. ومن الملاحظ أن اللباس العربي يحاكي ملابس السيدات عندنا، والموسرون منهم يلبسون رداءً خفيفاً تكاد أجسامهم تتبين من خلاله .

وقد قضينا ليلة بهيجة في بستان صالح أفندي وتجمع فيه خلق كثير وهم يغنون فرحين مبتهجين وكأننا في ليلة عيد. والجو في حي العَوالي كان أكثر اعتدالاً من سائر أنحاء المدينة ويقضي كثير من أغنياء المدينة أيام الصيف في ذلك الحي.

ولا يعرف أهل المدينة شيئاً عن المسكرات ولا يتعاطونها، ولكنهم يعشقون الإنشاد والأصوات الجميلة. وكان يوجد فيها كثيرون اشتهروا بجمال الصوت، وكنا نسمع صوت أذان الفجر الذي يؤديه شخص معروف بحسن الصوت ثم نذهب لنؤدي الصلاة في مسجد قباء الذي يبعد عنا ميلين ونعود بعدها إلى البستان، والعرب عامةً يقضون معظم أوقاتهم في الحدائق والبساتين. وتغمرهم البهجة والفرح. ولم أجد بينهم أي تصرف أهوج أو حركة مشينة، وكانوا مثالاً للسلوك الحسن والأخلاق الفاضلة. وفي اليوم التالي دعا صاحب البستان أشخاصاً آخرين وذبحت الذبائح،

وقضينا يوماً بهيجاً آخر في ضيافة هذا الرجل. والعرب معروفون بإكرام الضيف وهو مدار فخرهم واعتزازهم.

زارني علي موسى مرة وقال: يا أخي عبدالرشيد لدي فكرة أرجو أن تساعدني في تحقيقها، ثم شرح لي فكرته قائلاً: نحن نرغب في تعيين شخص يكون دليلاً مرشداً في سيبيريا؛ إذ أن الدليل الوحيد في روسيا يقتصر عمله على (قازان) وهذا غير كافٍ، فسألته عن الخدمة المطلوبة مني! فقال: يكفي أن تذكر لنا أسماء القرى والمدن التي تعرفها في سيبيريا، فكتبت له عدداً من الأسماء من بينها (طبولكي)[1] و(تومسكي)[2] و(إرقوتسكي)[3].

وقد علمت فيما بعد بأنهم عينوا شخصاً يدعى "أحمد سليم جداوي" دليلاً مرشداً لسيبيريا، وكان القصد من ذلك أن يوقظوا الفكر السياسي بين المواطنين في أقصى شرق (سيبيريا)، وكانوا قد أرسلوا أحمد سليم إلى سيبيريا لهذا الغرض سنة

---

(١) طبول تم التعريف عنها من قبل.

(٢) تومسك Tomsk عاصمة ولاية تومسك والتي تقع شمال شرق ولاية أومسك في روسيا الاتحادية، وهي من أقدم مدن سيبيريا، تقع على نهر توم Tom وعلى شرق أومسك تبعد عنها حوالي ٩٠٠ كم.

(٣) إيرقوتسك Irkutsk من أكبر مدن سيبيريا عاصمة ولاية إيرقوتسك تقع جنوب الولاية بالقرب من بحيرة بايكال الكبيرة ومن الحدود المنغولية، كانت لها مكانة تجارية مهمة فيما سبق، وكانت سجناً ومنفى للمتهمين السياسيين والمجرمين، وكان فيها متحف ومرصد فلكي في عام ١٩٠٧م زارهما عبدالرشيد إبراهيم وأعجب بالمرصد.

١٨٨٩م. وبعد أن توفي الشيخ علي موسى قامت الحكومة التركية بتعيين عدد من رفقائه ولكننا لم نلمس شيئاً نتيجة تلك الجهود.

أما أنا فاستمريت على دراستي وفي هذه الأثناء وصل إلى المدينة المنورة عدد كبير من الشبان من أهل التتار وانتسبوا إلى مدارسها المختلفة.

في يوم من الأيام أردنا ان نقوم بشيء خطير بين الطلبة التتار، وكان "عبدالحنان أفندي" ومدرّس قارغالي "خيرالله أفندي" و"عليكاييف" يتذاكرون، فقال خيرالله أفندي: إن "قارا باش ظريف أفندي"(١) يعرف يلعب لعبة "القوراي" أي رمي السهام. فقرروا الذهاب مع خيرالله مخدوم إلى دكان الحداد ليصنع لنا السهام فأعطاه خيرالله مخدوم المقاس وقال لهم الحداد: في المساء سيكون جاهزاً، ثم ذهبنا في المساء واستلمناه.

(١) لعلّه "ظريف قارئ" محمد ظريف الطاشكندي الكاشغري ولد في طاشكند عام ١٢٧٨هـ حفظ القرآن وأتقنه وضبط تجويده وترتيله ثم سافر لتلقى تعليمه الشرعي في سمرقند وبخارى، بعد عام ١٣٠٠هـ سافر للحرمين ودرس على علماءها وحصل على إجازات ثم عاد لطاشكند وجلس للتدريس عدة سنوات، في العشرينات من القرن الرابع عشر الهجرية سافر للهند لدراسة الحديث والطب اليوناني والفلك والجغرافيا وعلم الكلام والمنطق والبلاغة. استقر بكاشغر وفتح دكاناً لمزاولة الطّب اليوناني. عيّن في ثورة ١٣٥٢هـ في حكومة خوتان الوطنية وزيراً للعدل للحكومة التي برئاسة زميله الشيخ ثابت داملا بن عبدالباقي الكاشغري ثم دخل السجن معه عام ١٣٥٣هـ وخرج عام ١٣٦٣هـ وتوفي عن ٩٩ عاماً في سنة ١٣٧٧هـ في مدينة غولجا بتركستان الشرقية. له كتاب في تفسير القرآن الكريم باللغة الأوزبكية انتهى منه عام ١٣٤٤هـ وطبع بعض أجزائه بالهند عام ١٣٥٦هـ وأعيد طبع الجزء الأخير في قطر عام ١٤٠٨هـ، وله عدة مؤلفات حيث ترجم بعض المتون من أمهات الكتب ما زالت مخطوطة لم تطبع. وللمزيد انظر علماء ما وراء النهر لمنصور بخاري (ص ٣٦).

وفي يوم الثلاثاء بالقرب من المدينة في ما يسمى جبل سَلْع[١] صعدنا فوقه ولم يكن ظريف أفندي يعلم بخطتنا. وبعد أن وصلنا إلى هناك ترجينا كثيراً ظريف أفندي ليلعب ويعلمنا لعبة رمي السهام. فقال: لا.. لا.. أنا تبت من هذه اللعبة ولن أعود إليها.[٢] فرجوناه كثيراً حتى وافق وبدء باللعب. فكان ظريف أفندي يرمي ونحن نقيس المسافة، وكنا في غاية السعادة والفرح. وفي تلك الأثناء جاء أحد أئمة الحرم النبوي "هاشم توفيق"[٣] فتخلصنا بعيداً من كل السهام، فترجّانا عدم تكرار لعب هذه اللعبة وأثقل علينا بالطلب حتى قال: بجاه النبيّ سمعونا. فاستحيينا منه ولم نعد إليها.

وفي أحد الأيام كنت أقرأ الآيتين الكريمتين ٢٩ و٣٠ من سورة الحج[٤] حين فاجأني المدرس[٥] قائلاً: هل أقمت سابقاً بمكة المكرمة؟

فأجبته: نعم والحمد لله.

فقال: وما هي الفائدة التي جنيتها من ذلك؟

---

(١) جبل سَلْع كان خارج سور المدينة المنورة.

(٢) يبدوا أن طريقة هذه اللعبة خطيرة، ولم تكن مجرد رمي للسهام لذلك كان متردداً.

(٣) إمام ومؤذن الحرم النبوي الشريف "هاشم توفيق أفندي"، وعائلة توفيق من العوائل التي توارثت الآذان في الحرم النبوي وكان هاشم أفندي برتبة (رديف كبير وإمام) توفي سنة ١٣٣٩هـ.

(٤) قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الحج.

(٥) شيخه شيخ القرّاء أحمد أفندي.

قلت: في يوم القيامة إن شاء الله.

فأردف الأستاذ قائلاً: يقول سبحانه وتعالى: (ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله في أيامٍ معلومات) إنك أتيت من فجٍ عميق من (سيبيريا) لكي تشهد منافع لنفسك ثم تذكر الله بعد ذلك. عليك أولاً أن تفكر في الفائدة التي حصلت عليها وألا تبقى مغمض العينين، وعند مغادرتك لا تكتفي بتقبيل الأحجار وزيارة المزارات الشريفة وشرب ماء زمزم وتعود دون أن تحقق أي فائدة من تعبك وجهودك[1].

ثم سألني: من أين أتيت إلى مكة، هل أتيت من استانبول وأين أحرمت؟

قلت: إنني أتيت عن طريق السويس وأحرمت من هناك.

فقال: لابد أنه كان في الباخرة أكثر من ألف شخص وبينهم أغنياء وأصحاب ملايين وكذلك فقراء من أمثالك، كلكم غنيكم وفقيركم لبستم ملابس الإحرام تقرّباً إلى الله تعالى وأصبحتم سواسية أمام الخالق سبحانه وتعالى ومعك الباشاوات والولاة والقضاة وحتى لو كان معكم السلطان العثماني نفسه لكان عليه أن يحرم ويصبح مثلكم، إنك رأيت هذا الوضع بأم عينيك فهل أخذت درساً وعبرةً من ذلك المشهد؟ ومرة أخرى رفقاؤك الكبار الأغنياء الذين عليهم أن يتخلصوا من الحقد والبغضاء

---

(١) يجب ألا يحمل هذا الكلام على التقليل من فضل العبادة البدنية وأهميتها ضمن مناسك الحج والتي أصلها سنن وواجبات وفرائض لأنبياء ورسل، مع الاهتمام بالجانب المقاصدي لأهداف ومنافع الحج أيضاً.

ومن إيذاء الفقراء (ولا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) كما أمر الله تعالى. فهل فكرت في هذا كله؟ فعليك أن تذهب إلى الحج ثانيةً وأنت تأخذ دروساً وعبراً وتعود إليَّ وقد حققت الفائدة من الحج. والآن استمر في قراءة سورة الحج وكنت قد قرأت بنفسي هذه السورة المباركة قبل قليل.

وعندما قرأت الآية الأخيرة[1] من السورة علق الأستاذ على ذلك قائلاً: لو تدبر المسلمون ما ورد في هذه الآية الكريمة لما انحدروا إلى هذا الوضع الذي لا يحسدون عليه في أيامنا هذه.

ثم قرأ العبارة القرآنية (قد أفلح المؤمنون) وأضاف: المطلوب منا أن نواصل السعي ونبذل الجهود، وقال: إنني سعيت كثيراً وحضرت مجالس السلاطين عبدالمجيد وعبدالعزيز ومراد وعبدالحميد، وجلست على مائدة الطعام مع السلطان عبدالعزيز مرتين، وتناولت طعام الإفطار مع السلطان عبدالحميد، ولكن ماذا نفعني كل ذلك؟ وإني أحمد الله على أن يسر لي وأسعدني بمجاورة سلطان السلاطين نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فأنا أشعر بسعادة غامرة.

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ الحج.

ومن الذكريات الجميلة في البلدة الطيبة المدينة المنورة حدث جرى في مساء أحد الأيام؛ فقد كنا جالسين ننتظر موعد الإفطار وأمامنا قارورة من الماء البارد والطعام وكان يجلس معنا أستاذنا أحمد ضياء أفندي وإذا بنا نفاجأ بشخص يمد يده ويسحب قارورة الماء من أمامنا، فقمت واستعدت القارورة منه وأعدتها إلى مكانها وأنا أقول له: يا شيخ هذه القارورة لنا، فما كان منه إلا أن جاء مرة أخرى وأخذها ومضى إلى سبيله، فقمت وأخذتها منه مرة ثانية. وعندما أعاد الكرّة وحاول أخذ القارورة بقوة - ويبدو أن الشيطان الرجيم قد نجح في الإيقاع بيننا- حملت القارورة وضربته بها على أم رأسه فشجته، وانكسرت القارورة وانسكب الماء على الأرض، وكان الرجل قد أصيب بجرح في رأسه وسال منه الدم. وفي هذه الأثناء أقيمت صلاة المغرب فأسرعنا للوقوف خلف الإمام وكذلك فعل الرجل المجروح. لم أكن أعلم قبلاً أن خروج الدم عند المذهب الشافعي لا يبطل الوضوء. حضر رجال الأمن بعد الصلاة وهم يهمّون بأخذي إلى الحبس غير أن الرجل الذي تخاصمت معه وقف وقال لهم: وما شأنكم أنتم؟ إن الأمر يخصنا نحن الاثنين، وتصالح معي، فأعجبني تصرفه كثيراً واعتذرت له وطلبت منه العفو، وحاولت أن أقدم له مبلغاً للترضية فرفض أخذ المبلغ، فتصوروا درجة الكرم والإنصاف الذي يتصف بها هؤلاء العرب.

تأسست دائرة للبريد في المدينة المنورة سنة ١٨٨٣م بصورة رسمية غير أن أهالي المدينة لم يودعوا رسائلهم في هذه الدائرة وإنما استمروا على إرسال رسائلهم عن طريق حقيبة شيخ الحرم المار ذكرها، وكان مدير البريد فتى شاباً قال لي عندما أودعت لديه رسالتي: لقد افتتحت دائرة البريد في هذه المدينة منذ اثنى عشر يوماً، وهذه أول رسالة تودع لدي، ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأت الخدمات البرقية في مكة المكرمة لأول مرة.

لقد تقدمت في دراستي، وكان أساتذتي راضين عني ويثنون على جهودي ونشاطي الدراسي، وحلّ موسم الحج وجاء الحجاج إلا أن أعدادهم كانت قليلة هذه السنة. وكان طلبة العلم يدرسون دون دخل مادي، وفي أواخر شهر ذي القعدة وصل حجاج من الهند وجاوَة[1] وتوجهوا نحو مكة المكرمة. ولم يأت أحد من (قازان) سوى شخص أو اثنين جاءا بدلاً عن غيرهم.

وكنت راغباً في الحج ولكن وضعي المادي لم يساعدني على ذلك، وكنت قد أبديت هذه الرغبة إلى صاحب المقهى "عزت الله أفندي" وأعلمته أن ضيق ذات اليد تحول دون تحقيق أمنيتي، فأبدى استعداده لدفع سبع مجيديات لاستئجار جمل يوصلني

---

(١) جزيرة جاوة بأندونيسيا ويقصد بهم عادة (جميع الحجاج من العرق الملاوي شاملة البلاد الممتدة من سيام تايلند وماليزيا إلى أندونيسيا غينيا الجديدة) واستعملت هنا لفظ "جاوي" للدلالة على المفرد، ولفظي "جاوى وجاويين" للجمع، ولفظ "جاوة" للدلالة على الجزيرة المعروفة بهذا الاسم.

إلى مكة المكرمة. فاتفقت مع جمّال في ساحة المناخة[1] ليعدّ لي جملاً لهذا الغرض ودفع عزت الله الأجرة، وذهبت إلى باب السلام ودخلت منه لزيارة النبي ﷺ والصلاة في الروضة الشريفة والوداع ثم اتجهت إلى باب العنبرية وكان أصحاب الدكاكين من الطرفين يودعوننا ويقولوا: مسفره! مسفره! يالله بالسلامة!.

بدأنا في سلوك طريقنا إلى الحج برفقة القافلة الذاهبة إلى هناك. وخلال ساعة واحدة وصلنا إلى (ذي الحُليفة) وقد تجمع فيها حجاج كثيرون كانوا يرتاحون فيها، وكان السرور بادياً على القوم وهم في طريقهم نحو الكعبة المشرفة، وكان بين الحجاج كثير من وجهاء وأغنياء المدينة المنورة من بينهم "السيد صافي"[2] الذي كان يحج لأول

---

(١) وهو المكان الذي كانت قوافل الجمال تحط رحالها، تقع شمال غرب المسجد النبوي من ثنية الوداع (الشامية) شمالاً إلى بداية قربان جنوباً. واكتسبت مسمى المناخة، لأنها مكان مناخ الحجيج والزوار. وتاريخياً كان قسمه الشمالي هو الميدان الذي يتدرب فيه الصحابة رضوان الله تعالى عنهم فيه على ركوب الخيل والرماية، وكان الرسول يحضر ليشرف عليهم ويتسابق معهم أحياناً، وقد بني في الموقع الذي كان يقف فيه صلى الله عليه وسلم مسجد سمي مسجد السبق. وفي قسمه الثاني اختط رسول الله للمسلمين السوق في السنوات الأولى من الهجرة ليخلصهم من سيطرة اليهود على الأسواق الأخرى، وقال: هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ منه خراج. وكانت السوق مكشوفة ليس فيها بناء، يحضر التجار إليها صباحاً، ومن سبق إلى موقع وضع بضاعته فيه ويتاجر إلى نهاية اليوم حيث يحمل متاعه ليعود في اليوم الثاني. وحالياً أزيل مسجد السبق وحفر على امتداد المنطقة نفق للسيارات يصل بين طريق سيد الشهداء شمالاً وأول منطقة قربان جنوباً.

(٢) المعمر السيد صافي بن عبدالرحمن الجفري العلوي، ذكره العلامة السيد المشهور في الشمس عند ذكر عقب: عبدالرحمن (صاحب العرشه توفى ١٣٠٧هـ) وقال: ومنهم السيد صافي بن عبدالرحمن، ذو جاه وحشمه وثروة بالهند. وروى عنه الكتاني وقال في الفهرس: المعمر الناسك أبي البركات صافي بن عبدالرحمن الجفري المدني. وذكره علي بن موسى في وصفه المدينة عدة مرات منها قوله: ثم بعد المقعد زقاق الشونة، وهو تجاه الخان الجديد الذي أنشأه السيد صافي الجفري. وجاء في بحث: "جوانب من=

مرة برفقة نجليه، ومعتوق خاشقجي من كُتّاب المحكمة الشرعية ومعه ابنه، وكان هؤلاء يزيّنون جمالهم بزينات من الذهب والفضة، ووجدنا خلقاً كثيراً أتوا لتوديع الحجاج.

كنت أحاول أن أدقق حركات وأطوار هؤلاء الناس عملاً بتوصيات ونصائح أستاذي الذي كان ينصحني بالاهتمام بأحوال الحجاج وهل إنهم يحققون من الحج منافع لهم، وقد تبين لي وأنا أراقبهم طيلة الليل أن معظم هؤلاء لم يكونوا مهتمين كثيراً بأداء الفريضة على الوجه المثالي قدر اهتمامهم بالأمور الدنيوية لقضاء الوقت لا أكثر.

=الحياة العلمية في الحجاز من خلال بعض الوثائق العثمانية" لسهيل صابان أنه تم تعيينه في شعبان ١٢٧٨هـ على نظارة المدارس المجيدية بالمدينة المنوَّرة ومدارس الصبيان الموجودة في مكة المكرمة؛ نظرًا لوفاة الناظر أحمد أفندي. وقال الزيدان في ذكرياته عن السيد الصافي الجفري: ومن رجال عبدالمجيد ولم يلحقه أذى في عصر عبدالحميد عاش كثيراً في استانبول وارتبط بصداقة قوية مع جمال الدين الأفغاني وفي عصر عبدالحميد صار شيخاً في المدينة، وقال الزيدان أيضاً: أنا شهدته عام ٣٤ هجرية كان يركب عربة يدفعها خادمه لأنه لا يستطيع المشي، بنى بيوته في الساحة واقتنى أغلى المجوهرات. وقال حمادي التونسي في رسالة الماجستير عام ١٤٠١هـ "المكتبات العامة بالمدينة المنورة وماضيها وحاضرها" عن مكتبة آل الصافي: وقفها السيد صافي بن عبدالرحمن الجفري العلوي عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م الذي كان وكيل فراشة السلطان عبدالحميد (كان يقوم بخدمة الحرم النبوي الشريف من إضاءة القناديل... وغيرها إضافة إلى أعماله التجارية) وقد استخدمت هذه المكتبة كمكتبة عامة في حياة مؤسسها حيث خصص لها مكاناً عامًا يستقبل فيه الراغبين في المطالعة ولم تكن لها أوقاف منفصلة خاصة بها وإنما كانت مواردها ضمن الأوقاف الخاصة التي وقفها السيد صافي وقد تعرضت المكتبة لحريق ولكنها سَلِمت منه ا.هـ. والمكتبة موجودة الآن ضمن المكاتب الوقفية في مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة، وتحتوي على ٦٧٨ مجلد مطبوع و ٢٠٢ كتاب مخطوط. وذريته مازالت موجودة بالمدينة المنورة.

وبعد أن قضيت بعض الوقت معهم استسلمت إلى النوم، ونهضت بعد منتصف الليل بقليل على أصوات تصيح: الفلاح..الفلاح[١]، واستعد الناس جميعاً للرحيل. وبعد مسيرة قليلة توقف شيخ الركب[٢]

"يحيى أفندي دفتردار"[٣] عن السير وصاح: توقفوا.. توقفوا، فتوقف الجميع مرة أخرى وصاح شخص آخر: يا شيخ عبدالله سمّعنا.

وسمِعْنا شخصاً ينشد بالصلوات وسمعنا مدائح الرسول ﷺ وأبيات شعرية بصوت غاية في الحسن والجمال[٤]، وقد أثر ذلك بي كثيراً؛ إذ كان ذلك النوع من

---

(١) نداء متعارف عليه من نقيب الركب يسمعه كل من في الركب ليأخذوا بدوابهم ويبدأوا المسير.

(٢) الرَكْب: هو مجموعة من الأهالي يحجون في عزبة واحدة متعاونين متكاتفين تحت رئاسة شيخ الركب ولهم نظام خاص وقواعد متعارف عليها، وكان هذا التجمع يمنحهم القوة والمناعة ضد أي اعتداء عليهم أو محاولة سلبهم وركوب المدينة المنورة كثير بقيت حتى دخول السيارات في الخدمة وكان آخرها: ركب الداغستاني، والحوالة، واللبّان، والكعكي وغيرها، وقد يسافر ركبان أو ثلاثة في يوم واحد. صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة لياسين خياري.

(٣) الشيخ يحي بن محمد سعيد دفتردار، ولد بالمدينة المنورة عام ١٢٦٣هـ وتوفي والده الشيخ المجاهد وهو رضيع، حفظ القرآن وهو صغير ثم أخذ عن علماء الحرم النبوي الشريف وسافر إلى اسطنبول لإكمال دراسته في مدارسها الحديثة ثم عاد وأصبح خطيباً بالمسجد النبوي وعيّن بأمر عثماني محتسباً على المدينة المنورة ورئيساً للأدلّاء، ونفاه محافظ المدينة علي باشا مرمحين إلى سجن الطائف مع مجموعة من علماء المدينة من ١٣٢٤-١٣٢٧هـ ثم عاد إليها، وفي عام ١٣٣٤هـ أبعده فخري باشا من المدينة المنورة ثم عاد إليها. وكان يشتغل بالتجارة أيضاً ويقول الشعر، توفي بالمدينة المنورة سنة ١٣٤٥هـ ودفن بالبقيع الشريف. وذريته موجودة حالياً بالمدينة المنورة. أعلام من أرض النبوة لأنس كتبي.

(٤) وهو المعروف بالحادي (المنشد): وهو من ضروريات الركب ويختاره الشيخ قبل قيام الرحلة ويوفر له الزاد والراحلة وكل شيء ويكون في مقدمة صفوف الإبل، وله تأثير كبير في الركب وليس في الحجاج فقط، بل إن الإبل إذا طلع الحادي بنشيده أثناء الليل ترخي آذانها تستوحي الصوت فتمشي مسرعة مع الحادي، وإذا تكاسل الحادي في ألحانه أو سكت تكاسلت الإبل في سيرها.

السفرات أول تجربة لي في هذه البلاد، وكان معظم المسافرين من العرب والمستعربين، بل أستطيع القول بأن المستعربين كانوا أكثر عدداً.

لقد توصلت إلى هذه النتيجة أثناء تدقيقي للمسافرين من وجهاء وأغنياء أهل المدينة المنورة مثل شيخ الركب يحيى دفتردار والخاشقجي والإمام "إبراهيم أُسْكُوبي"[1] وفلان الإزمرلي وغيرهم كثيرون كانوا من الأتراك دون شك.[2]

وبعد تحركنا من (ذي الحليفة) وتسمى (آبار علي) أيضاً، سرنا في الطريق حوالي خمس ساعات. سمعنا المؤذنين يدعون الناس لصلاة الفجر وهم على ظهور جمالهم، واستغرق ذلك حوالي نصف ساعة ثم صاحوا: الصلاة..الصلاة، فأناخت الجمال

---

(١) الشيخ إبراهيم بن حسن بن حسين بن رجب أسكوبي الحنفي، إمام وخطيب بالمسجد النبوي ولد بالمدينة المنورة سنة ١٢٦٤هـ من أصل ألباني وأسكوب بلدة من بلدات يوغسلافيا، هاجر جده حسين واستقر بالمدينة المنورة ووالده حسن كان عالماً وفلكياً وإماماً وخطيباً بالمسجد النبوي، وهو نشأ وتعلم في المدينة المنورة ونبغ في العلوم الدينية والأدبية والفكرية ودرس في المسجد النبوي في أوائل القرن الرابع عشر الهجري وكان يدرّس الفقه والحديث والتفسير والمنطق وعلم الأدب والهيئة، ومن مشايخه: والده والشيخ عبدالقادر الطرابلسي والشيخ عبدالجليل برادة والشيخ غلام النقشبندي والشيخ حبيب الرحمن الهندي الكاظمي والشيخ عابد سندي المدني. ثم عيّن مدرساً وإماماً وخطيباً بالمسجد النبوي. وهو من أبرز شعراء المدينة المنورة، قام برحلات علمية إلى نجد، واليمن، والشام، وبيروت، وتركيا، ومصر. كان من جلساء الشريف عون الرفيق عندما يذهب لمكة وقال فيه قصيدة رثاء بعد وفاته، وكان يجيد عدة لغات وله مؤلفات شعرية منها "المزدوجة" وهي مفاخرة ما بين وابور البحر ووابور البر وأتمها في عام ١٣٢٤هـ وطبعت في الحسينية بمصر. وله ديوان مطبوع ١٣٨٩هـ حققه د.محمد العيد الخطراوي. توفي رحمه الله في ١ جمادى الآخرة من سنة ١٣٣١هـ بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع الشريف. وذريته موجودة حالياً بالمدينة المنورة. فيض الملك المتعالي والأعلام ١/ ٣٥ وأعلام من أرض النبوة.

(٢) بيت الخاشقجي (القاشقجي) أي صانع الملاعق أصلهم محمد أحمد قيصرلي الرومي القاشقجي ويقال: أن أصلهم من بخارى. الخاشقجي والإزمرلي ذريتها موجودة حالياً بالمدينة المنورة.

وتوضأ الجميع وصلّوا صلاة الفجر جماعة، ثم تحرك الركب مرة أخرى والجميع مشغولون بتلاوة الآيات الكريمة وقراءة المناقب النبوية، وكان الجو لطيفاً وشعرنا ببعض الدفء بعد شروق الشمس.

وصلنا إلى واحة خضراء مكتظة بالنخيل استرحنا فيها حوالي خمس ساعات ثم استأنفنا السير، وحان وقت العصر ولكن لم أسمع صوتاً لأي مؤذن. وقد علمت بأن الناس جمعوا بين صلاتي الظهر والعصر قبل ذلك بينما كنت قد صليت صلاة الظهر فقط[1]. وعندما حلّ وقت صلاة المغرب توقفنا وصلينا صلاة المغرب والعشاء جمعاً.

وصلنا إلى مكة المكرمة بعد أن قضينا في الطريق ٦٧ ساعة. كان بين المسافرين معنا بعض المسلحين الذين بدأوا بإطلاق العيارات النارية في الهواء وإنشاد بعض القصائد عند دخولنا إلى مكة المكرمة، وافترقت عن زملائي المسافرين ونزلت في إحدى تكايا القازانيين والتقيت باثنين من الحجاج اللذين أتيا من بلادنا، كما شاهدت بعض الحجاج من الهنود والجاويين وحجاج آخرين جاءوا من (جبل طارق) وكانوا من الموسرين، ولم يكن التستر شائعاً بين نسائهم، وبعضهم كان يجيد اللغة العربية ويتكلمون اللغة الإسبانية فيما بينهم. قال لي أحدهم: إنني لم أكن أتصور وجود مسلمين في (سيبيريا).

---

(١) السادة الحنفية لا يرون الجمع بين الصلوات مطلقاً، فيما عدا يوم عرفة وذلك أيضاً بشروط.

تعرفت على بعض الهنود وهم يتكلمون اللغة الأوردية ولكن أكثرهم يعرفون اللغة الفارسية والعلماء منهم يتكلمون العربية بطلاقة وقد تجد بينهم من يجيد الإنجليزية. إن الهنود أناس متواضعون وهم أثرياء يعيشون في رفاهية ويشتهرون بالتجارة.

وقد تشرفت بلقاء الداعية الإسلامي في مكة المكرمة "رحمت الله أفندي"[1] صاحب كتاب "إظهار الحق"، وهو رجل جليل الصفات وذو فكر ثاقب، وكان يلقننا

---

(١) الشيخ رحمت الله بن خليل العثماني ولد عام ١٢٢٦هـ، ويتصل نسبه بسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، تلقى العلوم العقلية والنقلية عن أشهر علماء الهند في عصره وهم: الشيخ محمد حيات الله عالم دلهي، والشيخ مفتي سعد الله، والشيخ أحمد علي من علماء دلهي، والشيخ عبدالرحمن البنجابي، وتعلم اللغة الفارسية عن الشيخ إمام بخش الصهباني، كما تلقى الطب عن فيض محمد. بعدها شرع في نشر العلم ومقاومة المبشرين، ومن أشهر تلاميذه في الهند: مولانا عبدالسميع الرامفولي، مولانا عبدالوهاب مؤسس مدرسة الباقيات الصالحات بمدراس، وهي أكبر جامعة إسلامية الآن.

في عام ١٢٧٠هـ، عقد مناظرة حضرها كبار علماء الهند والمسيحيون لمناظرة أكبر قسيس (فندر) رئيس البعثة التبشيرية بالهند، وعندما زحف الإنجليز على الهند عام ١٢٧٣هـ الموافق عام ١٨٥٧م وأبادوا حكومتها الإسلامية، وشردوا رجال الدين، ثار رحمه الله ضد هذا العدوان الغاشم وأعلن الجهاد في سبيل الله، ومازال ينتقل من بلد الى آخر حتى وصل الى بومباي، فأبحر منها في مركب شراعي إلى أحد موانئ اليمن، ثم واصل سفره براً إلى الحجاز إلى أن وصل الى مكة المكرمة عام ١٢٧٤هـ.

وفي عام ١٢٩٩هـ حدث بينه وبين الوالي عثمان باشا خلاف، فشكاه الوالي إلى السلطان، فطلب حضوره إلى استانبول، فلما وصلها أنعم عليه السلطان بالخلعة السلطانية ووسام المجيدي ورتبة فايا الحرمين (ركن الحرمين) باقتراح شيخ الإسلام، وكانت تلك الرتبة لا تمنح إلا لرجال العلم والمجاهدين، ثم عاد إلى مكة. وفي عام ١٣٠٤هـ بلغ السلطان عبدالحميد مواقفه وجهاده لنشر الدين والدفاع عن حوزته، فطلب من شريف مكة ابتعاثه الى استانبول، فلما وصل أنزله بالقصر الهمايوني وأكرمه وطلب منه ترجمة مناظرته (إظهار الحق) فحقق رغبة السلطان وتم طبعها وترجمت إلى عدة لغات، وكانت سلاحاً في يد علماء الدين لنصرة الإسلام، ثم طلب منه السلطان الإقامة باستانبول فاعتذر ورجع إلى مكة.=

أساليب مواجهة أعداء الدين ويوصينا بضرورة الاطلاع على العهدين القديم والجديد للنصارى، ورغم أن هذه النقاط كانت بعيدة عن اهتماماتنا في تلك الأيام إلا أن كلمات هذا الشخص الجليل كانت تستقر في أذهاننا بشكل مستديم.

وفي أحد الأيام ذهبت لأداء صلاة العصر في المسجد مبكراً وجلست في موضع قريب من المنبر لكي أسمع بوضوح خطبة الإمام، فجاء الإمام وأخذ يصعد المنبر وهو

=فلما وصل مكة عقد حلقة درسه خلف المقام الحنفي صباحاً، وكان من طلابه: الشريف الحسين بن علي الذي تولى إمارة مكة ثم أعلن الثورة العربية عام ١٣٣٤هـ ضد الأتراك، والشيخ أحمد أبو الخير مرداد شيخ الأئمة والخطباء بالمسجد الحرام، والشيخ عبدالرحمن سراج الذي تولى إفتاء الأحناف، والشيخ أمين محمد مرداد المدرس بالمسجد الحرام، والشيخ عبدالرحمن بن حسن عجيمي، والشيخ عبدالله الغمري، والشيخ حسن عبدالقادر طيب، والشيخ عبدالرحمن دهان، والشيخ أسعد دهان، والشيخ حسن كاظم، والشيخ عبدالله أبو الخير مرداد، والشيخ عبدالحميد بخش الفلكي، والسيد حسن دحلان، والشيخ محمد حسن خياط، والشيخ عابد بن حسين مالكي، والشيخ أحمد نجار، والشيخ محمد حامد الذي تولى مديرية مدرسة الفلاح بعد تأسيسها، والشيخ محمد سعيد بابصيل مفتي الشافعية، والشيخ محمد سليمان حسب الله، والسيد عبدالله زواوي، والشيخ محمد زين العابدين، والشيخ محمد صالح كمال، والشيخ محمد علي كمال، والشيخ درويش عجيمي، والشيخ أبو بكر رفيع وغيرهم من علماء المسجد الحرام. وهو الذي بنى مدرسة الصولتية عام ١٢٩٢هـ ذائعة الصيت بمكة المكرمة بعد أن أوقف أرضها السيدة صولت النساء.
مؤلّفاته: كانت معظم مؤلفاته في الدفاع عن بيضة الإسلام وهي: إظهار الحقّ، وترجم باسم إبراز الحق الى جميع اللغات، إزالة الأوهام في الرد على المسيحيين بالفارسية، إزالة الشكوك في مجلدين بالأوردية، الإعجاز في تحريف الإنجيل، أحسن الأحاديث في إبطال التثليث، البروق اللامعة في إثبات الرسالة المحمدية (مخطوط)، البحث الشريف في إثبات النسخ والتحريف، اعوجاج الميزان في الرد على كتاب ميزان الحق للقسيس فندر، الشبهات في إثبات الاحتياج إلى البعثة والحشر، رسالة في الحشر، ورسالة في وقت صلاة العصر، ورسالة في ترك رفع اليدين في الصلاة. توفي رحمه الله بمكة المكرمة سنة ١٣٠٨هـ.
سير وتراجم لعمر عبدالجبار.

يتلو الآيات القرآنية ووصل إلى الجزء الأعلى منه رافعاً يديه إلى أعلى وقرأ الدعاء وصاح المؤذن من خلفه (آمين). بدأ الإمام خطبته قائلاً:

هل تظنون أن إبراهيم عليه السلام قد دعاكم إلى هنا لكي تقبلوا الأحجار فيها وتقدسوا المزارات؟ كلّا ثم كلّا؛ لأن الإسلام بعيد عن عبادة الأصنام ولا يوجد في الإسلام من يعبد غير ذات الله تعالى، إنكم وصلتم إلى هذا المكان بعد جهدٍ ومشقة وتركتم وراءكم أهلكم وأولادكم وأحبتكم وأنفقتم أموالكم في هذا السبيل، ولكن غلبت عليكم وسوسة الشيطان فأقبلتم على تقبيل الأحجار والتراب وزيارة المزارات، ثم اتباع بعض الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، لذلك أوصيكم بأن تفتحوا أعينكم. وتأخذوا معكم في العودة إلى دياركم بعضاً من ماء زمزم الشريف والتمر، وإنني أدعوكم للتفكير في قدسية هذه الفريضة وتلقي العبر من آيات الله والتخلق بالأخلاق الفاضلة والاستماع إلى نداء الرسول الأعظم ﷺ وهو يقول: (أُمتي.. أُمتي) وتُلَبوا نداءه.

لقد أكثر الخطيب من هذا الكلام ثم أنهى خطبته ونزل من على المنبر والدموع تترقرق من عينيه. لاحظت أن حجاجنا التتاريين كانوا في شغلٍ شاغل عن هذه الخطبة القيمة، وكانوا يستعدون للصعود إلى عرفات وأسفت كثيراً على حرمانهم من الاستماع إلى تلك الخطبة.

ذهبت إلى (منى) في ضحى اليوم التالي سيراً على قدمي وشاهدت الناس في طريقي مشاة وراكبي مختلف وسائل النقل وهم يملؤون الشوارع على اتساعها، وصلينا صلاة المغرب والعشاء جمعاً في مسجد (الخيف) وشهدنا حجّاجاً من أمم مختلفة راقدين في فناء المسجد بينهم الهندي والبنغالي واليمني والبربري والأفغاني والبخاري والحضرمي وغيرهم يعدون بالآلاف، غير أني لم أجد بينهم أي حاج من مسلمي روسيا سوى نعمت الله أفندي، وأمضينا الليلة في (منى) ونحن نذكر الله ونتلوا آيات الذكر الحكيم وشهدنا بعضهم نائمين وقد علا شخيرهم.

ثم تقدمنا للتعارف مع عدد من مشايخ بعض الجماعات، وأخذنا مجلسنا بعد تقبيل أيديهم وسألونا عن المكان الذي أتينا منه وقالوا: هل أنتم من (موسكو)؟ فأجبناهم: الحمد لله نحن على دين الإسلام وسألونا عن أحوال المسلمين في بلادنا فأجبناهم. سرّهم أننا نتكلم اللغة العربية وقالوا: إن ذلك دليل على أن الإسلام بخير، كما فرحنا نحن بالتعرف عليهم وأمروا لنا ببعض الحلويات فجاءوا بها وقال أحدهم: هذا من طعام حضرموت، فقلت: أين هي حضرموت؟ ولم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل، فقال: من ديار اليمن، ألم تسمعوا بسد مأرب؛ فإنه يقع عندنا.

تعرفت على بعض المعلومات عن حضرموت وعلمت أن أهلها يعملون في التجارة وفيهم أدباء وشعراء وعلماء وسادة من آل البيت يطلقون عليهم لقب "حبيب"، وقد وصل بعض السائحين منهم إلى بلاد الهند، ويندر بينهم من يعرف لغة

أجنبية. وعندما غادرناهم نهضوا جميعاً لتوديعنا وهم يرددون عبارة: أهلاً وسهلاً.. آنستونا.. وشرفتونا.

حاولنا التعرف على جماعات أخرى في المسجد إلا أن جهلنا بلغة بعضنا البعض حال دون ذلك، وأردنا التعرف على بعض البنغاليين إلا أن جهلنا باللغة كان حائلاً دون تحقيق رغبتنا. قلت في نفسي: لو تعلّم المسلمون جميعاً اللغة العربية واستخدموها لغة رسمية مشتركة ليتفاهموا بينهم وهذا يساعد كثيراً في تحقيق التقارب بين المسلمين كافةً. ولقد شغلتني هذه الفكرة كثيراً ولكن مما يؤسف له أن المسلمين غافلون عن إدراك هذه الحقيقة المهمة.

في الليل نمنا ثم استيقظنا في السحر قبل صلاة الفجر على ترانيم مؤذن منارة مسجد الخيف، فانطلقنا نحو المقهى لنتوضأ ورجعنا المسجد لقراءة القرآن ودلائل الخيرات والأذكار والأوراد إلى وقت صلاة الفجر.

في التاسع من شهر ذي الحجة تحركنا نحو جبل عرفات بعد أداء صلاة الفجر مباشرةً وأشرقت الشمس عند وصولنا إلى المشعر الحرام. وجدنا بعض الحجاج يصلون صلاة الإشراق وتوقفنا هناك نصف ساعة ثم استأنفنا السير نحو عرفات وكان الجو حاراً.

وصلنا عرفات متأخرين بعض الوقت ورأينا الحجاج التاريين جالسين في خيامهم وهم يحتسون الشاي وقد نزعوا عنهم أرديتهم بسبب الحرّ الشديد وأمامهم الغلايات الصفراء والبخار يتصاعد منها، وأحاط بهم عدد آخر من الحجاج كانوا منشغلين بالمساومة على المبلغ المطلوب مقابل العمرة الواحدة، وانخفضت الأسعار المعروضة إلى عمرتين مقابل مجيدية واحدة، مما جعلني أعتقد أن هؤلاء لم يأتوا إلى هذا المكان الطاهر بنية العبادة وإنما للتجارة.

ذهبنا إلى المسجد وصلينا صلاتي الظهر والعصر قصراً وجمعاً واستمعنا إلى الخطيب يعظ الناس باللغة التركية، وشاهدنا آخرين يطيلون في خطبهم لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات ونسمع أصواتاً تنادي (لبيك اللهم لبيك) تصدر من حناجر أكثر من مائة ألف حاج في آن واحد. وهكذا يظلون أمام جبل الرحمة حتى غروب الشمس.

لم أصادف هنا أحداً من الحجاج التتار، ويبدوا أنهم نزلوا إلى (مزدلفة) بعد أن أكملوا شرب الشاي. كنت أقول لنفسي ما هذه الحال يا ربي؟ هل أتى هؤلاء من مسافة آلاف الأميال لكي يحتسوا أقداح الشاي ويعودوا إلى بلادهم؟!

نزلنا إلى (مزدلفة) بعد الغروب (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام)، وتوقف الناس عند المسجد وهم يواصلون ذكر الله تعالى حتى الصباح الباكر، ويبدو أن حجاجنا من التتار لم يسمعوا بوجود مسجد في (مزدلفة) عندما يصلون إليها ويقضون الليل فيها ثم يغادرونها بعد صلاة الفجر مباشرةً. صلينا صلاة

الفجر في (المشعر الحرام) خلف إمام الحنفية بعد أن وقفنا برهة نتفرج على الرفاعيين وهم مشغولون بذكر الله حتى طلوع الشمس.

غادرنا (مزدلفة) إلى (منى) ومما لفت نظري هو عدم اهتمام الحجاج بالنظافة؛ فإنهم كانوا يقضون حاجتهم في الشوارع وفي كل مكان وينحرون الذبائح أمام خيامهم فإنه لم تكن هناك مجزرة خاصة لذبح الأغنام[1] وكانت درجة الحرارة حوالي ٣٥ درجة.

ومما لفت نظري واهتمامي أن عدد الحجاج يربو على المائة ألف، ونصف عدد هؤلاء على الأقل ينحرون الذبائح ومنهم من يذبح أكثر من عشر ذبائح فيصل عدد الأغنام التي تذبح هنا إلى أكثر من مائة ألف، وترى قطعان الأغنام تملأ المكان، وكل بدوي قد باع أغنامه المئات وأخذ مقابل ذلك ذهباً أو نقوداً، وتحول إلى بنك يمشي على قدمين وهو يحمل ثروته تلك وهو في أمن وأمان على نفسه وعلى ماله، ولم أسمع عن أية حادثة سطو أو سرقة من أي واحد منهم، ولقد سألت عن ذلك من أحد الشيوخ في

---

(١) وذكر عبدالرشيد إبراهيم في رحلة حجه عام ١٣٢٨هـ في كتابه "العالم الإسلامي": عملية ذبح الأضاحي تحسنت بعد أن خصص الوالي عثمان نوري باشا أماكن مخصصة للذبح وحفرت أخاديد لرمي القاذورات واللحوم وجمعت الجلود لصالح الحكومة ثم أنشئت مئات المراحيض في منى وعيّن عمال للنظافة فانتظمت منى بعض الشيء ا.هـ. وذكر إبراهيم رفعت باشا (وكان قومندان المحمل المصري عام ١٣١٨هـ وأمير الحج للأعوام ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٥هـ) في كتابه مرآة الحرمين: أن عدد الحجاج في عام ١٣١٨هـ كان حوالي ١٥٠ ألف حاج وكانوا ينحرون في الأعوام السالفة بالقرب من منازل الحجاج وفي ذلك تلويث الأماكن بالدماء وإثارة الروائح الكريهة التي تجعل الهواء موبوءاً والأجسام معتلة ولكن هذا العام عملت حفر كثيرة بعيدة عن منازل الحجاج بألف متر أريقت فيها الدماء فلم يلوث الهواء بمنى ولم نشم الروائح البشعة وكان الجو معتدلاً ولكنه بارد بالليل.

حوالي السبعين من عمره فقال: إني أحج منذ ستة وأربعين سنة ولم أصادف أو أسمع عن أية حادثة اعتداء أو سرقة أموال، والأمن مستتب هنا تماماً، والناس يشعرون به رغم أن مجموع أفراد الشرطة في مكة المكرمة بأسرها لا يتجاوز المائة على أكثر تقدير، ولم أصادف في (منى) شرطياً واحداً. أما في روسيا تذكرت ففي مدينة مثل (بترسبيرغ) فإنهم يسلبون البنوك في وضح النهار، رغم كونها محاطة بأفراد الشرطة من كل جانب، ولا يختلف الوضع في فرنسا أو انجلترا عن ذلك كثيراً.

ومع ذلك فإن أولئك إذا سمعوا عن اعتداء مزعوم وقع على أحد الحجاج في الطريق الصحراوي وبين الجبال والوديان الواقعة بين مكة والمدينة؛ فإنهم يرفعون عقيرتهم باتهام العرب والمسلمين في جرائدهم ويدعون اختلال أمور الأمن في الديار المقدسة. إن جميع المسلمين من مواطني روسيا الذين أدوا فريضة الحج وعادوا إلى بلادهم يعرفون هذه الحقيقة ويذكرونها.

يبقى الحجاج في (منى) إلى يوم ١٣ ذي الحجة، ثم تبدأ الاستعدادات للعودة إلى الوطن. وإني شخصياً عملت بنصيحة أستاذي أحمد أفندي بتقصي أوضاع الحج المختلفة وسأعود إلى المدينة وأنا أحمل معي ملاحظات ومعلومات كثيرة ومفيدة عن الحج.

عدنا إلى مكة المكرمة ووجدنا الحجاج مشغولين بشراء الهدايا وأخذ ماء زمزم قبل العودة إلى البلاد التي أتوا منها، بينما توجه بعضهم لزيارة المدينة المنورة وأعددت نفسي لمرافقة إحدى القوافل المتجهة إلى هناك.

ذهبت إلى المسجد وجلست قليلاً بعد الصلاة فجاءني رجل وسلّم عليّ وقال: أنا مسلم من مدينة (كييف) لا أعرف غير الروسية وعندي بعض المشاكل أود أن أعرضها عليك راجياً مساعدتي في حلها.

فقلت: إنني لا أعرف سوى القليل من اللغة الروسية فقال: لا بأس فإني أوضح لك.

ثم أخذ يعرض مشكلته قائلاً: إني أحج للمرة الثانية وأود أن أسأل لماذا يأتي هؤلاء إلى هذا المكان وهم منقسمون فيما بينهم إلى الهندي والتركي والبخاري والمغربي وغيرهم، ولا تختلط جماعة بأخرى ولا يعرف شخص من أحد الأقوام شيئاً عن الأقوام الأخرى، ونجد الكثير من الوعاظ والخطباء من كل الأقوام، أما الحجاج الروس فليس بينهم واعظٌ أو خطيب واحد ينير لهم الطريق، فإن حجاجنا لا يعرفون لماذا أتوا إلى هذا المكان لحد الآن، ولو كنت أعرف لساناً غير الروسية لكنت فهمت أشياء كثيرة لازالت خافية عليّ ولحصلت على معلومات مفيدة.

سألته: كيف اهتديت إلى الإسلام وأنت تجهل لغة أخرى عدا لغتك الروسية؟

فأجاب: إنني فكرت كثيراً قبل أن أهتدي إلى الإسلام، كما أنني اطلعت على الفلسفة المسيحية.

سألته: ما هي المشكلة إذن؟ قال: إنني أفكر كثيراً وأقول: في الوقت الذي يجتمع في هذا المكان أقوام كثيرون من جميع أنحاء العالم، فلماذا لا يفكرون في تأسيس اتحاد يجمع شملهم.

قلت: نعم إن حكمة التوحيد هي شعار الإسلام ويقوم الإسلام عليها، والأمة الإسلامية متماسكة ومرتبطة ببعضها برباط كلمة التوحيد.

فقال: إنني أتمنى وأقدر كلامك فإني قد أسلمت عن اقتناع بهذا الدين والقوانين الإلهية التي يستند إليها، وما يلام المسلمون عليه هو غفلتهم وخروجهم عن تلك الأسس والقوانين. قال ذلك قبل أن يودعني ويخرج.

بعد ذلك فكرت في أمر هذا الرجل وأنا أقول لنفسي: تصور أن روسياً يهتدي إلى الإسلام ويزور الديار المقدسة وينشغل بمثل هذا التفكير العميق حول أوضاع المسلمين، ولمت نفسي لأنني لم أصل بعد إلى هذه النقطة الحساسة، ناهيك عن ملاحظات أخرى كثيرة تتعلق بأوضاع المسلمين عامةً.

مرّ بعض الوقت وسمعت صوت المؤذن وهو يقول: الله أكبر، ورفعت رأسي فشاهدت المئذنة وقد حطت عليها بعض الطيور وكأنها قد جاءت لتسمع صوت

المؤذن، وبعد الصلاة لاحظت أن الطيور لازالت واقفة على المئذنة وبدأ الخطباء بإلقاء المواعظ في شتى أنحاء المسجد الحرام.

رأيت الحجاج الهنود والجاوَى وغيرهم وقد اجتمعوا وهم يستمعون إلى خطبائهم، منهم من يرتل القرآن ويدعو الله بينما وجدت زملاءنا التتاريين جالسين ومشغولين بشرب الشاي بعد أن أدوا فريضة الصلاة مباشرةً.

عدت إلى الحرم الشريف وقررت البقاء فيه إلى صباح الغد، وبينما أنا جالس هناك جاء رجل وبدأ بقراءة الدعاء وهو يبكي بكاءً مراً، ويخلط كلامه ببعض الكلمات الروسية، فتعجبت من حالة الرجل الذي أكمل دعاءه وتوقف عن البكاء. وعندما همّ بمغادرة الحرم أوقفته وسألته من أين أتيت؟ فقال: أنا من (البوسنة). ولم أكن سمعت بهذا الاسم من قبل ذلك، فقلت: يا ربي ما أعظمك وما أكثر الأمم التي خلقتها!

قضيت الليل في الحرم الشريف ونمت بعض الوقت، وعندما استيقظت وجدت الناس لا يزالون يطوفون حول الكعبة، ثم سمعت أذان الفجر، ولفت نظري أن الطيور لا زالت واقفة على المئذنة. سألت عن ذلك أحد الحجاج العرب فقال لي: هذه طيور الرحمة إنها تأتي وتقف على المئذنة مع أذان المغرب وتغادرها بعد أذان الفجر مباشرةً، ودفعني ذلك إلى التفكير، لماذا عدد الطيور هناك خمسة لا يزيد عنها ولا ينقص؟

غادرنا مكة المكرمة يوم ٢١ ذي الحجة برفقة القافلة متوجهين إلى المدينة المنورة، وكان من المعتاد أن يتقاضى البدوي من الحاج ٢٤ مجيدياً عن كل حاج لإيصاله إلى المدينة المنورة بعد أن يقطع به المسافة في أحد عشر يوماً، ويتعهد الجمّال بإيصال المسافرين سالمين إلى المكان المقصود.

ولتأمين هذا التعهد على الجمال أن يرهن أباه في محكمة شريف مكة ويتقاضى شريف مكة عن كل حاج رسماً قدره ثلاث مجيديات ويدفع مجيدية واحدة عند الخروج وأخرى عند الوصول، وبذلك يبقي للجمّال خمسة عشر مجيدياً بعد دفع هذه الرسوم، وإنه يعتبر بذلك محظوظاً، أما إذا توفي أحد الحجاج بالطريق فعليه أن يدفع مئات الليرات قبل أن تفرج المحكمة عن أبيه.

إن الجمّال مسئول أن يقوم بخدمة المسافرين في الطريق ويعد لهم طعامهم في الاستراحات ويدفع له الحاج ربع مجيدي عن طيب خاطر مقابل تلك الخدمات، والبدوي يتصف بالطيبة والكرم والاستقامة ولا يستغل الحجاج في الطريق أو يؤذيهم، ورغم أن البدوي محروم من التعليم والتربية، فإنه لا يعرف الكذب أو الغيبة، وهو على استعداد للتخلق بأخلاق المدينة، ومعروف بإكرام الضيف ويقدم لهم القهوة وهو دليل على الكرم. وإن الضيف الذي يكون لديه طلب عند البدوي يمتنع عن شرب القهوة المقدمة إليه في دار البدوي قبل إجابة طلبه، ويحدث أن يلح صاحب الدار على ضيفه لكي يشرب القهوة فيمتنع الضيف وتبرد القهوة وتسخن عدة مرات قبل أن يرضخ

صاحب الدار ويستجيب إلى طلب ضيفه. وتقدر درجة كرم البدوي بدرجة تلبيته لمثل هذه الطلبات. إن البدوي إذا وعد فإنه يوفي بوعده مطلقاً.

وصلنا إلى المدينة المنورة في اليوم الخامس من شهر المحرم ومباشرة ذهبت للمواجهة الشريفة بالحرم النبوي وبعد الصلاة والسلام على الرسول ﷺ ذهبت إلى أستاذي شيخ القراء أحمد أفندي فسألني قائلاً: الآن أخبرني ما هي الهدايا التي أتيتني بها؟ فقلت له: إني جئتك معي بسلام من أهل جبل طارق وحضرموت ففرح بذلك كثيراً ونزل الدمع من عينيه وهو يقول: الآن أهنئك وأتمنى لك حجاً مبروراً وأسألك بعض الأسئلة: أين أحرمت وماذا شاهدت هناك؟ فقلت: إني أحرمت من (رابغ)[1]، والواقع فإنه لم يعجبني تصرف بعض الحجاج العرب، فقد أحرم بعضهم بينما وجدت الآخرين يلبسون ثيابهم العادية فوق ملابس الإحرام، وشاهدت في المحرمين "سيد صافي" الذي جعلني أدرك بأن الناس سواسية عند الله لا فرق بين غنيهم وفقيرهم.

وكما رويت لأستاذي الأشياء الأخرى التي لاحظتها خلال موسم الحج، ولكن الأستاذ لم يبد عليه أنه مقتنع تماماً وكانت لديه نقاط أخرى وجّه نظري إليها وكرّر: إن كلمة (الحج) من أولها إلى آخرها تعني أعمالاً سياسية، مضيفاً لو كان باستطاعة دولتنا العثمانية الاستفادة من هذه السياسة الشرعية ووضعت الحجاز في

---

(١) لم يذكر في بداية سفره أنه أحرم من رابغ (ميقات الجحفة)، وإنما ذكر أنهم وصلوا إلى ميقات ذي الحليفة.

الموقع الذي يليق بها لانضوت الدول الكبرى تحت المظلة الإسلامية، ولكانت تلك الدول تحسدنا على ما سنحصل عليه من تقدم، ولكن هذا حكمك يا ربي، إنك قد أعميت بصيرتنا إلى هذه الدرجة، وعاد ليقول لي: يا بني مع ذلك فإن مالك الملك هو الله سبحانه وتعالى، وإننا بدلاً من أن نعترف بعجزنا فإننا ندفع عن أنفسنا مسئولية تصرفاتنا، ثم قال: سأروي لك قصة فيها بعض العبر.

يُروى أن السلطان عبدالعزيز عندما كان يزور أوروبا لأول مرة كان جالساً إلى مائدة الطعام ويتناول طعامه بأصابعه دون استعمال الشوكة والسكين، وعندما سئل عن ذلك أجاب: نحن المسلمين نتبع ما أمرنا الله به، إلا أن مترجمه "فؤاد" ترجم ما قاله السلطان هكذا: نحن الأتراك ربّانا أجدادنا وآباؤنا على الفروسية واستخدام الأسلحة لمنازلة الأعداء في ساحات الوغى، ولم يعلمونا كيف نعمل عندما نملأ بطوننا بالطعام، وكان هذا الجواب المفحم موضع إعجاب وحيرة الجالسين، فيا بني إن كان الاعتراف بالضعف ضرورياً فليكن هكذا. ورغم أني لم أدرك قصده من هذا الكلام في وقته إلا أن الأمر لا يحتاج الآن إلى شرح.

ظلت سفرتي إلى مكة المكرمة مدار حديثنا مع شيخي ستة أشهر أخرى، وأنا أواصل حفظ القرآن الكريم إلى أن حصلت في نهايتها على إجازة الحفظ.

وعندما رغبت في الزواج والإقامة الدائمة في المدينة المنورة فإن أستاذي وقف ضد تلك الرغبة، وكان ينصحني بالعودة إلى بلادي ويصر على ذلك إلى درجة قريبة من

الطرد، مما جعلني أبتعد عنه بعض الوقت وانقطعت عن زيارته، وبدأت الدوام في خانقاه الشيخ مظهر أفندي الذي عرضت عليه بعد فترة رغبتي في البقاء في المدينة المنورة والزواج فيها فرفض بدوره تلك الفكرة.

لقد وصلتني طلبات ودعوات للعودة إلى بلدتي (تارا)، كما تلقيت رسالة من نصر الدين حاجي مع بعض المبالغ. وكل ذلك جعلني أنبذ فكرة البقاء والميل إلى العودة. خاصة بعد أن حصلت على إجازة في القراءات من الشيخ أحمد أفندي بحضور شيخ الحرم والمحافظ وجمع من الأعيان، كما حصلت على إجازة في علم الحديث من مولانا الشيخ "علي ظاهر الوِتْري"[1] كما حصلت من أحمد ضياء أفندي على إجازة في علم الفقه، ومن الشيخ آخون جان إجازة في الفرائض وعلم الحساب، وبدأت أستعد للعودة.

وعندما قابلت شيخ القراء أحمد أفندي وأبديت استعدادي للسفر والعودة إلى بلادي دمعت عيناه وقال لي: أود أن أراك وأتحدث معك صباح غد.

عند زيارتي له في اليوم التالي قال لي: يا ولدي إنني فخور بك وإنك ذو حظٍ

---

(١) الشيخ نور الدين أبو الحسن محمد علي بن ظاهر الوتري الحسني البغدادي المدني، ولد وتوفي بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٢هـ، محدث المدينة في عصره وممن انتعش بهم فن رواية الحديث في المشرق والمغرب، رحل إلى المغرب مرتين وأقبل الناس على الأخذ عنه. من آثاره «التحفة المدنية في المسلسلات الوترية» ورسالة في «الكلام على قول الغزالي: ليس في الإمكان أبدع مما كان». الأعلام للزركلي (٦ / ٣٠١).

عظيم؛ لأنك ستكلف بمأمورية خاصة من مدينة الرسول الأعظم ﷺ للذهاب إلى إخواننا المسلمين في روسيا وستبلغهم سلامي عندما تصل إليهم، وهل تتصور مبلغ سرور إخواننا هناك عندما يرونك بينهم، إنك ستعمل هناك بكل ثبات واستقامة، وستنفخ فيهم روحاً جديدة. إنك تعلم أن التتار هناك يعانون من الأسر منذ أربعمائة عام، فما أعظم المهمة الموكولة إليك، ولا تنسَ أن من يعهد إليه بمثل هذه المهام العظيمة يصبح هدفاً للشبهات والافتراءات وتوضع أمامه الموانع والعراقيل والدسائس، والصبر كما تعلم هو مفتاح الفرج، فكن صبوراً ومتأنياً في أحكامك، والله ينصرك في تحقيق مهمتك، وكن عطوفاً ومشفقاً مع عامة الناس، ودبر أمورك مع الأكابر والأثرياء، وألف بين قلوب المؤمنين قدر طاقتك، واعلم أن الاتحاد والاتفاق هو مفتاح تخليص المسلمين مما هم عليه من تأخر في الوقت الراهن، ولا تنسَ أن أول خطوة سياسية خطاها النبي العظيم صلى الله عليه وسلم كانت عملية التآخي بين الأنصار والمهاجرين، فاجعل ذلك نبراساً لك في جميع تصرفاتك، ولا تنسَ أن كسب ثقة الناس يؤدي إلى تسهيل الأمور ونجاح المرء في مهمته.

كانت هذه وصايا عظيمة تلقيتها من أستاذي. وعندما قابلت الشيخ علي موسى -وهو من الرجال المعروفين في المدينة المنورة- قدّم لي بدوره وصايا قيمة، ومن أقواله: إن حياة أي أمة تبنى على العلم، والعرب كانوا سادة عندما كانوا في خدمة العلم، وعندما نبذوا الاهتمام بالعلم ابتعدوا عن خدمة بلادهم، ويكمن المستقبل

المشرق لأمتنا في العلم الذي يؤمن العيش الرغيد للبلاد والعباد، وأنت الآن تنوي العودة إلى بلادك، فإذا وفقك الله فإنك ستنير الطريق أمام مئات الألوف بل الملايين من أمة الإسلام، وستبعث فيهم روح الإقبال على العلم والمعرفة. وإن قال الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمة الله عليه حينما غادر الحضرة النبوية: (يا رسول الله ليكن جسدي موجوداً في الكوفة، وليكن قلبي متصلاً بهذا المكان)[1]. فارجع أنت إلى بلادك ولقن العلم لأولاد أهل الإيمان، ولا تشغل بالك بفرضيات الفقهاء المتنوعة عندما تجد مبتغاك في الكلام الرباني الصريح في كتابه المبين، ونحن نعلم أن بعض السلاطين القدماء هم الذين وجهوا الفقهاء لذلك، وإنك تجد في علم الفقه الكثير من كلمات (قيل وروي ويقال)، فإن فقدان الناس لبصائرهم يؤدي إلى اختلاط الأمور، فهل من الجائز أن نستند في أمور الدين وحقوق العباد إلى أقوال أناس لا نعرف عنهم شيئاً؟!

إنني لم أكن أتوقع مثل هذا الكلام من علماء المدينة المنورة[2]؛ لذلك قمت في

---

(١) بحثت عن مصدر هذا الكلام ولم أجده، وفي الحقيقة أن القول ذكر في أصل الكتاب باللغة التركية وما جاء أعلاه هو ترجمة لكلام الشيخ علي موسى حيث جاء: (يا رسول الله جسم كوفده اولسنده قلبم بورايه مربوط اولسون).

(٢) المؤلف رحمه الله نقل إلينا صورة جديدة من أحوال مشايخ المدينة المنورة، مغايرة للصورة الذهنية عندنا والتي كان يغلب عليها أن معظمهم هاجروا إلى المدينة مجاورين وزاهدين عن السياسية وهموم الأمة. هذه الحوارات وخاصة مع بعض المشايخ كالشيخ علي بن موسى أفندي وشيخ القراء أحمد أفندي تعطي صورة واضحة عن الهموم التي كان يحملها مشايخ المدينة المنورة تجاه الدولة والأمة الإسلامية وواجب الإصلاح والدعوة في الداخل والخارج، وهم في بقعة بعيدة عن مركز الخلافة وصناعة القرار السياسي ومنعزلين جغرافياً عن بقية العالم بسبب عدم وجود وسائل مواصلات حديثة كالقطار أو وسائل اتصالات كالتلغراف.

اليوم التالي بزيارة الفقيه الشيخ "عبدالقادر الطرابلسي"[1] وعرضت عليه الأمر فقال لي: "هو صادق الآن يجبرونا نحن، الله يصلح أحوالنا".

و لم يزد على ذلك شيئاً وقمت بعد ذلك باستشارة علماء آخرين في المدينة المنورة قبل أن أقرر العودة إلى بلادي، وزرت مكة المكرمة مرة أخرى في موسم الحج. واتصلت مع والي مكة المكرمة "عثمان نوري باشا"[2]، كما زرت الشريف "عون الرفيق" ونصحني عثمان نوري بالبقاء بمكة المكرمة إلى حين حلول مناسبة المولد النبوي. ومن الأكابر الموجودين في مكة المكرمة آنذاك "خير الله إسترلي" و"مخدوم عمران أفندي" و"عبدالرحمن أفندي طاشكندي"[3].

عاد الحجاج إلى بلادهم بعد انتهاء موسم الحج وبقيت هناك لمدة محدودة. كنت أستعد للسفر والعودة إلى بلادي، ولكني لا أحمل جواز سفر، وعندما عرضت الأمر على عثمان باشا قال: لا بأس عليك؛ لأنه لا حاجة لك إلى جواز سفر، وسنزودك بوثيقة مرور توصلك إلى بلادك. حصلت على الوثيقة، وقدم لي عثمان باشا بعض التوصيات

---

(١) عبدالقادر بن عبدالقادر الحسيني الطرابلسي الأدهمي، من أهل طرابلس الشام نزيل المدينة النبوية وخادم الحجرة النبوية له عدة مؤلفات: عزائم السياسة في علم الفراسة، وبشائر الابتهاج في أشاير الاختلاج، وأربعة رسائل في الكواكب والبروج، وترجمة القاوقجي الحسني، وهدية الناسك، وغيرها. من طلبته إبراهيم الأسكوبي، توفي سنة ١٣٢٥هـ. الزركلي ٤/ ٣٩.

(٢) تم التعريف به في المقدمة التاريخية.

(٣) عبدالرحمن سلطانوف الطاشكندي، كان تاجراً وينزل في بيته الحجاج التركستانيون، ذكره الحاج عيشايف في مذكرات رحلاته والذي خدم في قنصلية روسيا بجدة وحج عام ١٨٩٥م.

بخصوص إرسال الشباب من بلادنا لكي يتعلموا ويتفقهوا في الدين الحنيف قبل عودتهم إلى بلادهم، وألحّ كثيراً على طلبه، فوعدته بالعمل لتنفيذه.

وخلال مكوثي بمكة المكرمة، حضرت دروس حفظ القرآن الكريم عند شيخ القرّاء الشيخ "سرور"[1]، وكان عبداً زنجياً أعتقه سيده بعد أن قدم خدمات جليلة في العلوم القرآنية، ونال درجة أكابر القراء في مكة المكرمة.


الشيخ محمد مراد رمزي

كذلك زرت في هذه الاثناء مواقع ومزارات عديدة، وزرت (جبل النور) والمقام الذي نزل فيه الوحي إلى الرسول الكريم ﷺ (اقرأ باسم ربك الذي خلق).

وفي صعودنا إلى الجبل رافقت المشايخ الكرام محمد مراد أفندي[2] وخير الله أفندي وعمران أفندي. وجبل النور من

(١) الشيخ سرور بن عبدالله الحبشي القلچني، برع في علم القراءات وأعتقه سيده الفاضل إبراهيم أفندي قلچني اشتراه بمصر واستخلصه للعلوم فعلمه القرآن، وحضر على الشيخ محمد المتولي وقرأ عليه في اللغة العربية وعلى الشيخ يوسف البراموني في القراءات وقال: قرأت عليه العشرة فأجازني عن مشايخه. وبمكة حضر على الفاضل أحمد الدمياطي مفتي الشافعية ولازمه، ثم حضر على غيره من العلماء فأجازوه. ومن طلبته: الشيخ محمد ذاكر بن نور محمد التمتي المكي ناظر تكايا قازان بمكة المكرمة، توفي رحمه الله في ربيع الأول سنة ١٣١٧هـ. فيض الملك المتعالي لعبدالستار دهلوي.

(٢) الشيخ العلامة الرحالة الداعية الشيخ محمد مراد رمزي بيك بن باطر شاه عبدالله الألمتي المنزلوي المدني المكي الحنفي النقشبندي المجددي (المعروف بمحمد مراد القزاني)، تتاري الأصل ولد في قرية "إِلْمِت" من مضافات قصبة "مِنزلة" التابعة لولاية أوفا بالقرب من قازان في محرم عام ١٢٧١هـ=

=(وقيل: منتصف ربيع الثاني من عام ١٢٧٢هـ) ووالده كان من قرية تتبع قضاء "بوكلمه" وقرأ مبكراً لمدة عشر سنوات القرآن والتجويد، أخذ القرآن على والديه ثم قرأ على خاله الملا حسن الدين (ملا صاحب الدين) بن ملا زين الدين بن عبدالرشيد النوركايي تـ ١٣١٠هـ (تلميذ الشيخ إسماعيل بن موسى المچكروي القشقاري ت ١٣٠٥هـ) النحو والصرف والمنطق والأخلاق والفقه وشرح العقائد النسفية ولازمه حتى بلغ الثامنة عشر. ثم سافر لطلب العلم في قازان بمدرسة العلامة المرجاني في أول ربيع الأول من عام ١٢٩٠هـ لكنه لم يستقر هناك وفي طريق سفره إلى بخارى توقف في بلدة طروبسكي حوالي سنتين، فكان من شيوخه فيها الشيخ زين الدين بن حبيب الله الشريفي الطروبسكي النقشبندي المجددي الخالدي المولود عام ١٢٤٨هـ والشيخ ملا محمد جان بن عبدالطاهر الرحمانقلي تـ ١٣١٨هـ قرأ عليه شرح العقائد وسلم العلوم في المنطق وهو غير السلم المنورق المنظوم والشيخ ملا شرف الدين بن الملا مهدي (ت ١٣١٣هـ) قرأ عليه مباحث من العقائد النسفية والجزرية بتمامها كان يقرأ عليه كل يوم بيتين في خلال ساعة وذلك في عام ١٢٩٠هـ. وقد سافر رحمه الله إلى طاشكند وأقام فيها شهرين من عام ١٢٩٢هـ ثم دخل بخارى عام ١٢٩٣هـ وحضر دروس الشيخ الملا عبدالله المفتي السرطاوي القازاني والملا عبدالشكور التركماني، ثم عاد إلى طاشكند وأقام بنواحيها سنتين وتشرف بالإنابة في الطريقة على يد بعض المشايخ في تلك الناحية، ثم توجه للحج منتصف عام ١٢٩٥هـ فسلك طريق سمرقند وقرشي وعذار وبلخ وكابل وجلال آباد وبشاور ولاهور فحيدر آباد فكراتشي وركب البحر حتى وصل جدة ودخل مكة المكرمة في أواخر شهر شوال، وبعد أن أدى فريضة الحج توجه إلى المدينة المنورة وأقام في رباط البزازية فدخل في مدرسة أمين آغا ثم تحول بعد شهر إلى مدرسة الشفاء ثم انتقل منها بعد ثمانية أشهر إلى المدرسة المحمودية فحضر دروس الحديث والفقه والتفسير عند كبار علمائها وأتم حفظ القرآن بها ونال الإجازة من شيوخ المدينة ودخل الطريقة النقشبندية المجددية عند قطب وقته الشيخ محمد مظهر الهندي قدس الله روحه، ثم عاد لبلاده وبعد عدة أشهر رجع إلى الحجاز، وبعد أداء الحج للمرة الثانية أقام بمكة المكرمة وحضر صحبة مولانا الشيخ العلامة عبدالحميد أفندي بن الحسين الداغستاني الشرواني (توفي ٢٦/ ١٢/ ١٣٠١هـ)، ثم سافر إلى بلده وعاد مرة ثالثة ودخل المدينة المنورة أولاً عن طريق ينبع، ثم حج للمرة الثالثة وحضر درس سنن أبي داود عند شيخه عبدالحميد المذكور بعد أن استفاد منه الطريقة وبعد أن توفي جلس مكانه الشيخ محمد صالح الزواوي فجلس عنده يحضر دروسه ولما سافر شيخه الأخير تفرغ في رجب سنة ١٣٠٢هـ لتعريب كتابي الرشحات والمكتوبات للإمام الرباني السرهندي، ثم جلس شيخاً بأمر مشايخه واطلع على الكثير من الكتب في التصوف والحديث والتفسير وطبع كتاب الرشحات بمكة عام ١٣٠٧هـ.

وكان رحمه الله عالماً ومؤرخاً ضليعاً وشاعراً ويتقن الفارسية، ومن مؤلفاته: "تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في تاريخ الترك والتتار" ذكر أنه كتبه عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م)، وطبع الكتاب في أورينبورغ سنة=

=١٩٠٨م واكتفى بتوقيعه م.م رمزي خوفًا من سطوة السلطات الروسية، وكتاب "مشايعة حزب الرحمن في مدافعة حزب الشيطان" في الرد على موسى جار الله.

تزوج من أسماء بنت شاه محمد، ورزق بتسعة أولاد وفي عام ١٣٣٢هـ أودع عائلته في قرية شِيبْ باشي (تيتيوشي) بالقرب من قازان، وخرج مع ابنه فهمي فدخل طاشكند وبخارى وخُوقند ونمنكان وأنديجان وحاول السفر إلى تركيا لكن السفينة التي ركبها من أُديسّه وقعت تحت نيران مدافع السفن الحربية العثمانية فاضطرّ إلى العودة إلى بلاده فسكن قازان أيام الحرب العالمية الأولى ثم انتقل إلى أورينبيرغ.

وهو والد الدكتور فهمي رمزي صاحب أول صيدلية في تاريخ مكة الكرمة كان ذلك في الستينات الهجرية، وكانت الصيدلية على يسار الداخل إلى أجياد. وكان رحمه الله واحداً من مجموع علماء تتارستان الأفذاذ الذين بذلوا كل ما لديهم للدعوة والنهوض بالعالم الإسلامي.

وفي عام ١٣٣٧هـ هاجر إلى تركستان الشرقية ومرّ في طريقه بخُجَند وأقام في ولاية جوجك بأقصى شمال تركستان الشرقية إقامة دائمة وذلك في بداية الأربعينات الهجرية، بعد أن قام بسياحة لعموم تركستان من جنوبها إلى شمالها بما فيها أورومچي عاصمة تركستان الشرقية.

ومن مشايخه: الشيخ آخوند جان المرغيناني المدني المكي، والشيخ عبدالقادر الطرابلسي الخطيب المدني، والشيخ محمد بن محمد العذب المدني، والشيخ السيد محمد علي بن السيد ظاهر الوتري المدني، والشيخ حسن الأسكوبي المدني، والشيخ عبدالرحمن سراج المكي مفتي الحنفية، والشيخ محمد معصوم الدهلوي المدني المكي، والشيخ عبدالكبير الكتاني الفاسي، والشيخ بدرالدين الشامي الدمشقي وغيرهم.

ومن طلبته: محمد سلطان المعصومي، وابن يمين الساعاتي، ومحمد أمين بوغرا، ومحمد صالح آخون داملا بن نظام الدين آخون الكاشغري الذي كتب له إجازة بخط يده في ٣/ ٢/ ١٣٤٨هـ، كما أجاز كتابة الشيخ أبو سعيد محمد عبدالهادي بن محمد عبدالكريم بن أحمد حسين المدراسي الحيدر آبادي (صاحب كتاب هادي المسترشدين) بمكة المكرمة في ٣/ ٢/ ١٣٢٥هـ.

وقال عنه الشيخ الرحالة القاضي عبدالرشيد إبراهيم في كتابه "العالم الإسلامي": من أعظم مشايخ النقشبندية ومن أكابر علماء العصر الحاضر ومعروف بفضله وكماله بما نشر من الكتب، وهو يجاور مكة منذ ما يقرب من نصف قرن، وله اليد الطولى في الأصول والفروع ا.هـ. وذكر أنه التقى به في مكة المكرمة أثناء أدائه لفريضة الحج عام ١٣٢٧هـ، حيث أقام في رباط الحجاج التتار بمكة المكرمة الذي كان الشيخ مراد ناظراً عليه ويقيم دروسه فيها، وكانا قد عقدا عدة اجتماعات مع العديد من مشايخ وعلماء وحجاج العالم الإسلامي خلال ذلك الموسم للتعارف والتشاور وبحث قضايا المسلمين في ذلك الوقت.

توفي رحمه الله في جوجك في تركستان الشرقية سنة ١٣٥٢هـ أو ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م). علماء ما وراء النهر المهاجرين للحرمين لمنصور بخاري (وهذه ترجمة معدلة وموسعة عما كتبت هناك ص ٨١).

الجبال العالية، وقد فتحوا طريقاً خاصاً يصل إلى ذروة الجبل الذي صعدنا إليه فتراءى لنا المدينة أنها قريبة منا، ولا ندري أي شيطان وسوس لنا أن ننزل إليها مباشرةً دون أن نسلك الطريق الذي جئنا منه، ولم يوافقنا بذلك الشيخ مراد أفندي، وبقي في أعلى الجبل، وبدأنا بالنزول نحن الثلاثة خير الله أفندي وعمران أفندي وأنا. وخلال محاولاتنا النزول صادفتنا عوائق وعراقيل وصخور ووديان أتعبتنا كثيراً، ثم وصلنا إلى هوة واسعة يستحيل علينا اجتيازها، فقررنا الرجوع والصعود إلى ذروة الجبل ثانية بعد جهود مضنية لكي ننزل من نفس الطريق الذي أتينا منه عند الصعود.

ولقد سجلت هذه الحادثة في مذكرتي بعد ذلك وكذلك ذكرتها في رسائلي التي أرسلتها إلى أصحابي في (تارا).

في أواخر شهر صفر قررت العودة نهائياً إلى بلادي مع خير الله أفندي، وزرنا الشيخ محمد زواوي[1] من خلفاء الشيخ مظهر أفندي الذي بدأ يدعو لنا ويقول: اتقوا الله وأعطوا كل ذي حقٍ حقه والله يكون في عونكم. كان الشيخ يسكن في غرفة ملاصقة للحرم الشريف في باب العمرة، ومن هناك ذهبنا لزيارة شيخ المفسرين المؤرخ

(١) الشيخ محمد صالح بن عبدالرحمن الحسني الإدريسي الزواوي الشافعي، ولد بمكة المكرمة في عام ١٢٤٦هـ ودرس على الشيخ محمد السنوسي المالكي والشيخ أحمد الدهان الحنفي والشيخ محمد بن خضر البصري الشافعي والشيخ عمر بن عبد رب الرسول وغيرهم، تصدر للتدريس بالحرم المكي الشريف وانتفع به الكثير وأخذ الطريقة النقشبندية المجددية عن الشيخ محمد مظهر المدني وصار خليفته، توفي بمكة في ذي الحجة سنة ١٣٠٨هـ ودفن بالمعلاة. مختصر نشر النور والزهر.

الشهير السيد دحلان[1] الذي دعا لنا أيضاً بقوله: سيروا على بركة الله.

غادرنا مكة المكرمة متوجهين إلى جدة، حيث صادفنا هناك عبدالرحمن أفندي طاشكندي الذي قال لنا: إنه تأخر في جدة مدة شهر واحد لعدم وجود سفينة متجهة إلى استانبول وسررنا بلقياه، كما سرّ هو أيضاً، وانضم إلينا لكي نسافر سوية.

في اليوم التالي ذهبنا إلى الميناء وأقلعت بنا السفينة، وكان معنا بعض القازاق، وصادفتنا في الطريق عاصفة هوجاء. وصلنا السويس بعد ثلاثة أيام وكان الجو شديد البرودة. قضينا في السويس ليلة واحدة وتوجهنا بعدها إلى الإسكندرية التي وصلناها بعد يوم واحد وقضينا فيها أسبوعاً كاملاً، اتصلنا خلاله ببعض العلماء في تلك المدينة. ذهبنا مرة إلى السوق ووقفنا أمام دكان جزّار لشراء اللحم، فوجدنا في الدكان شخصين

---

(١) الشيخ أبو العباس أحمد بن السيد زيني دحلان المكي، مفتي الشافعية بمكة المكرمة، العلامة المشهور من طار ذكره في الأقطار واشتهر فضله في الأمصار، ولد بمكة في ١٧ رجب سنة ١٢٣١هـ، أخذ العلوم الشرعية عن أفاضل وأكابر من مكيين ويمنيين ودمشقيين ومصريين وخلق كثير. بدأ يدرّس بالمسجد الحرام إلى خمسة دروس يومياً فكثر أتباعه وصار المسجد الحرام يزهر به وبأتباعه فصار غالب من في الحرم من تلامذته، حتى ولي إفتاء الشافعية بمكة بعد موت السيد محمد الحبشي سنة ١٢٨١هـ ثم تولى مشيخة العلماء بالحرم المكي سنة ١٢٨٤هـ. كان رحمه الله لطيف المعاشرة، حسن المسايرة، سار في منهج العلم والأدب من صغره، يحبه الخاص والعام، والأهالي والحكام، حتى بلغ أنه صار رئيس علماء الحجاز، ومقدمهم في الحقيقة والمجاز. له مؤلفات كثيرة منها: السيرة النبوية، أمراء البلد الحرام، ثبت في مروياته، تاريخ طبقات العلماء، شرح الآجرومية ألفه وهو في الطائف عند مسجد سيدنا عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما سنة ١٢٩١هـ، الجداول المرضية في تاريخ الدولة الإسلامية، شرح على ألفية ابن مالك في النحو، فتنة الوهابية، وغيرها. وقد أفرد ترجمته بالتأليف تلميذه السيد أبو بكر شطا الدمياطي المكي برسالة مطبوعة سماها "نفحة الرحمن في مناقب شيخنا سيدي أحمد دحلان". توجه لزيارة سيد المرسلين في المدينة المنورة في ذي الحجة من عام ١٣٠٣هـ فتوفي فيها رحمه الله تعالى في الرابع من صفر سنة ١٣٠٤هـ.

أحدهما يقرأ القرآن والآخر يستمع إليه، فقام المستمع وأعطانا اللحم واستلم ثمنه، وأخذ يحسب لكي يطرحه من المبلغ الذي دفعناه له ويدفع لنا الباقي، وأثناء ذلك توقف مرتين وهو يصحح الخطأ لزميله القارئ. ورغم أننا من حفظة القرآن، فلم نستدل على السورة التي كان يقرؤها، هذا بجانب إعجابنا الشديد وتقديرنا البالغ لهذين الشخصين المداومين على قراءة الذكر الحكيم، بينما تذكرت أنه لا يوجد في بلادنا شخص واحد حافظ للقرآن وهو يمتهن مهنة الجزارة. رأينا أن الإسكندرية تعاني من الخراب الذي حل بها في أعقاب الحرب مع الإنجليز أواخر عام ١٨٨٤م.

أقلعت بنا باخرة روسية إلى استانبول، وقد برد الجو كثيراً، وشاهدنا آثار الثلج على سطح الباخرة، وفي استانبول وبعد أن استرحنا بعض الوقت، ذهبنا لملاقاة بعض الذوات الكرام في البلدة، وزرنا القصر السلطاني، وكان الناس في ذلك الوقت يتمتعون بالحرية التامة، وكان السلطان عبدالحميد يؤدي صلاة الجمعة في (المجيدية) وأحياناً في (نيشان طاش) في حي التشويقية، وأحياناً أخرى في (بشيكطاش).

بدأنا بالاستعداد للسفر إلى روسيا، وقال لي بعض سماسرة السفر: إن وثيقة المرور التي أحملها لن تفيدني في الوصول إلى روسيا، وصدقتهم عن جهل، ودفعت عشرة روبلات ثمن جواز سفر لأحد الحجاج المتوفين المدعو علي أحمد حاجي، وغادرت إلى أوديسا، وهناك طلبوا مني ستين روبلاً فأجبتهم بأنني لا أحمل حتى ستة روبلات فتركوني. وصلنا إلى (أورينبورغ) وكان نصر الدين حاجي ايديكين قد دعاني

إلى (إربيت)[1]، غير أنني لم أجد شخصاً أرافقه إلى هناك، وعلمت أن المسافة طويلة والطريق ليس آمنا. وفي (أورينبورغ) نزلت عند "عبدالله كنيكاييف"، وقد رحب بي هذا الرجل كثيراً.

وزرت سليمان آخون من العلماء، وصلينا الجمعة سويةً ودعاني إلى داره وشربت الشاي معه. بعد ذلك وجد لي بعض معارفي أحد الأطباء المسافرين إلى (أومسكي)[2] فرافقته، ومررنا بـ (أورالسكي)[3] و(ترويسكي)[4] و(أرقلي) و(قيزيل يار) إلى أن وصلنا إلى (بتروباول). وهنا قمت بزيارة داملا رحمت الله الذي لم يتعرف عليّ أول الأمر، فذكرته بنفسي وسرّ كثيراً وقال: إن "آخون عبدالباري" ينتظرك على أحرّ من الجمر ومن حسن حظي أني رأيتك أولاً، وكم أتمنى يا ملا عبدالرشيد أن أسمعك وأنت تقرأ لي القرآن الكريم بأسلوب قرّاء المدينة المنورة، فقرأت له بعض الآيات الكريمة واغرورقت عيناه بالدموع.

---

(١) إربيت Irbit مدينة صغيرة في إقليم سفيردلوفيسك Sverdlovsk Oblast وتبعد عن عاصمة الإقليم يكاترينبيرغ حوالي ٢٥٠ كم شمالاً.

(٢) أومسك Omsk عاصمة ولاية أومسكي التي بها قريته تارا.

(٣) أورالكسي Uralsk في الاتجاه الآخر لرحلته تقع غرب أورينبيرغ في جمهورية كازاخستان، وهو متجه شرقاً. فقد يكون المقصود أورسك Orsk التي على طريقه شرق أورينبيرغ.

(٤) ترويسكي مدينة صغيرة تقع جنوب شرق جبال الأورال في جنوب (إقليم شيلي يابنيسك Chelyabinsk oblast) ملاصقة للحدود الكازاخستانية على نهر أوي Uy المتفرع من نهر طبول.

ثم قال لي: كان والدك يحب قراءة القرآن فعند وصولك إلى (تارا) أوصيك بأن تقرأ له بعض الآيات على مرقده، كذلك اقرأ على روح أمك "صالحة خاتون"[1] بعض الآيات القرآنية من الذكر الحكيم فتنتعش روحها الطاهرة وترضى عنك، وأضاف: إن الناس في تارا ينتظرونك وهم مشتاقون لتلقي العلم على يديك.

فقلت: إني حقاً كفرت بالنعمة وتركت تارا تلك البلدة المباركة وقضيت في الغربة تسع سنوات تاركاً ورائي تسعمائة شخص على الأقل ينتظرون عودتي، وعاد الرجل ينصحني بأن أبذل جهودي في التدريس بأقصى طاقتي.

فقلت: يا سيدي إنني لم أحصل على شيء من العلوم وأضعت وقتي سدىً.

فقال: إذا قلت ذلك فقد لا تستطيع تقديم أية خدمة لأبناء وطنك، وعليك بالعمل وتدبير الأمور وستساعدك روحانية الرسول الأعظم ﷺ على النجاح إن شاء الله، واذكرنا دائماً بالخير وبلّغ سلامنا إلى أهلنا في (تارا) وآمل أن تجد "تحفة الله آغا" في (أومسكي) وهو سيوفر لك شخصاً يرافقك إلى (تارا).

وصلت إلى (أومسكي) ووجدت تحفة الله آغا الذي رحّب بي ووجد لي من يرافقني، وانطلقنا لنصل إلى (أولا) بعد يوم واحد، وأقمنا فيها ليلة واحدة، وجاء أخي إسماعيل إلى (أولا) والتقينا بعد طول فراق. عاد أخي إلى (تارا) مباشرة أثناء الليل

(١) مرّ في ترجمته الشاملة في بداية الكتاب أن اسمها: عفيفة هانم، وقد يكون صالحة خاتون لقباً لها ويعني (المرأة الصالحة) لأنها كانت تدرس أبناء بلدتها القرآن والكتابة وأمور دينهم، والله أعلم.

وتحركنا نحن في صباح اليوم التالي، وعندما وصلنا إلى قرية (كول)التابعة إلى (أولا) وجدنا حشداً كبيراً من الناس جاءوا لاستقبالنا، وبينهم من حضر من مسافات بعيدة، وقد تأثرت من هذا الاستقبال الذي لم أتوقعه، وتوقفنا قليلاً في قرية (طوز قازان) التي استضافنا فيها "داملا عالم آخون"، وكنت أرغب في البقاء هنا مدة أطول ولكن زوج خالتي نصر الدين ملا استعجلني، وتحركنا بعد صلاة العشاء مباشرة ثم استرحنا قليلاً في (خوجه طاو)، وكان بعض المستقبلين قد وصلوا إلى هذه القرية من مسافة ستين ميلاً، ولكنني أسفت لأنه لم أتقدم بكلمة شكر مقابل هذا الإخلاص والمحبة التي قوبلت بهما وندمت على ذلك حيث لا ينفع الندم.

دخلنا إلى قلعة تارا في اليوم الثاني عشر من شهر شباط سنة ١٨٨٥م[1] بعد صلاة الفجر مباشرة، ونزلت في دار أخي إسماعيل، وكان الفرح بادياً على وجوه أهالي البلدة، وجاء الكثيرون وهم يهنئونني على سلامة العودة، وتسلمت برقيات تهنئة كثيرة، وأرسل نصر الدين حاجي ونعمت الله حاجي وعبدالباري آخون برقيات مشابهة. ومن غير أن أضيع الوقت، بدأت بتدريس علم القراءة في المدرسة، وجاء من (إربيت) عدد من الأشخاص الذين يطلبون مني أن أعيّن إماماً عندهم، ولم يمض وقت طويل حتى جاء نصرالدين حاجي من (إربيت) لنفس الغرض، كما أبدوا رغبتهم في تزويجي.

---

(١) الموافق ٢٦/ ٤/ ١٣٠٢هـ.

وقد أبلغتهم بأني قائم بالتدريس بصورة مؤقتة في مدرسة (تارا)، كما أنني أرغب في التوجه إلى الديار المقدسة لكي أعود منها وأنفذ طلبهم، فرفض ذلك نصر الدين حاجي وعبدالملك باي، أمّا "عبدالمجيب حاجي" فقال: إنه لا يرى بأساً في سفري، مضيفاً إنه سيدبر لي حجاً بدلاً من المرحوم عبدالفتاح، وعلى ذلك فإنني قررت السفر إلى الديار الحجازية، وكان عبدالملك باي قد أخبر عبدالله باباي إن كان عبدالرشيد مصراً على السفر فينبغي أن يتزوج أولاً، وكلفني عبدالله باباي بأن أتزوج فقبلت، وأضاف: نحن سندبر لك الزواج من شقيقة "مير حيدرلر" فوافقت على اقتراحه أيضاً، ثم عهدوا إليّ بوظيفة الإمام، فأبديت الموافقة على طلبهم.

وبقيت في (تارا) مدة خمسة عشر يوماً بعد عقد النكاح، ثم أخذت طريقي بعد ذلك إلى الديار المقدسة برفقة أخي إسماعيل، وعند مرورنا من (طبول وتيومان) أخذت معي بعض الطلبة من أقاربنا هناك.

وصلنا استانبول عن طريق (أوديسا) واتصلت هناك ببعض وجهاء المدينة وتذاكرت مع منيف باشا وزير المعارف حول عدد من طرق التدريس والتربية عندنا، وأوصاني ببعض النقاط المتعلقة بإصلاح التعليم وقال لي: لكي نصلح التعليم في بلاد المسلمين فإننا نحتاج إلى الجبّة والعمامة وبغير هذا الأسلوب يتعذر إدخال المعلومات والمعارف إلى بلادنا. وكان منيف باشا يواظب على كتابة مقالاته في صحيفة "عمران" تحت عنوان "مستقبل مسلمي روسيا" وذكر لي معلومات مفيدة كثيرة.

وعندما علم أنني بسبيل إيصال بعض الطلبة إلى المدينة المنورة بغية تعليمهم قال: ولماذا لا ترسلون هؤلاء إلينا كي نعلمهم؟ وعندما وصلنا إلى مكة المكرمة شعرت بالأسف؛ لأن عثمان نوري باشا قد أُبعد من منصبه، وكان معي من الطلبة إبراهيم بن أحمد أفندي وابن المؤذن يعقوب أفندي، وعندما زرت أستاذي أحمد أفندي لم يعجبه قيامي بهذه السفرة وقال لي: كان من الأولى إدخال هؤلاء إلى المدارس الرسمية في استانبول، وأضاف: إنك أقمت في المدينة المنورة فماذا تعلمت؟ وعلى أية حال بما إنك جئت بهم إلى هنا بنية طيبة فليدرسوا بهمة ونشاط على أن يستفيدوا من دراستهم.

وقد تعلمت هذه المرة أشياء جديدة من أستاذي ولمت نفسي على تقصيري في بعض الأمور، وذكر الأستاذ تفاصيل ما يحتاجه أهالي بلادنا من إصلاح وتوجيه، كما أوصاني بوجوب الاتصال ببعض الأشخاص في استانبول.

والخلاصة إن سفرتنا هذه قد علمتنا بعض الدروس المفيدة. وعند عودتنا تعرفنا على أشخاص آخرين بينهم أدباء معروفين، وتعلمنا منهم أشياء كثيرة عن أحوال الدنيا. وبعد هذه السياحة الأخيرة عدت إلى بلدي (تارا) في أول نوفمبر سنة ١٨٨٥م.[١]

(١) الموافق ٢٣/ ١/ ١٣٠٣هـ.

وإلى هنا كانت حياتي عبارة عن صدف، ولم يكن عندي هدف معيّن، لذلك فصلت هذه الفترة من عمري في القسم الثاني[1] من ترجمة سيرتي الذاتية، ولحصول البركة وجدت من المناسب أن أطبع وأنشر نص الإجازة التي حصلت عليها في علم القراءة.



---

(١) أفاد بعض الباحثين الأتراك أنهم لم يقفوا مطلقاً على الجزء الثاني من سيرته، ولعل الشيخ عبدالرشيد إبراهيم لم يكتبها، والله أعلم.

هذه إجازة في علم القراءات من السبعة والعشرة والتقريب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده كتاباً لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطباً ولا يابساً إلا جمعها وحواها، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أُنزِل على سبعة أحرف تسهيلاً وتيسيراً على قارئه أي وقت يريد.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي أعجز بأقصر سورة منه مصاقع البلغاء، وأَبْهتَ لبحر حلاله عقول الفصحاء، وأشهد أن سيدنا محمداً مبعوث بأوامره ونواهيه، معرب عن بيان بلاغته ومعانيه، ﷺ وآله وأصحابه الذين تعلموا القرآن عنه شفاهاً، ولم يزل ينقل إلينا عن جمع لا يتناهى، ورضي الله تعالى عن العلماء العاملين وجميع أئمة الدين، ومشايخنا ووالدينا والقرابة أجمعين، وبعد..

إن العلوم -لا سيما علم القراءات- أشرف المآرب وأعلاها، وأطيب المكاسب وأزكاها، وأهم الأمور بالعناية وأولاها، ومن أجلِّ ذلك علم القرآن الكريم؛ فإنه أصل الدين القويم والشرع المستقيم، وقد ورد في فضله وشرف أهله من الآيات والذكر الحكيم، فمما ورد من الآيات عموماً قوله تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وخصوصاً قوله تعالى: (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا

الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةً يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور). ومن الأخبار: ما رواه الخطيب عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (آل القرآن أهل الله). وقال فيما روى أنس ﷺ: (أفضل العبادة قراءة القرآن). وقال عليه الصلاة والسلام: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب الحديث). وفي البخاري عنه ﷺ: (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه). وروى ابن ماجه عن سعد ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه). وفي مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (أقرأني جبريل القرآن على حرف فلم أزل أستزيده فيزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف). وروى الشيخان: (الماهر في القرآن مع السفرة الكرام البررة). وقال ﷺ: (من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم فما ظنكم بالذي عمل بهذا). رواه أحمد وأبو داود عن معاذ الجهني ﷺ، وخرّج أبو نصر عبدالكريم الشيرازي في "فوائده" وابن النجار في "تاريخه" عن علي ﷺ قال: قال رسول الله عليه وسلم: (أدبوا أولادكم على ثلاثة خصال: حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن؛ فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه). وقال عليه السلام: (يا أبا هريرة تعلم القرآن وعلمه الناس ولا تزال كذلك حتى يأتيك الموت، فإنه إن أتاك الموت وأنت كذلك حجت الملائكة إلى قبرك كما يحج المؤمنون إلى بيت الله الحرام).

وخرّج أبو نعيم عن علي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: (يا علي تعلم القرآن وعلمه الناس فلك بكل حرف عشر حسنات، فإن مت مت شهيداً، يا علي تعلم القرآن وعلمه الناس فإن مت حجت الملائكة إلى قبرك كما يحج الناس بيت الله العتيق).

هذا وقد اختص الله هذه الأمة المحمدية ببقاء اتصال الأخذ والإسناد حفظاً للشريعة المطهرة إلى يوم التناد. قال عبدالله بن المبارك: الإسناد من الدين. وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة)، والإجماع على أن السبعة متواترة وما زاد إلى العشرة كذلك على الصحيح، والقراءة على المشايخ سنة مأثورة.

وأنا ولله الحمد قد أخذتها بالتلقي عن مشايخ عظام وأئمة أعلام، فبعد حفظي لكتابه القديم من الزاهد الكامل حافظ محمد بن حسين الإمام والخطيب بجامع الشيخ محمد الكيلاني العريف[1] بإمام أربه جيلر[2]، ثم ابتدأت وقرأت من مفردات الوجوه بالإتقان والتفرّس وبالتعلّم والتدرّس عن الشيخ العالم الفاضل الكامل الشيخ السيد الحاج مصطفى بن محمد الإسلامبولي العريف بموقت الأفندي الإمام بجامع الهداية والواعظ يوم الجمعة في جامع الشريف أبي الفتح سلطان محمد الغازي عليهم رحمة الباري.

---

(١) أي: المشهور.

(٢) جامع أربه جيلر Arpaçılar في منطقة أمينونو بإسطنبول وهو من أقدم وأوائل المساجد بناه الشيخ محمد الكيلاني عام ١٤٥٣م (٨٥٧هـ) ومعناه: بائعوا الشعير أو زارعوا الشعير.

ثم جمعت القراءات السبعة من طريق الشاطبية والتيسير من الطريقين من العراقيين والمغاربة، ثم قرأت العشرة من طريق الدرة ثم قرأت عليه العشرة أيضاً من طريق الطيبة والنشر الكبير وختمت لكل واحد من الثلاثة ختمة كاملة وقرأت بعضاً من الختمات الثلاثة من شيخ أستاذي الآتي ذكره عند ذهاب الحج الشريف فأجاز لي عند محضر جماعة القرّاء النحارير في سنة سبع وخمسين ومئتين وألف (١٢٥٧هـ) كما أجاز شيخه المتقن المدقق والمأخذ الصحيح المحقق الشيخ عمر بن خليل البولوي[١] رئيس مشايخ القرّاء الشهير بين أقرانه بِـ "قُرّة حافظ" أكرمه الله تعالى بعدد كل ساكت ولافظ، وهو أخذ عن الأستاذ الكامل رئيس مشايخ القراء الحاج حسن بن الحاج علي الوديني[٢] وهو عن المشايخ الكاملين، وهم الشيخ أحمد الصوفي القسطموني قرأ عليه السبعة وفتحجي أفندي وإمام علي أفندي وأخوه خليل والسيد محمود أفندي من السبعة والعشرة بما يسره الله تعالى، ثم أخذ هو عن الشيخ الحاج محمد النعيمي الشهير بابن الكتاني[٣] العشرة من طريق الدرة ومن طريق الطيبة، وهو أخذ القراءات عن الشيخ الحاج حسين بن الحاج مراد الأرضرومي وهو عن شيخ القرّاء والمحدثين أستاذ

---

(١) الشيخ عمر بن خليل الپالوي البستاني المدعو بقرّة حافظ بستاني (پالوي: نسبة لبلدة پالو بالقرب من مدينة ديار بكر شرق تركيا، وقرّة: جمع قارئ أي قرّاء).

(٢) الشيخ الحاج حسن الفهمي الوديني الخطيب بجامع السلطان بايزيد.

(٣) ابن كتاني زاده.

الأساتيذ الشيخ علي المنصوري[1] نزيل قسطنطينية نور الله مرقده، وفي أعلى عليين أرقده، وهو عن أئمة الهدى وأعلام الدين شيخ مشايخ القاهرة محمد البقري والسلطان المزاحي والنور علي الشبراملسي، وأخذ الشيخ السلطان المزاحي عن الشيخ سيف الدين الفضالي، وعن الشيخ شحاذة اليمني وأخذ محمد البقري والشبراملسي عن الشيخ عبدالرحمن اليمني وهو عن والده الشيخ شحاذة عن ناصر الدين الطبلاوي[2] عن القاضي زكريا الأنصاري عن العقبي والنويري وفخر الدين الضرير وهو إمام القرّاء والمحدثين وشيخ الأستاذين شمس الملة والدين محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري الشافعي أفاض الله تعالى على مشهده أنواع البر والإحسان ونفعنا ببركات علومه يوم يفتح أبواب الجنان. وقرأ ابن الجزري على شيخه أبي محمد عبدالرحمن بن أحمد البغدادي[3] وهو عن الإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عبدالخالق

---

(١) شيخ القراء والمحدثين الشيخ علي بن سليمان ابن عبدالله المنصوري المصري، رحل في حدود سنة ١٠٨٨هـ إلى دار الخلافة العثمانية فجلس لنشر علم القراءة على (طريق مصر) فلازم مجلسه جمٌّ غفير من الآخذين الراغبين، وألف كتبا حاوية على ما اختاره من الوجوه فصار في هذا الفن من أصحاب الترجيح، فشاع كلا الطريقين الأول: بطريق إسلامبول لأحمد المسيري المصري عن ناصر الدين الطبلاوي، والثاني: بطريق مصر وكلا الطريقين مقبول عند أهل الأداء ومتبع، وكان الطريق الأول مشهوراً بين المشايخ المتقدمين بطريق التيسير، والثاني بطريق الشاطبية؛ لأن القاعدة في الأول: أن يتخذ التيسير والتحبير أصلاً، ويضمُّ إليهما ما في الشاطبية والدرة أداء ونقلاً، والأصل في الطريق الثاني: اتخاذ الشاطبية والدرة أصلاً وضمِّ ما في التيسير والتحبير إليهما موافقاً لأصول المشايخ. توفي سنة ١١٣٤هـ بالقسطنطينية.

(٢) توفي سنة ٩٦٦هـ.

(٣) أبو محمد عبدالرحمن بن أحمد بن البغدادي الواسطي ثم المصري (٧٠٢-٧٨١ هـ).

المصري[1] عن الشيخ أبي الحسن علي بن شجاع بن سالم العباس[2] صهري الشاطبي، وهو عن ولي الله بلا دفاع أبي محمد القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الشاطبي الرعيني، وهو عن أبي الحسن علي بن هزي عن أبي داود سليمان بن أبي القاسم الأسدي عن إمام القراء أبي عمر الداني عن أبي الفتح فارس بن أحمد الضرير عن عبدالباقي بن الحسن عن إبراهيم بن عمر عن ابن بويان عن ابن الأشعث عن أبي نشيط عن قالون المدني عن نافع المدني عن ابن جعفر يزيد بن القعقع وعبدالرحمن بن هرمز الأعرج ومسلم بن جندب وشبة بن نصاح، وأخذ الأعرج عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عن أبيّ بن كعب الخزرجي ﷺ، وهو عن رسول الله ﷺ، وهو عن أمين وحي الله تعالى جبريل عليه السلام، وهو تلقاه عند رب العزة جل جلاله وعظمت آلاؤه. وبقية أسانيد القرّاء العشرة مبسوطة في "النشر الكبير" فليراجع.

(١) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبدالخالق المعروف بالصائغ (٦٣٦ ـ ٧٢٥ هـ).

(٢) أبو الحسن علي بن شجاع المعروف بالكمال الضرير صهر الشاطبي (٥٧٢ ـ ٦٦١ هـ).

وأخذت أيضاً مسلك[1] صاحب الائتلاف ليوسف أفندي زاده شارح "البخاري" عليه رحمة الباري من طريق "الشاطبية" و"الدرة" والتقريب والماهر الذي هي عن طريق المناسبة عن العالم العامل والأستاذ الكامل شارح زبدة العرفان المسمى بعمدة الخلان رئيس مشايخ القرّاء محمد أمين العريف بعبدالله أفندي زاده[2] الإمام بجامع شريف أبي أيوب الأنصاري والواعظ يوم الجمعة بجامع سلطان أحمد خان عليه الرحمة والغفران.

وأخذت أيضاً مسلك عطا الله النجيب عن الأستاذ الكامل الحاج عمر الطسيوي خواجة مكتب أبي الفتح سلطان محمد خان عليهم الرحمة والغفران،

---

(١) لكل من الطريقين الاسلامبولي والمصري مسالك معتبرة بأخذ بعض الوجوه وترك بعضها على مختار المشايخ البررة، فيخالف بعض صاحب المسلك بعضاً في بعض الفروع من الوجوه، فالبعض يعمل بظاهر عبارات المأخذ المعتبرة على ما به المتقدمون صرَّحوه، والآخر يعمل بالأحوط في الإقراء، ويترك ما فيه ضعف واضطراب عند أهل الأداء؛ لأنَّ استيفاء كل الوجوه ليس بواجب، بل المقصود عند المحققين إقراء الطالب ببعضها، وتنبيهه على الأخرى صوناً لألفاظ النظم عن المعايب، فكل يقرئ كما أخذ عن شيخه من غير نقص وزيادة، هذا هو الواجب في الإقراء والإفادة. والمشهور من المسالك المأخوذة في هذه البلاد في كلا الطريقين مسلكان: ففي طريق إسلامبول مسلك صاحب الائتلاف الشيخ عبدالله المعروف بيوسف أفندي زاده، ومسلك الشيخ أحمد الصُّوفي كما قرأ وأفاد. وفي طريق مصر مسلك صاحب المتقن الشيخ محمَّد النُعَيمي الشهير بكتاني زاده، ومسلك الشيخ عطاء الله النجيب الذي منَّ الله عليه بالشهادة.

(٢) الشيخ أبو عاكف محمد أمين أفندي الأيوبي من علماء القرن الثالث عشر، كان مدرساً بمدرسة خاتونيّة مع الإفتاء بمدينة توقات وهو (نجل الشيخ عبدالله بن إسماعيل الأيوبي شارح ناظمة الزهر توفي سنة ١٢٥٢هـ). وكتاب "زبدة العرفان في أوجه القرآن" هو في علم القراءات للشيخ حامد بن عبدالفتاح الـبالوي.

وسندهما مبسوطة في "النشر الكبير" للإمام الجزري عليه سجال سبع المثاني، وتركتهما خوفاً من الإطناب فليراجع.

ثم إن الله تبارك وتعالى وفقني إلى نشر القراءات وإقرائها بين الطلبة أولى الإفهام على شروط أخذي عن المشايخ الكرام وأساتذتي الفخام من وقت الإجازة إلى هذا الزمان بالجد والسعي والإتقان حتى جاءوا إليّ واجتمعوا لديّ، وقرأوا عليّ منهم العالم الكامل الفهيم الزكي والمجد الماهر بين إخوانه كالبدر الزاهر (مولى الحاج حافظ عبدالرشيد بن عمر الآخون الطاري) زاد الله فيضه ونشره وتقومه ونال ما تمنى وفقه الله تعالى إلى الحالات السنية والأفعال المرضية ويسر آماله الدنيوية والأخروية؛ فإنه لما علم أن علم القرآن والوجوهات[1] علم شرفي وفن لطيف لا يظفر به إلا من هو ماهر ولا يصل إليه إلا من هو في أفق البلاغة زاهر، فبادر في تحصيله ليدخر من كنوزه بأجود الذخائر، وينال من معادن رموزه بأخلص الجواهر، حتى إذا جاء بعد حج بيت الله الحرام في سنة ثمان وتسعين ومئتين بعد الألف المدينة المنورة لقصد زيارة النبي عليه الصلاة والسلام وعلى آله وأصحابه الكرام وأراد بحفظ القرآن وأخذ الوجوهات والقراءات المتواترة، فابتدأ مني كل يوم بمقرأ مع المفردات من الوجوهات، ثم جمع السبعة العشرة وختم ختمة كاملة عند محضر الجماعة في الحرم الشريف النبوي، على مضمن الشاطبية والتيسير لأبي عمر والداني والدرة والتحبير للإمام الجزري، وقرأ

---

(١) أي علم القراءات.

أيضاً العشرة من أول الفاتحة من طريق الطيبة والنشر الكبير وبعضاً من الماهر الذي هو طريق المناسبة، وأخذ أيضاً مسلك يوسف أفندي صاحب الائتلاف، وأخذ أيضاً مسلك عطاء الله النجيب من كتاب مرشد الطلبة لكل منها من الطريقين، وطلب مني الإجازة بما أجازني به مشايخي الكرام وأساتذتي الفخام من الإقراء والإفادة للطالبين وأن يجيز بذلك لمن يراه من المستعدين والآخذين، فأجزته طلباً لمرضات الله تعالى وأوصيته فيما قرأ علي وتلقاه مني ألا يتخطاه ولا يخلطه بسواه إجازة صحيحة مقرونة بالنية والتلفظ مشمولة بالتحرز والتحفظ جعله الله تعالى من المهرة الكرام ومن المنتفعين بعلومهم إلى يوم القيام، آمين.

ثم إنه لازم علينا أن نذكر بعض الفوائد والوصايا ترغيباً بمتابعة أفضل البرايا، منها: ما أخرجه ابن السنّي عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال حين يصبح وحين يمسي حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة) ومنها: ما أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة إلى عائشة رضي الله عنها وعن أبيها أنها قالت: (ما جلس رسول الله ﷺ مجلساً ولا تلا قرآنا ولا صلى إلا ختم ذلك بكلمات، قلت: يا رسول الله أراك ما تجلس مجلساً ولا تتلو قرآناً ولا تصلي صلاةً إلا ختمت بهؤلاء الكلمات قال: نعم من قال خيراً كان طائعاً له على ذلك الخير ومن قال شراً كانت كفارته سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك). منها: ما أخرجه الحافظ أبو محمد الحسن عن

أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: (من أتى منزله فقرأ الحمد لله وقل هو الله أحد نفى الله عنه الفقر وكثر خير بيته حتى يفيض على جيرانه) صدق رسول الله عليه صلوات الله.

ومن الوصايا: ألا يطلب العلم إلا لله، وألا يتخذ سبيلاً للأمور المنهي عنها شرعاً كظهور حسن الصيت والسمعة، وألا يكون للقارئ في قراءته التفات إلى غير الله تعالى؛ فإن من عمل لغير الله أو قصد غير الله خسر ما عمل وكان عمله حجة عليه، وألا يعتمد في الرزق إلا على الله تعالى.

وذكر شيوخي: أن في العلم الغنى عما سوى الله، وفي القرآن المغني عن كل شيء حتى عن النفس، وذكروا لي أيضاً: أن القارئ لا يكون قارئاً حقيقةً حتى يغيب عند قراءته عن الكون كله، فإن لم يمكنه ذلك فليقرأ قراءته خائفاً من طرد ربه عز وجل، فحينئذ لا يرى أحد من الناس في قراءته؛ لقوة سلطان الخوف على قلبه، ومن لم يكن في قراءته كذلك فهي غير نافعة عند الله تعالى أغنى الشركاء.

وأسأله ألا ينساني وأبويَّ وأقربائي وجميع شيوخي من الدعوات الصالحات وهو من عادات السادات، وأوصيه ما أوصاني به مشايخي الكرام من الوصايا المذكورة بين العلماء الأعلام؛ فإنها جامعة لأنواع البر والتعبد إلى الملك العلام، ومن تخلق بها وصل إلى كمال المعرفة وكانت حجة له يوم يناد المنادي بالتفرقة جعلنا الله وإياكم في

زمرة أحبائه ومن السابقين إلى جناته آمين ثم آمين ثم آمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآلهم وصحابتهم أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وقد كان الفراغ من هذه الإجازة في يوم ثلاث وعشرين من شهر ربيع الأول في سنة ثلاثمائة بعد الألف من هجرة من له كان العرف والشرف صلى الله وسلم على خير الخلف والسلف وعلى آله وصحبه وعلى من تبعهم إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين. سنة ١٣٠٠هـ

قاله بلسان الذلة المذنب الفقير القلة الملتجئ إلى غبار المدينة المنورة أحمد بن محمد الخالدي الإسلامبولي العريف بإمام جامع شريف أريه جيلر الحنفي مذهباً والمدني موطناً والنقشبندي طريقة والقادري مشرباً حامداً مصلياً سائلاً من الله حسن الختام بجاه سيدنا ومولانا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى السلام غفر الله ذنوبهما وستر عيوبهما آمين ثم آمين. سنة ١٣٠٠هـ

السيد أحمد



خاتمة المؤلف

الجزء الأول من سيرتي الذاتية انتهت إلى هنا، وسيتبعه الجزء الثاني، وسأسعى حثيثاً للحديث عن أهم محطات حياتي خاصة في: فترة السبع سنوات التي قضيتها في التدريس، فترة السنتين التي أمضيتها في سلك القضاء، مدة ثمانية أشهر التي كنت فيها مفتياً بالنيابة، الحرب الروسية التركية، مكاتباتي مع حسن حسني طويراني وعبدالله كويليام، ومواقفي مع جمال الدين الأفغاني، وصحبتي مع كل من عبدالله نديم وإبراهيم أدهم. وكذلك مراسلاتي مع صحيفة (كوكب أمريكا) بنيويورك و(أبو نظاره) بباريس وصاحب جريدة (طرابلس شام) كامل بيك. وهجرتي من بلدي عام ١٨٩٤م إلى اسطنبول وعملي بالزراعة وجلوسي بدون عمل لمدة ٩ سنوات. وسياحتي لبخارى وأوروبا ومقابلتي لوزير المعارف "باغه ليپوف ڤاننوفسكي" الذي قدمت له لائحة. والوقت الذي أمضيته في سجن أوديسا، واشتراكي في حركة حرية الصحافة والرأي، كل ذلك سأتكلم عنه في الجزء الثاني بالتفصيل. تم الجزء الأول.



مقالة غير منشورة

للداعية الرحالة

الشيخ عبد الرشيد إبراهيم

مقالة بخط يده في أربع صفحات ومكتوبة في حدود عام ١٩٤٠م

إعداد وتقديم

أ. د/ صالح مهدي السامرائي

تعليق وحواشي

منصور بن عبد الباقي بخاري

مقدمة

المقالة المرفقة كتبت بخط عبدالرشيد إبراهيم، وقمت بإعادة كتابتها بأسلوب يسهل على القارئ العربي قراءتها. ولا أتذكر كيف حصلت على المقالة. ومن الواضح أنه كتبها حين إقامته الأخيرة في اليابان وربما في بداية الحرب العالمية الثانية، حين تصدت اليابان لاحتلال الصين والفلبين وإندونيسيا وماليزيا وبورما وحتى الهند. وهي تحتوي على شقين من أفكار عبدالرشيد. الأول: دعوي يؤمن فيه أن الشعب الياباني لديه استعداد كبير لتقبل الإسلام. والثاني: يوضح اعتقاده بأن سيطرة دول الغرب على البلدان الإسلامية يمكن إزالتها عن طريق التعاون مع اليابان، تمامًا كما كان العرب والمسلمون يرون ضرورة التعاون مع الألمان في الحرب العالمية الاولى، ومع الألمان واليابانيين في الحرب العالمية الثانية، كما أن كثيراً من العرب كانوا يرون أن التعاون مع الاتحاد السوفيتي كفيل بتحريرهم.

هذه الأفكار تدرس بزمانها وتقاس بظروفها والمفكرون العرب والمسلمون أعرف مني بتقييمها.

أ.د. صالح بن مهدي السامرائي

المقالة

كان الشعور القومي هو السائد عند العرب في عصور الجاهلية، وكانت عادتهم الافتخار بالقومية وكان يقال عن أحدهم: إنه من بني فلان وبني فلان. ولما بعث النبي الأمين قويت المصلحة العامة في الالتحام ودعم الأخوّة الدينية، فاختلط الناس بعضهم ببعض وتداخلت الأنساب. ومنذ الصدر الأول للإسلام صار الانتساب للمواطن والأقطار كالفارسي والبخاري والترمذي وإلى غير ذلك. لقد كان المقصد الرئيسي هو توفير القوة بالتحام الأمم وانتمائها للإسلام، الدين هو الذي نقل ولاء المسلم وتعصبه من النسب والجنس إلى العقيدة والدين؛ لأن العقيدة الدينية أقوى وأعظم، وإذا أُسست الدولة الحاكمة على الدين فإنها تكون في غنى عن العصبية القومية .

وعلى هذا فإذا تدبرنا الأمر جلياً نجد أن التجمعات القومية والجامعة العربية لا تجلب أي نفع ولا أية قوة للجميع، وأنه إذا لم تتوفر أية قوة جامعة فإن جمع الناس على صعيد واحد هو من أصعب الأمور. وإننا نشاهد بعض زعماء الأمة من يحسن الظن بالأجانب.

مرت أمام أعيننا كارثة الخلافة الهاشمية، ومشاهد الأحداث الدامية في فلسطين واكتفي بالاحتجاجات الفارغة، أما الأجانب فقد هيأوا كل وسائل الدس والتفرقة حيث يجدون لها الظروف التي تعمل على تشتيت القبائل ولو بعد حين.

الأتراك حاربوا النصارى باسم الإسلام مائتين وخمسين سنة (هي سنوات الحرب حينما تجمع النصارى في مواقع كثيرة) ويجب على المسلمين ألّا يفوتوا أية فرصة للتضامن والتعاون للتخلص من سيطرة الأجانب؛ لأن اتفاق المسلمين من أصول دينهم والاعتصام بحبل الله أمر إلهي، والأخوّة الدينية منصوص عليها بصورة قطعية.

إن المسلمين إذا اتحدوا فإنهم يقيمون بذلك سداً شامخاً يمنع عنهم وصول السيول المتدفقة من الأعداء، ولو أن المسلمين اتحدوا تحت لواء واحد فليس ذلك بالأمر الغريب.

أنا لا أقول إن فرداً واحداً يقود الجميع إلا أننا نتمنى أن تكون أحكام القرآن فوق الجميع، وأن يكون أساسنا في الوحدة هو الدين، ونأمل وندعوا الله العلي القدير أن يلهم المسلمين الاتحاد العاجل.

إننا لا يمكن أن نفهم كيف يسكت الشعب الهندي البالغ ثلاثمائة مليون نسمة أو أكثر على سوء العذاب الذي يسومهم به الإنجليز منذ مائة وخمسين سنة، مع أن عدد الإنجليز المقيمين في الهند والذين يستغلون هذا الشعب لا يتعدى مائتي ألف.

ولعلّ تعدد الأديان والأعراق واللغات في الهند قد سهل للإنجليز أن يرسخوا أقدامهم وسط هذه الأمة العظيمة، وأن يستمروا في زرع التفرقة بين المسلمين والهندوس، وبين مكونات الشعب الهندي المتعددة، إلا أن زعماء الهند أيقنوا في الآونة الأخيرة أن الحرية التي يكافح من أجلها الشعب الهندي لا يمكن أن ينالوها إلا باتحاد الشعب وإزالة الخلافات فيما بينهم؛ لذا فإنهم يبذلون كل جهد لتحقيق ذلك.

وهذا ما نشاهده في انتخاب مولوي "أبو الكلام آزاد"[1] رئيساً لحزب المؤتمر الوطني الهندي لهذا العام، وهذا دليل على أن الجهود التي بذلت لاتحاد الهندوس والمسلمين قد كللت بالنجاح، وفي اتحاد عناصر الشعب الهندي قطع لدابر الإنجليز.

يا أهل الهند قوموا بتدبير أموركم الخاصة بأنفسكم؛ لتستردوا ما فقدتموه من شرفكم وعزكم، وبادروا بمجابهة السياسة الإنجليزية العدو الألد لكم، فإنكم كنتم

---

(١) محيي الدين أحمد بن خير الدين المشهور بأبي الكلام آزاد، عالم وزعيم هندي مشهور أحد قادة الثورة الهندية وحركة الاستقلال ضد الاحتلال الإنجليزي، ولد سنة ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) بمكة المكرمة، والده تربى تربية دينية ثم انتقل إلى مكة المكرمة وتزوج من ابنة الشيخ "محمد ظاهر الوتري" فأنجبت له أبو الكلام. انتقل من الحجاز إلى القاهرة ودرس بالأزهر، وتوسع في العلوم الشرعية والعقلية، ثم عاد إلى الهند ليواصل رحلة الكفاح والجهاد ضد الاحتلال مع نهرو وغاندي سنة ١٣٣٠هـ١٩١٢م، كان خطيباً بارعاً. وأصدر عدة صحف مثل «الهلال» و«البلاغ» ودعا صراحة في سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) عند اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى مقاطعة الهنود للانضمام للجيش الإنجليزي. أدخل السجن عدة مرات ومجموع ما قضى بها ١١ عاماً، وكان متأثرًا بشيخ الهند المجاهد «محمود الحسن» أول من دعا لمقاطعة الإنجليز قبل «غاندي» بسنين طويلة. عند قدوم أبي الكلام آزاد للهند وجد حزب المؤتمر الذي يضم خليطًا من المسلمين والهند المطالبين باستقلال الهند فانضم إلى الحزب، وكان انضمامه قوة للحزب، وزخمًا على ساحة الأحداث. وعندما سقطت الخلافة الإسلامية العثمانية قاد أبو الكلام أزاد مظاهرات عارمة بالهند ضد الإنجليز. كان المسلمون في الهند يمثلهم اتجاهان: الأول يرى ضرورة قيام كيان خاص بالمسلمين منفصل عن الهندوس ويمثل هذا الاتجاه محمد إقبال ومحمد علي جناح، الثاني يرى ضرورة استقلال الهند عن الإنجليز وبقاءها وحدة واحدة تضم المسلمين والهندوس ويمثل هذا الاتجاه أبو الكلام أزاد، حسين ذاكر، أبو الأعلى المودودي؛ لذلك ظل أبو الكلام أزاد يعمل في حزب المؤتمر رغم انشقاق كثير من المسلمين عنه وانضمامهم لحزب الرابطة الإسلامية مع «جناح». وأثناء قيام الحرب العالمية الثانية أصبح ينادي بانضمام الهند إلى صفوف الإنجليز مقابل نيل حريتهم واستقلالهم، وكان غاندي ينادي بعدم الانضمام والتمسك بمبدأ السلم واللاعنف. له ترجمة لمعاني القرآن الكريم، وبعد استقلال الهند أصبح أول وزير للتعليم في الحكومة الهندية. توفي في دلهي ٣ شعبان سنة ١٣٧٧هـ ٢٢ فبراير ١٩٥٨م.

فريسة لسياستهم منذ أمد طويل، اسمعوا كلمة الحق، إنما الشرق للشرقيين. كل هذه الأمور من تقدير الله.

الآن ولله الحمد والمنة لنا إخوان وأصدقاء جدد ممن اعتنق الإسلام وشرح الله صدره لهذا الدين في اليابان وهم في ازدياد. لقد أفنيت عمري في هذا السبيل، ورغم أني في العقد التاسع، فإني أكتب وأقرأ من دون استعمال النظارة، وأسمع بصورة طبيعية، وكل هذا ببركة الدعوة إلى الإسلام التي قمت بها بلا فخر في الغرب والشرق.

رفعنا علم الإسلام في عاصمة اليابان وأسسنا "الجمعية الإسلامية" برئاسة الجنرال هياشي[1] رئيس الوزراء الأسبق، وكل الذي حصل هو بتقدير الله المدبر الحقيقي وهو مهدي السبيل، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره.

(١) هياشي سينجورو كان قائد عسكري في الجيش الإمبراطوري الياباني وسياسي ياباني شغل منصب رئيس الوزراء الياباني الثالث والثلاثين، وكانت فترة رئاسته قصيرة بين فبراير إلى يونيه سنة ١٩٣٧م، توفي سنة ١٩٤٣م.

يقول شاعر اليابان على لسانه: نحن أحسن الأمم لآخر الأنبياء، لا نخسر شيئاً إذا كنا نحن كما كان هو ﷺ أفضل الأنبياء.

أنا أحسن الظن بهذه الأمة، فلديهم قسط وافر من شُعب الإيمان؛ إماطة الأذى عن الطريق، والحياء، والنظافة، والتواضع، وهم يغضون أبصارهم وهن يغضضن أبصارهن.

إن عدد سكان اليابان في تزايد، فهم الآن مئة مليون بعد أن كانوا اثنين وأربعين مليون عام ١٩٠٨م وعدد المواليد يزيد عن عدد الوفاة بـ ١٠٦ شخص كل ساعة، وقد زاد عدد السكان (٧٢٩٨٥٨٥) مليون شخص خلال الخمس سنوات الممتدة من ١٩٣٣ - ١٩٣٨م.[١] ولا تسأل عن بسط الله لهذه الأمة من العلم الذي ليس لي حظ فيه، ولا يوجد بينهم أمّي.

يا أهل الإيمان أنتم بعقيدتكم الدينية الراسخة فإنكم أنور الناس عقيدة وأكثرهم استعداداً لنيل معالي الأمور، فهل نسيتم ما وعدكم الله به من إظهار دينكم على الدين كله، وأن رجالكم في كل بقعة وقطر هم من أشجع الناس وأن الله تكفل بأن يبدل خوفكم بالأمن وهو لا يخلف الميعاد.

---

(١) أغلب الظن أن هذه المقالة كتبها في حدود عام ١٩٤٠م؛ لأنه ذكر: (أبو الكلام آزاد قد انتخب رئيساً لحزب المؤتمر الوطني) وهذا حصل عام ١٩٤٠م، كذلك ذكر (هتلر دمّر مدن فرنسا الواحدة تلو الأخرى) وحصل هذا في يونيه ١٩٤٠م، وبذلك تكون هذه المقالة كتبها الشيخ عبدالرشيد إبراهيم في حدود عام ١٩٤٠م أي: قبل وفاته بحوالي أربع سنوات رحمه الله، والله أعلم.

إن العقيدة الإسلامية قد ملكت شغاف قلوبكم فأنتم أحفاد الأسود. كفى تلاعب الأعداء بشؤونكم، افتحوا عيونكم فإن أعداءكم تدور الحروب في رحابهم وإن "هتلر" رجل الإصلاح في الغرب قلب عالي الأرض سافلها، ودمّر مدن فرنسا الواحدة تلو الأخرى وأدخل الرعب في عيون الطامعين، وأدهش العقول بتدميره أعداءه وتخليص بلاده من سيطرة الإنجليز.

إن دولة اليابان رمت نفسها إلى ساحة القتال بهذه السياسة وارتفع شأنها حينما رفعت شعار آسيا الكبرى، فأذاب القلوب سماع دوي المدافع. ولاريب أن الله أنعم على هذه الأمة بالقوة والمنعة ويريد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض ويحق الحق ويقطع دابر الذين ظلموا في أرض المستضعفين الذين وقعوا فريسة لمطامع الدول الغربية منذ أمد بعيد وهم لا يستطيعون دفاعاً عن حوزتهم، وكانوا ينتظرون صيحة برازخ أجدادهم الأمجاد.

قوموا يا أهل الإيمان لإعلاء كلمة الحق؛ لتستردوا ما فقدتم من شرفكم، بادروا لمناهضة سياسة الإنجليز العدو الألد. هذه فرصة سانحة فإن عساكر نيبون (اليابان) أنزلت ضربة قاضية لعدوكم فوق الضربات الألمانية والهزائم الإنجليزية.



تم بحمد الله

اللهم اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين أجمعين ياربّ العالمين

فهارس الكتاب

مراجع التعليقات والحواشي والمقدمة التاريخية

فهرس الأعلام

فهرس المحتويات

مراجع التعليقات والحواشي والمقدمة التاريخية

١. مجامع المناسك ونفع الناسك، ملا رحمت الله الهندي المكي، المدرسة الإسلامية النقشبندية -پكتيا أفغانستان.

٢. مناسك ملا علي القارئ، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية- كراتشي باكستان.

٣. الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين الطبعة السابعة عشر ٢٠٠٧م.

٤. الإعلام بتصحيح كتاب الأعلام، محمد آل رشيد، دار الفتح٢٠١٤م.

٥. حكام مكة، جيرالد دي غوري، مكتبة مدبولي ٢٠١٠م.

٦. أمراء مكة المكرمة، إسماعيل حقي أوزون جارستلي، دار العراب ودار النور ٢٠١٣م.

٧. تاريخ أمة في سير أئمة، د.صالح بن عبدالله بن حميد، مركز تاريخ مكة المكرمة ١٤٣٣هـ.

٨. صفحات من تاريخ مكة المكرمة، سنوك هورخرونيه، مركز تاريخ مكة المكرمة ١٤٣٢هـ.

٩. أعلام من أرض النبوة، أنس كتبي، ١٤١٥هـ.

١٠. قضاة مكة المكرمة، عبدالله بن عبدالرحمن المعلمي، ١٤٣١هـ.

١١. حارة المناخة، د.عاصم حمدان، دار القبلة للثقافة الإسلامية ١٤١٤هـ.

١٢. تاريخ معالم المدينة المنورة، السيد أحمد ياسين الخياري، طبعة سادسة ١٤٢٤هـ.

١٣. تحفة المحبين والأصحاب، عبدالرحمن الأنصاري، المكتبة العتيقة ١٣٩٠هـ.

١٤. اللآلئ الثمينة، عمر بن المدرس الداغستاني، مكتبة زهراء الشرق ٢٠٠٩م.

١٥. الحياة العلمية في مكة المكرمة ١١١٥-١٣٣٤هـ، د.آمال صديق، مركز تاريخ مكة المكرمة ١٤٣٢هـ.

١٦. العالم الإسلامي، عبدالرشيد إبراهيم، دار القبلة ومؤسسة علوم القرآن ٢٠١١م.

١٧. علماء ما وراء النهر المهاجرين للحرمين، منصور بن عبدالباقي بخاري، دار الميراث النبوي ١٤٣٤هـ.

١٨. رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية، محمد عياد الطنطاوي، مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ.

١٩. تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار، الشيخ محمد مراد رمزي، مكتبة عباس أحمد الباز مكة المكرمة ١٤٢٣هـ.

٢٠. مدينتا الجزيرة العربية المقدستان، إلدون رتر، مركز تاريخ مكة المكرمة ١٤٣٣هـ.

٢١. رسالة في وصف المدينة المنورة ١٣٠٣هـ، الشيخ علي بن موسى أفندي، دار اليمامة ١٣٩٢هـ.

٢٢. مرآة الحرمين، إبراهيم رفعت باشا، مكتبة الثقافة الدينية ١٤٣٠هـ.

٢٣. صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة، السيد ياسين أحمد الخياري، طبعة ثالثة ١٤١٥هـ.

٢٤. مستفاد الأخبار في أحوال قزان وبلغار، شهاب الدين المرجاني، جزء أول ١٨٩٧م، وجزء ثاني ١٩٠٠م.

٢٥. ناظورة الحق، شهاب الدين المرجاني، دار الحكمة ودار الفتح ٢٠١٢م.

٢٦. فيض الملك الوهاب المتعالي بأنباء أوائل القرن الثالث عشر والتوالي، الشيخ عبدالستار الدهلوي الصديقي المكي، طبعة ثانية ١٤٣٠هـ.

٢٧. سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر الهجري، عمر عبدالجبار، تهامة طبعة ثالثة ١٤٠٣هـ.

٢٨. المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لعبدالله مرداد، اختصار محمد العمودي، عالم المعرفة طبعة ثانية ١٤٠٦هـ.

٢٩. تركستان، محمود شاكر، دار الإرشاد ١٣٩٠هـ.

٣٠. عمدة الخلان شرح زبدة العرفان ١٢٧٠هـ، للشيخ محمد أمين أفندي.

٣١. الحج قبل مائة عام، يفيم ريزفان، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، طبعة ثانية ١٤١٤هـ.

٣٢. المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، سهيل صابان، مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤٢١هـ.

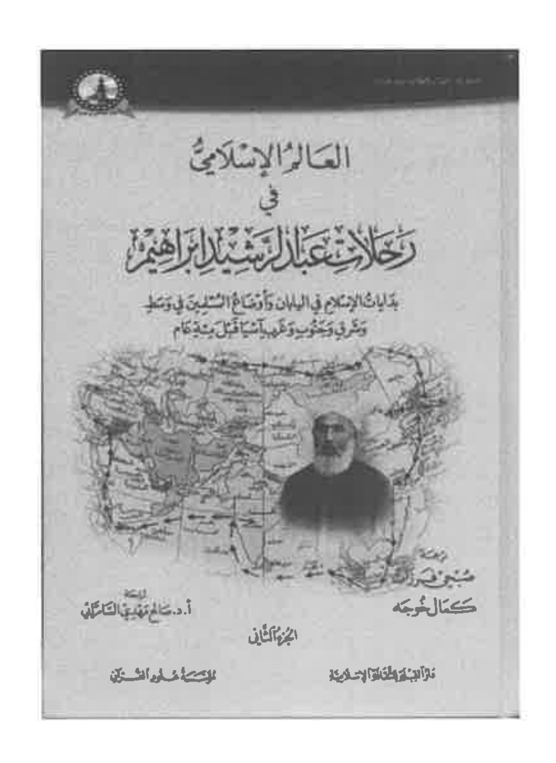
٣٣. بحث: المسلمون في سيبيريا، إعداد المجلس الإسلامي الروسي، وتقديم الدكتور صالح السامرائي ١٤٣٤هـ.

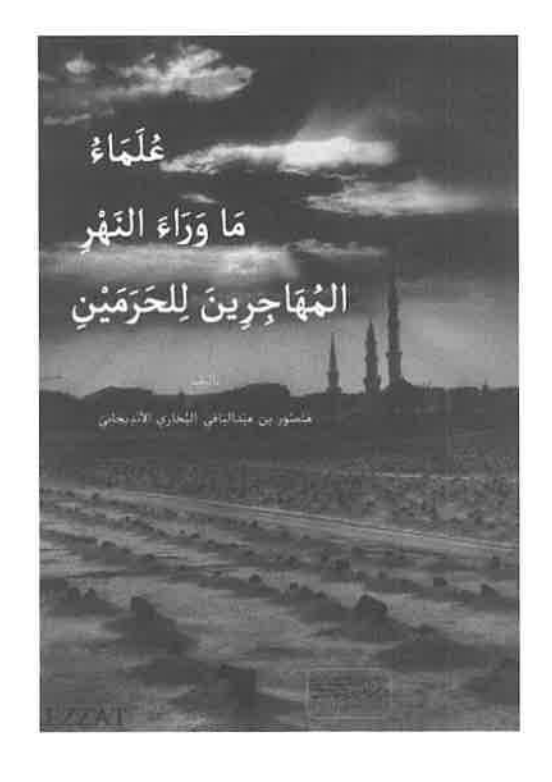
٣٤. رسالة ماجستير: المكتبات العامة بالمدينة المنورة ماضيها وحاضرها لحمادي تونسي ١٤٠١هـ.

٣٥. كراسة مخطوطة "أسماء الأئمة والخطباء والمؤذنين بالمسجد النبوي الشريف" لجعفر هاشم الحسيني.

فهرس المحتويات

فهرس الأعلام


العالمُ الإسلاميُّ
في
رحلاتِ عبدِ الرشيدِ إبراهيمَ
بداياتُ الإسلامِ في اليابانِ وأوضاعُ المسلمينَ في وسطِ
وشرقِ وجنوبِ وغربِ آسيا قبلَ مئةِ عامٍ
كمال خوجه
أ. د. صالح مهدي السامرائي
الجزء الثاني


عُلَمَاءُ
مَا وَرَاءَ النَهْرِ
المُهَاجِرِينَ لِلحَرَمَيْنِ
منصور بن عبدالباقي البخاري الأنديجاني
EZZAT